مجلة مجمع اللغة العربية الأردني

العدد المزدوج ٩ - ١٠
رمضان ١٤٠٠ هـ - صفر ١٤٠١ هـ

السنة الثالثة
آب - كانون الاول ١٩٨٠ م.

المشتمل

أخبار مجمعية

التنافس واثره على النحو والنحاة

للدكتور محمود حسني محمود

(الجامعة الاردنية)

أيّ علم من العلوم يكون في حاجة الى التنافس بين علمائه لكي يتطور وينمو نحو النضج والكمال . ولا اظن ان عِلْما ما يمكن أن يسير سيرا حثيثا؛ وينمو نمّوا متزايدا ، اذا لم تكن روح المنافسة بين علمائه متّقدة متوهجة، كلٌّ يزاحم الآخر على احتلال مكان بارز ،وكلٌّ ينافس الآخر ليثبت أنــه اتى بما لم يستطع احد أن ياتي به ؛ ولكنّ الفرق يكون كبيرا وشاسعا بــين منافسة ومنافسة : فالمنافسة الشريفة النابعة من الحرص والصدق لن تأتي الا بثمار يانعة طيبة الرائحة ، أما اذا تغلبت الأهواء وتصادمت المصالح فلن تاتي المنافسة الا بسلبيات كثيرة يكون لها ابعد الاثر واخطره .

وعلم النحو كان واحدا من تلك العلوم التي تطورت ونضجت سريعا ، وكانت ساحته مجال سباق ومنافسة ؛ بدأت هادئة هدوءا فيه الخير كلــه لعلم النحو ، ولكنها اضطرمت فجأة،فتصادمت العلماء تصادما خلّف نتائج عكسية،وترك ثغرات عديدة .

لم يكن علماء النحو في البداية ــ حين كانت مدرسة البصرة النحوية وحدها في الميدان ــ منشغلين بشيء ، غير تطوير النحو وتثبيت دعائمه ،

وفرض سيطرته على مجالات انشطته ، وبخاصة مجال الشعر، حيث حدث تصادم بين النحاة والشعراء ، كذلك الذي كان بين ابي اسحاق ــ اكثر النحاة تشددا ــ وبين الفرزدق ــ اكثر الشعراء عنفا ــ حينما تَتَبَّع الاول الثاني في شعره وخطّاه (١) في أكثر من موضع ، الأمر الذي استفز الفرزدق واضجره ، وجعله يقول لاحد النحاة،بعد ان ساله عن غامض في شعره من ناحية الاعراب : (٢) « علي ان اقول وعليكم أن تحتجوا » .

وغاية تطوير النحو عند أوائل النحاة جعلتهم يتنافسون في هــدوء وابانة واتزان ؛ فاذا ما احرز السبق احدهم ، اكبره الآخرون وقدروه حق قدره : اتى عيسى بن عمر (ت ١٤٩ هـ) الى أبي عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ) وقال له (٣) : يا ابا عمرو ! ما شيء بلغني انك تجيزه ؟ قال : ما هو ؟ قال : بلغني انك تجيز : « ليس الطيّب الا المسك » بالرفع ، فقال له ابو عمرو : نِمْتَ يا ابا عمر (كنية عيسى بن عمر) وأُدلج النـــاس ؛ ليس في الارض حجازي الا وهو ينصب ، ولا في الارض تميمي الا وهو يرفع . ثم ارسل ابو عمرو تلميذين يسألان اعرابا حجازيين واعرابا تميميين ، فنطق الأعراب بما قال أبو عمرو ، فلما سمع عيسى ما وصل اليه التلميذان من اقــوال الأعراب،أخرج خاتمه من يده ، ثم قال لأبي عمرو (٤) : « لك الخاتم ؛ بهــذا والله فقت الناس » . فلم تكن نتيجة هذه المناظرة الا اكبارا من عيسى لأبي عمرو ، واجلالا .

---

(١) انظر : الشعر والشعراء ، ص ٣٣ (المقدمة) . وانظر : الموشح : ص ٩١،٩٢.

وخزانة الادب : جـ ١ / ٢٣٧ .

(٢) الشعر والشعراء : ص ٣٣ (المقدمة) .

(٣) مجالس العلماء : مجلس ١ . طبقات النحويين واللغويين : ص ٣٨ـ٣٩ .

(٤) مجالس العلماء : مجلس ١ . طبقات النحويين واللغويين : ص ٣٨ـ٣٩ .

ولم يكن النحاة آنذاك يفرقون في المعاملة بين نحوي اتى اليهم من البصرة أو نحوي اتى اليهم من الكوفة ليستفيد من علمهم ويستنير به . فلم يجد الكسائي القادم الى البصرة من بغداد ، لدراسة النحو فيها ، اي عنت او مجافاة ؛ درس النحو على الخليل (٥) بن احمد ، ثم درس على يونس ابن حبيب الذي شجعه واثنى (٦) عليه،ثم (٧) «صدره في موضعه»،وقد قال له مرة بعد اجابة من اجاباته (٨) : « اشهد ان الذين راسوك راسوك باستحقاق » . ولم يك عند يونس أو الخليل تلك الروح التنافسية التي توغلت في نفوس النحاة فيما بعد ؛ اذ لم يك في نفسيهما غير ارادة الافادة، وغير رغبة التطوير في علم النحو ونشره ؛ وهذا ما جعل الكسائي لا يحمل لهما في نفسه شيئا غير التقدير والاحترام ، فاثنى على الخليل ثناء عطرا امام الفراء حين سأله عنه ، قال (٩) : « مات والله النهم يوم مات الخليل، لو رأيته لم يعظم في عينك بشر بعده ».ثم قال : « والله ما تمثلت في صدري جلالة أدب من وجه ولا علم الا وجدت ذلك فرعا من أصل اغترسه،أو سببا من باب افتتحه ، وما رايت احدا اعترضه باب من علم فاخال به ثقة يعتمد عليه ، أو مثال حسن يستمد منه ، الا والخليل صاحب قصته » .

وليت هذه الروح — روح التنافس النظيف ، والتقدير المتبادل — بقيت منغرسة في نفوس النحاة وواصلت سيرها ؛ فالمتتبع للأمر ، المستقصي شعابه المتعددة ، يجد أن هذه الروح داخلها شيء من الغثاثة

---

(٥) نزهة الالباء : ص٥٩ . انباه الرواة : جـ ٢ / ٢٥٨ .

(٦)انظر : مجالس العلماء : مجلس ١٠ ، مجلس ١١٤ ، وانظر : انباه الرواة جـ ٢٦٥/٢.

(٧) نزهة الالباء : ص ٥٩ .

(٨) انباه الرواة : جـ ٢ / ٢٦٥ .

(٩) مجالس العلماء : مجلس ٢٢ ، ص ٢٥٨ .

وشيء من مخلفات التعلق بمغريات الحياة على حساب النحو وحقائقه ، فانعطف مسار النحو في بعض محطاته ، وانحنى انحناءات هنا وهناك ، جعلته يسير في اتجاه غير سليم تماما ، وسجلت على دربه نتوءات بارزة ، وسلبيات كثيرة .

عاد الكسائي الى بغداد — مثقلا بما حمله في جعبته من علم نحاة البصرة ، ومما جمعه من لغة البادية — وبدأ يعلو ذكره ، وبدات شهرته تتزايد ، فقد واتاه الحظ حينما دعاه (١٠) المهدي ليسأله عن فعل الامر من « السواك » ، فاعجب المهدي باجابته،والحقه ليؤدب ابنه الرشيد . ثم صار (١١) مؤدبا فيما بعد للأمين بن الرشيد . وكان نجاح الكسائي في هذا المجال نجاحا له وللكوفيين جميعا ؛ فقد خلفه (١٢) الاحمر الكوفي على تأديب الأمين . وصار ابن (١٣) قادم الكوفي مؤدبا للمعتز قبل ان يصير خليفة . وصار (١٤) ثعلب مؤدبا لطاهر بن محمد ، ولعبد (١٥) الله بن المعتز . وهذا دليل على ان الكوفيين كانوا مقربين عند الخلفاء والأمراء والوزراء والقادة في بغداد ، يؤدبون اولادهم ويعلمونهم النحو على طريقة المذهب الكوفي . فحققوا من وراء ذلك مركزا اجتماعيا بارزا ، وثراء طائلا . فكان الكسائي عند الرشيد في مكانة لا تقل عن مكانة أبي يوسف القاضي . وقد استثارت هذه المكانة ابا يوسف الذي كان يقول عن

---

(١٠) نزهة الالباء : ص ٦١ .

(١١) المصدر نفسه : ص ٦١ .

(١٢) المصدر نفسه : ص ٩٠ .

(١٣) انباه الرواة : ج ٢ / ١٥٨ .

(١٤) المصدر نفسه ج ١ / ١٤٧ .

(١٥) ضحى الاسلام ج ٢ / ٢٩٨ .

الكسائي (١٦) : « اي شيء يحسن ؟ انما يحسن شيئا من كلام العرب ». وكان قال للرشيد عنه (١٧) : « هذا الكوفي قد استفرغك ، وغلب عليك» فقال له : « يا أبا يوسف ، انه ليأتيني بأشياء يشتمل عليها قلبي » . وكان الأحمر ثَريًّا لكثرة المكافآت التي كانت تنهال عليه ؛ فقد روي عنه انه قال : « قعدت مع الأمين ساعة من نهار فوصل الي فيها ثلاثمائة الف درهم ، فانصرفت وقد استغنيت » . ولم يكن ثعلب بأقل من الأحمر في الثراء ، فقد خلف بعد موته : (١٨) « أحدا وعشرين الف درهم ، والفي دينار ، ودكاكين بباب الشام قيمتها يومئذ ثلاثة آلاف دينار ».وكان محمد بن عبد الله بن طاهر قد أجرى (١٩) عليه في كل شهر الف درهم ، وعلى خليفته خمسمائة درهم ، وعلى ختنه ثلاثمائة درهم .

هذا الجاه العريض ، وهذا الثراء الواسع الذي حققه الكوفيون ، دفع البصريين الى ان ترنو ابصارهم نحو بغداد ، فبدأوا يتعاقبون تباعا . فأحس الكوفيون بأن ما حقّقوه معرّض للاندثار،وسيندثر فعلا اذا لم يكونوا اكفياء في الحفاظ عليه . ورأوا ان الامر يتعلق بحياة ومستقبل ، وان فشل احد الكوفيين سيكون فشلا للمدرسة الكوفية نفسها ، وان انتصار احد البصريين سيكون انتصارا للمدرسة البصرية نفسها ؛ فلا بد أن يتاهبوا ، ويكونوا صلابا اقوياء في المجابهة ، ولا بد ان يتخذوا كل وسيلة ويلجأوا الى كل حيلة لردّ البصريين واعادتهم من حيث اتوا . ومن هذا المنطلق ، ومن هذا المناخ النفسي بدأ التنافس عنيفا ؛ ولكنه بدا اعنف واشد حين كان

---

(١٦) نزهة الالباء : ص ٦٢ .

(١٧) طبقات النحويين واللغويين : ص ١٢٨ .

(١٨) انباه الرواة : ج ١ / ١٤٨ .

(١٩) المصدر نفسه ج ١ / ١٤٩ .

يتجلى في قصر خليفة،او بين يدي أمير أو وزير ؛ فقد أشعل هؤلاء نـــــار التنافس بين النحاة ، وزادوها اضطراما ؛ فكانوا يعقدون المناظرات بينهم ، ولا يترددون في دعوة نحوي بصري الى بغداد من أجل مناظرة نحوي كوفي ، او من أجل البتّ في مسألة نحوية دار الخلاف عليها .

ولعل ابرز هذه المناظرات تلك التي دارت بين سيبويه والكوفيين، وعلى راسهم الكسائي ، والتي استوقفت نحاة قدماء (٢٠) ومحدثين (٢١) ادلوا بآرائهم فيها . وقد حقق البصريون في هذه المناظرات تفوقا واضحا ، وصاروا يؤدبون في القصور كما كان الكوفيون يؤدبون ، وصاروا يُسْتَدعُون من البصرة للبتّ في مسألة استعصت على الحل ؟ فهذا اليزيدي (٢٢) يؤدب المامون بن الرشيد كما كان الكسائي يؤدب أخاه الأمين ، وهذا قطرب (٢٣)، تلميذ سيبويه،يعلم ولد ابي دلف القاسم بن عيسى العجلي صاحب الكرخ، ثم يؤدبهم ابنه الحسن بن قطرب فيما بعد ؟ ثم هذا المازني يدعـــــوه الواثق (٢٤) لبيان اعراب بيت من الشعر من البصرة الى بغداد ، ثم يجالس

---

(٢٠) انظر : امالي ابن الشجري : ج ١ / ٢٢٩ ـــ ٢٣٠ . ومغني اللبيب : ص ١٢٠ـــ١٢٦.

(٢١) انظر : سيبويه امام النحاة : ص ١٠٣ ـــ ١١٣ . نشاة النحو : ص ٣٧ــ٤٠ . القواعد النحوية : ص ٩٥ ـــ ٩٧ . في اصو[illegible]حو ص ١٨٠ـــ١٨٢ . من تاريخ النحو: ص ٤٩ـــ٥٠ ، المدرسة البغدادية في تاريخ النحو : ص ٦١ـــ٦٥ .

(٢٢) كان اليزيدي والكسائي يتقارضان لتاديبهما ابني الرشيد (انظر : اخبار النحويـــين البصريين ص ٤٠) اذ كان اليزيدي يؤدب المامون ، والكسائي الامين ، وكان الاثنـــان يجلسان في أيام الرشيد ببغداد معا في مسجد واحد يقرئان القرآن (انظر : تاريخ بغداد ج ١٤/١٤٧) .

(٢٣) انباه الرواة : ج ٣/٢٢٠ .

(٢٤) انباه الرواة : ج ١ / ٢٤٩ .

المتوكل (٢٥) فيما بعد .

وقد أساء التنافسُ في المناظرات الى العلاقات بين نحاة المدرستين، ودفع نحاة المدرسة الواحدة الى الطعن على نحاة المدرسة الاخـــرى ، ومحاولة الانتقاص من علمهم ومكانتهم في قسوة وتَجَنٍّ شديدين ، وادى بهم الى تبادل التهم • وكان البصريون في هذا المجال اقسى واشد ؛ فمن جانبهم كان ابو حاتم يقول : (٢٦)« لم يكن لجميع الكوفيين عالم بالقرآن ولا كلام العرب ؛ ولولا أن الكسائي دنا من الخلفاء فرفعوا من ذكره لم يكن شيئا ، وعِلمُه مختلط بلا حجج ولا علل الا حكايات عن الأعراب مطروحة » . وكان ابو زيد يقول : (٢٧) « قدم الكسائي البصرة،فأخذ عن ابي عمرو ويونس وعيسى بن عمر علما كثيرا صحيحا ، ثم خرج الى بغداد ، فقَدِم اعراب الحطمة ، فأخذ عنهم شيئا فاسدا ، فخلط هذا بـــذاك فأفسده » . وكان المبرد يقول (٢٨) : « ما عرف الرؤاسي بالبصرة ؛ وقد زعم بعض الناس انه صنّف كتابا في النحو ، فدخل البصرة ليعرضه على اصحابنا،فما التفت اليه ، ولم يجسر على سماعهم لما سمع كلامهم » . اما من جانب الكوفيـــين فكان ابو موسى الحامض يقول للزجاج (٢٩) : « صاحبكم الأكبر — يعني سيبويه — كان اغلف اللسان عييّا عن البيان » . وكان ثعلب يؤازره في قوله ، فيقول الزجاج ردا عليهما : « اما نحن فلا نذكر « حدود » الفراء ،

---

(٢٥) انباه الرواة جـ ١ / ٢٥٠ .

(٢٦) مراتب النحويين : ص ٧٤ .

(٢٧) اخبار النحويين البصريين : ص ٥٦ .

(٢٨) انباه الرواة : جـ ٤ / ١٠٢ .

(٢٩) المصدر نفسه : جـ ٢ / ١٤١ .

لان خطاه فيها اكثر من أن يُعد » . وقد عمل الزجاج على رد (٣٠) الكثير من الفاظ « الفصيح » لثعلب ، ولهجت بها الألسن الى أن سئم ثعلب « الفصيح » وانكر ان يكون له .

ولم تكن التهم متبادلة بين نحاة المدرستين فحسب ، وانما تفشت العدوى لاتساع نطاق التنافس،فَنَشَرَت بين نحاة المدرسة الواحدة ؛ فكان الأحمر يزعم (٣١) أن الكسائي لم يكن يبصر التصريف،ويزعم انه علمه . مع أن الأحمر هذا لم يقبل (٣٢) عرض الكسائي عليه تاديب الأمين بن الرشيد الا بعد أن وعده بانه يلقنه كل يوم مسألتين في النحو،وثنتين في معاني الشعر قبل أن ياتيه . وكان الفراء يقول (٣٣) : « مات الكسائي وهو لا يحسن حد « نِعْم » و « بِئْس » و « ان » المفتوحة ، ولم يكن الخليل يحسن « النداء »،ولا سيبويه يدري حد « التعجب » » . مع أن الفراء هذا كان يثني على الكسائي ويقول (٣٤) : « مدحني رجل من النحويين فقال لي : ما اختلافك الى الكسائي وانت مثله في النحو ؟ فأعجبتني نفسي ، فأتيته ، فناظرته مناظرة الأكفاء ، فكأني كنت طائرا يغرف من البحر بمنقاره » . ولعل مَرَدّ طعن الفراء يعود الى أن الكسائي كان يرى فيه منافسا (٣٥) على زعامة المدرسة الكوفية،ولذلك فان الكسائي خلّف بعده الاحمر الكوفي على تأديب ابن الرشيد،ولم يخلّف الفراء،مما ادى الى فارق كبير في نمط

(٣٠) انباه الرواة ج ٣ / ١٤٢ .

(٣١) مجالس العلماء : مجلس ٧٩/١٧١ .

(٣٢) معجم الادباء : ج ١٣/٦ .

(٣٣) بغية الوعاة : ج ٢/١٦٣ .

(٣٤) معجم الادباء : ج ١٣/١٩٢ .

(٣٥) المصدر نفسه : ج ١٣/٦ .

الحياة بين الاثنين، فبينما كان التلاميذ يأتون الأحمر ليلقاهم بوجه منطلق وبشر حسن، كانوا يأتون الفراء ليخرج (٣٦) اليهم معبسا قد اشتمل بكسائه ، وليجلس لهم على باب بيته، ويجلسون هم في التراب بين يديه .

وعلى غرار ما كان بين الفراء والكسائي ، وبين الكسائي والاحمر، كان الأمر بين البصريين ؛ فكان ابو حاتم يقول في استاذه الاخفش الاوسط، سعيد بن مسعدة (٣٧) : « لم يكن بالحاذق في النحو » ، مع أن الأخفش عرف أنه الطريق الى كتاب سيبويه ، وكان الجاحظ يعترف بفضله وعلمه ويقول له (٣٨) : « أنت أعلم الناس في النحو » . وكان ابن جنى يدافع عنه ويرى ان الذين يطعنون عليه انما هم (٣٩) : « اقوام نزرت من معرفة حقائق هذا العلم حظوظهم، وتأخرت عن ادراكه اقدامهم » . حتى الفراء الذي عرف بالغرور ، والاعتداد بالنفس ، كان يعترف بفضل الأخفش ؛ فقد روى أنه دخل على سعيد بن سلمة فقال سعيد (٤٠) : « قد جاءكم سيد أهل اللغة وسيد اهل العربية ». فقال الفراء : « أما ما دام الأخفش يعيش فلا » . وكان أبو هلال العسكري يقول في الأخفش (٤١) : « وله نحو كثير، ليس كثير من النحويين من ينظر في النحو ، يدرس كثرة علمه » .

وقد أدى التنافس ايضا الى انطواء كل مدرسة نحوية على نفسها، وانزوائها عن الأخرى ، وبالتالي عدم اطلاع نحاة المدرسة الواحدة على

---

(٣٦) معجم الادباء : ج ١٣ / ٩ .

(٣٧) نزهة الالباء : ص ١٤٦ .

(٣٨) الحيوان : ج ١/٩١ .

(٣٩) الخصائص : ج ١/٢ .

(٤٠) وفيات الاعيان : ج ٢/١٢٢ . مرآة الجنان ج ٢/٦١ .

(٤١) المصون : ص ١١٩ .

آراء نحاة المدرسة الاخرى الاّ خفية او لمآرب في النفس . غير أن المدرسة البصرية كانت في هذا المجال ــ ايضا ــ اكثر تحفظا ، واكثر تشددا في نظرتها الى مدرسة الكوفة ؛ فلم يأخذ احد من علمائها عن احد من علماء الكوفة الا (٤٢) أبا زيد فانه روى عن المفضل الضبي . وقد بلغ التشدد بالبصريين الى درجة انهم نفوا (٤٣) أن يكون الفراء قد استكثر في دراسته على يونس بن حبيب البصري . أما من ناحية مدرسة الكوفة،فمع أن الكسائي درس على الخليل ويونس بن حبيب ــ وهذان يخرجان من دائرة التنافس،لأنهما سبقا مرحلة الصدام بين المدرستين ــ الا انه حين أراد أن يدرس كتاب سيبويه ــ وسيبويه يأتي في لبّ الصدام ــ قراه (٤٤) على الأخفش الأوسط سرا ، ووهبه (٤٥) سبعين دينارا . لقد كان الكسائي يخشى فعلا أن يعلم البصريون قراءته هذه فيعيروا الكوفيين بذلك . وكان يخشى ان يعلم الامراء والوزراء الذين كان يفاخر أمامهم ويعتدّ ، والذين حكموا له بالغلبة على سيبويه في المناظرة المشهورة بينهما . ومثل الكسائي كان الفراء ايضا ؛ فقد عرف عنه انه كان يقرأ كتاب سيبويه سرا ، ويضعه (٤٦) تحت وسادته ؛ مع انه كان (٤٧) « زائد العصبية على سيبويه »،فكان الجاحظ يقول (٤٨) : « ان الفراء لم ينتفع بالنظر في هذا الكتاب كبير نفع لأنه لم ينظر فيه نظر ناصح لنفسه ، ولا شاكر لمن وصل

---

(٤٢) اخبار النحويين البصريين : ص ٥٧ .

(٤٣) مراتب النحويين : ص ٨٦ .

(٤٤) معجم الادباء : جـ ١١/٢٢٩ .

(٤٥) المصدر نفسه : جـ ١١/٢٢٤ .

(٤٦) انباه الرواة : جـ ٤/٨ .

(٤٧) بغية الوعاة جـ ٢ / ٣٣٣ .

(٤٨) انباه الرواة جـ ٤/٩ .

اليه العلم من جهته ولا معترف بالحق فيه » . اما ثعلب الكوفي فانه جنب نفسه التهم في هذا الأمر فلم يطلع على مذهب البصريين ، وانما حصر نفسه في المذهب الكوفي؛ فدرس كتب الكسائي والفراء ، وكان يعود الى اقوالهما في مناظراته مع البصريين ويلجأ اليها (٤٩)« فاذا سئل عن الحجة والحقيقة . . لم يفرق في النظر ». ولم يك ثعلب مكتفيا بتطبيق ذلك على نفسه، وانما كان يحاول أن يطبقه على تلاميذه ؛ فكان يعاتب ختنه ابا علي الدينوري لأنه كان يتركه ليقرأ كتاب سيبويه على المبرد ، ويقول له (٥٠) : « اذا رآك الناس تمضي الى هذا الرجل وتقرأ عليه يقولون ماذا ؟ » .

وكان النحوي يشعر بالحرج الشديد والخجل من نفسه اذا ما غلبه نحوي آخر في مناظرة بين يدي خليفة او وزير : فهذا ابن السكيت يلوم المازني لانتصاره عليه في مناظرة بين يدي الخليفة الواثق، ويقول له (٥١) : « ما حملك على هذا وبيني وبينك من المودة الخالصة ؟ » فيقول المازني : « والله ما قصدي تخطئتك، ولم اظن انه يعزب عنك ذلك » . وكان النحوي يتعصب لنحوي آخر من مدرسته، ويثور اذا ما غلبه نحوي آخر من المدرسة الأخرى : فهذا ابن قادم يقول (٥٢) : « قدم ابو عمر الجرمي على الحسن ابن سهل ، فقال لي الفراء : بلغني أن ابا عمر الجرمي قدم ، وانا احب أن القاه . فقلت له : فاني اجمع بينكما . فاتيت ابا عمر فاخبرته ، فأجاب الى ذلك . وجمعت بينهما . فلما نظرت الى الجرمي قد غلب الفراء وافحمه، ندمت على ذلك . فقال ثعلب لابن قادم ولم ندمت ؟ قال : لأن علمي علم

(٤٩) طبقات النحويين واللغويين : ص ١٥٥ .

(٥٠) المصدر نفسه ص ١٥٦ .

(٥١) طبقات النحويين واللغويين : ص ٩٤ .

(٥٢) انباه الرواة : جـ ٢/٨١ .

الفراء ، فلما رايته متهورا قلّ في عيني ، ونقص علمه عندي .

وكان التنافس يدفع النحوي في بعض الأحيان الى التحابل على الإعراب والافصاح براي غير الذي يقتنع به ، ولا بأس أن يصوب رايا خاطئا من اجل ارضاء خليفة أو امير ، او وزير او قائد اجتهد رايا في مسألة نحوية « فقد استقدم (٥٣) الخليفة المتوكل المبرد من البصرة ليعرف رايه في همزة ان في قوله تعالى (٥٤) : (وما يشعركم انها اذا جاءت) هل هي مكسورة او مفتوحة ؛ وكان المتوكل قراها بالفتح ، ووزيره الفتح بن خاقان قراها بالكسر . فحدث خلاف بينهما على ذلك . قال المبرد يروي بنفسه : فوردت سُرّ من راى ، فأُدخِلت على الفتح بن خاقان . فقال : يا بصرى ، كيف تقرا هذا الحرف ، (وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون) « انها » بالكسر أو بالفتح ، قل بالكسر او بالفتح ؟ فقلت : بالكسر ، هذا المختار وذلك ان اول الآية : « واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنون بها ، قل انما الآيات عند الله وما يشعركم) ثم قال : يا محمد (انها اذا جاءت لا يؤمنون) باستيفاء جواب الكلام المتقدم . قال : صدقت. وركب الى دار امير المؤمنين فعرّفه بقدومي ، وطالبه بدفع ما تعاقدا عليه وتبايعا فيه . فأمر باحضاري . فلما وقعت عين المتوكل علي قال : يا بصري كيف تقرا هذه الآية : (وما يشعركم انها اذا جاءت) بالكسر ، أو بالفتح ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، اكثر الناس يقراونها بالفتح ، فضحك ، وضرب برجله اليسرى . وقال : احضر يا فتح المال . فقال : والله يا سيدي انه قال لي خلاف ما قال لك.فقال: دعني من هذا . احضر المال. واخرجت. فلم اصل الى الموضع الذي كنت انزلته حتى اتتني رسل الفتح ، فأتيته ،

(٥٣) طبقات النحاة واللغويين : ص ٢٨٢ .

(٥٤) سورة الانعام : آية ٩.

فقال لي : يا بصري أول ما ابتدأتنا به الكذب ، فقلت : ما كذبت . فقال : كيف وقد قلت لأمير المؤمنين الصواب (وما يشعركم انها اذا جاءت) بالفتح. فقلت : أيها الوزير ! لم اقل هكذا ، انما قلت : اكثر الناس يقراونها بالفتح، واكثرهم على الخطأ ، وانما تخلصت من اللائمة ، وهو أمير المؤمنين . فقال لي : احسنت .

وما سَلَكه المبرد سَلَكه يعقوب بن السكيت ، وبأسلوب فيه الكذب على النحو واضح ، والتلفيق بيّن ؛ وذلك حينما استدعي (٥٥) للفصل بين قولي محمد بن عبد الملك الزيات ، وزير المعتصم ، واحمد بن ابي دؤاد في توجيه اعراب (رجل) في قول الشاعر :

أظليم ان مصابكم رجلاً اهدى السلام تحيةً ظُلمُ

وكان محمد قال بالنصب، واحمد بالرفع ؛ فحكم يعقوب لأحمد . قال ثعلب : لقيت يعقوب فعاتبته في هذا عتابا ممضا ، فقال لي : اسمع عذري؛ جاءني رسول ابن ابي دؤاد فمضيت اليه ، فلما رآني بشَّ بي وقرّبني ورفعني ، واخفى في المسالة عن اخباري ، ثم قال لي : يا ابا يوسف ، مالي ارى الكسوة ناقصة ؟ يا غلام،دستا كاملا من كسوتي ، قال : فأُحضِر . ثم قال : كيس فيه مائتا دينار . فأُحضِر ؛ ثم قال لي : اراكب انت ؟ قلت : لا بل راجل ؛ فقال : حماري الفلاني بسرجه ولجامه ، فأُحضِر ، قال : يُسلَّم الجميع الى غلام أبي يوسف ؛ فشكرت له ذلك • ثم قال لي : يا ابا يوسف ، انشدت هذا البيت :

اظليم ان مصابكم رجل

فقال الوزير : انما هو « رجلا » بالنصب ، وقد تراضينا . فقلت :

---

(٥٥) مراتب النحويين : ص ٧٩ — ٨٠ .

القول ما قلت . فخرجت من عنده ، فاذا رسول محمد بن عبد الملك ، فقال: اجب الوزير ، فلما دخلت بدرني وانا واقف ، فقال : يا يعقوب ، اليس الرواية :

اظليم ان مصابكـــم رجـــلا

فقلت : لا بل « رجل » . فقال : اغرب . قال يعقوب : فكيف كنت ترى لي ان اقول ؟!

وبهذا الاسلوب ــ اسلوب ابن السكيت ــ عالج (٥٦) ابن قـــــادم الكوفي ، استاذ ثعلب ، مسألة نحوية عرضت لميمون بن ابرهيم ، كاتـــب اسحاق المصعبي . قال ابن قادم : وجه الي اسحٰق يوما فأحضرني ، فلم ادر ما السبب ، فلما قربت من مجلسه تلقاني ميمون بن ابرهيم،كاتبه على الرسائل،وهو على غاية الهلع والجزع ، فقال لي بصوت خفي : انـــه اسحاق ؛ ومُرَّ غير متلبث ولا متوقف حتى رجع الى مجلس اسحٰق. فراعني ذلك ، فلما مثلت بين يديه ، قال لي : كيف يقال : « وهذا المال مال » أو « وهذا المال مالا » ؟ فعلمت ما اراد ميمون فقلت له : الوجه « وهذا المال مال » ويجوز « وهذا المال مالا » فأقبل اسحـق على ميمون بغلظة وفظاظة، ثم قال : الزم الوجه في كتبك ، ودعنا من يجوز ويجوز ، ورمى بكتاب كان في يده . فسألت عن الخبر فاذا ميمون قد كتب الى المأمون وهو ببلاد الروم عن اسحاق ، وذكر مالا حمله اليه ، فكتب « وهذا المال مالا ».فخط المأمون على الموضع من الكتاب ، ووقع بخطه في حاشيته « تخاطبني بلحن »؟ فقامت القيامة على اسحـق ، فكان ميمون بعد ذلك يقول : ما أدري كيف اشكر ابن قادم ، أبقى علي روحي ونعمتي   قال ثعلب : « وهذا المال مالا » ليس بشيء ، ولكن احسن ابن قادم في التاتي لخلاص ميمون

---

(٥٦) انباه الرواة ج ٢/١٥٧ ــ ١٥٨ .

ولم يكن النحوي يتورع عن التلفظ احيانا باي جواب يرد على لسانه اذا لم يحضر ذهنه الجواب الصحيح ، وعن ان يلفّق شعرا يؤيد جوابه، وذلك من اجل أن يبقى محافظا على سمعته ، وحتى لا تتزعزع الثقة به ؛ فقد ورد (٥٧) المبرد النحوي الدينوري زائرا عيسى بن ماهان ؛ واول ما دخل ، قال له : ايها الشيخ ، ما الشاة المجثَّمة التي نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن اكل لحمها ؟ فقال : هي الشاة القليلة اللبن مثل اللجْبَة فقال : هل من شاهد ؟ فقال : نعم ، قول الراجز :

لم يبق من آل الجعيد نَسَمَهْ الا عُنَيزٌ لُجْبَةٌ مجثَّمةْ

واذا بالحاجب يستأذن لأبي حنيفة الدينوري ، فاذن له ؛ فلما دخل قال له عيسى : ما الشاة المجثَّمة التي نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن اكلها ؟ فقال : هي التي جثمت على ركباتها ، ونحرت من قفاها فقال عيسى : كيف تقول ، وهذا شيخ العراق — يعني أبا العباس المبرد — يقول : هي مثل اللجْبَة ، وهي القليلة اللبن ؛ وانشد البيتين . فقال ابو حنيفة : أيمان البيعة تلزم ابا حنيفة ان كان هذا الشيخ سمع هذا التفسير، وان كان البيتان الا لساعتهما هذه . فقال أبو العباس المبرد : صدق الشيخ أبو حنيفة ، أنِفْتُ ان ارد عليك من العراق ، وذكري ما قد شاع ، فأول ما تسألني عنه لا اعرفه .

وقد وجد تنافس النحاة في العلة ميدانا خصبا تجلى فيه وبرز ، فتنافسوا فيها ، وتوغلوا في شعابها ، ولم يتركوا شيئا في النحو يمكن ان يعلَّل الا أوجدوا له علة مهما كانت واهية مهلهلة ، فعللوا ثقل (٥٨) الفعل

---

(٥٧) انباه الرواة جـ ١ / ٤٣ .

(٥٨) الايضاح : ص ١٠٠ .

وخفة الاسم ، وامتناع (٥٩) الاسماء من الجزم ، والأفعال (٦٠) من الخفض . وعللوا سكون (٦١) لام التعريف ، وعدم (٦٢) اجتماع ال التعريف مع التنوين ، وعدم الجمع ، وعدم ال التعريف والاضافة . وعللوا بناء (٦٤) الفعل الماضي على الفتح ، وبناء (٦٥) فعل الأمر على السكون . ومن هذه العلل الواهية ما ذهب اليه ثعلب حين سأله شيخ : لم اجاز الفراء قولهم « قائمين كان الزيدون » ولم يجز « قائما ضربت زيدا ؟ » اي لم اجاز تقديم خبر كان عليها ولم يجز تقديم الحال على العامل فيها ؛ فقال له (٦٦) : « انما جاز « قائمين كان الزيدون » لأن قائمين خبر لكان ، ولم يجز « قائما ضربت زيدا » لان «قائما» ليس خبرا « لضربت » » . وهذا تعليل ينطلق من غير أساس صحيح ، ولا يخاطب الذهن الصافي ؛ وكان المفروض فيه أن يعلل تعليلا منطلقا من واقع الجملة موطن التعليل،لا من واقع جملة أخرى لا علاقة لها بها ؛ فالفعل الأول فعل ناقص دخل على مبتدأ وخبر فقدم الخبر ، بينما الفعل الثاني فعل تام دخل على اسم‌ذات،وعلى‌وصف‌فقدم الوصف،وتعليله‌كان منطلقا من ان الجملة الثانية‌ليست كالجملة الأولى،فامتنع التقديم فيها فاتخذ من الخلاف

---

(٥٩) الايضاح : ص ١٠٢ .

(٦٠) المصدر نفسه : ص ١٠٧ .

(٦١) اللامات : ص ١٩ .

(٦٢) المصدر نفسه : ص ٣٠ .

(٦٣) المصدر نفسه : ص ٧١ .

(٦٤) اسرار العربية : ص ٣١٥ .

(٦٥) المصدر نفسه : ص ٣١٧ .

(٦٦) انباه الرواة ج ٢ / ٥٧ وانظر علة تقديم الحال : الانصاف ج ١/ ٢٥٠ مسالة ٣١ .

بينهما اساسا لصلة جواز التقديم ومنعه . وهذا منطلق غير صحيح . ومن هذه العلل ما دهب (٦٧) اليه البصريون ردا على الكوفيين من أن فعل التعجب «افعل»،وان كان لا يتصرف الا انه فعل ، وعلّتهم انهم اجمعوا على أن عسى وليس فعلان مع انهما لا يتصرفان ؛ وعلة البصريين واهية،اذ اتخذوا من اجماعهم على مسالة مقياسا لمسائل اخرى وحجة لهم في ما يذهبون اليه ؛ والاجماع ليس حجة ابدا وليس دليلاً على صواب النحاة (٦٨) لأن كل واحد منهم ، كما قال ابن جني : « انما يردك ويرجع بك فيه الى التأمل والطبع لا الى التبعية والشرع » . ومن عللهم ان فعل الأمر بني على الوقف ، لان (٦٩) الأصل في الافعال البناء،والاصل في البناء ان يكون على الوقف،فبني فعل الأمر على الوقف لأن الوقف اصل . وهذه العلة،ان كان منطلقها سليما،فلم يُبْنَ الفعل الماضي على الوقف وبني على الفتح ، مع أن البناء اصل فيه وهو مبني دائما في شتى الأحوال ، وهو مبني ايضا باتفاق (٧٠) جميع النحاة البصريين والكوفيين ، بينما فعل الأمر مختلف فيه بين النحاة ؛ فبينما قال البصريون ببنائه ، قال الكوفيون باعرابه .

لقد ابتعد النحاة بتماديهم في مجال العلل عن جوهر النحو ، واوغلوا بهذا الأسلوب في التمحل والتكلف ، مما جعل القدامى يرون أن هذه العلل انما أتي بها للاحتيال والتمويه . فقد قال ابن قتيبة في توجيه النحاة « لمجَلّف » في قول الشاعر :

---

(٦٧) اسرار العربية : ص ١١٥ .

(٦٨) الخصائص : ج ٢ / ٣٢٦ .

(٦٩) اسرار العربية : ص ٣١٧ .

(٧٠) انظر : شرح ابن عقيل : ج ١ / ٢٤-٢٥ ، حاشية الصبان ج ١ / ٥٨ همع الهوامع ج ٢٦/١ .

وعضّ زمانٍ يا بن مروان لم يدع   من المال الا مسحتًا او مجلّفُ

قال (٧١) : « فرفع آخر البيت ضرورة ، واتعب أهل الاعراب في طلب العلة ، فقالوا وأكثروا ، ولم يأتوا فيه بشيء يرضي ؛ ومن ذا يخفى عليه من أهل النظر أن كل ما أتوا به من العلل احتيال وتمويه . وليت النحاة سلكوا مسلك يونس حين سئل (٧٢) : لم صارت « حتى » تنصب الأفعال المستقبلة ؟ فقال هكذا خلقت . ومسلك الكسائي حين سئل (٧٣) : لم لا يقال : أيَّهم ، في : لأضربن أيُّهم يقوم . فقال : « أي » هكذا خلقت .

ومع أن المدرستين، البصرية والكوفية، انتهتا تقريبا بانتهاء المبرد وثعلب ، الا ان التنافس بين النحاة استمر بعدهما، ولكنه عاد تنافسا فرديا، فيه شيء من الحسد وحب الدنيا ، بعد أن كان زمن المدرستين تنافسا فرديا ومذهبيا معا . وابرز هذا التنافس ذلك الذي كان بين الفارسي والرماني والسيرافي والزجاجي ؛ فقد اتهم الفارسي هؤلاء جميعا تهما مختلفة ، منها اتهامه (٧٤) الرماني بأنه لا يحمل شيئا من النحو وقد علل الأستاذ سعيد الأفغاني تعرض الفارسي للسيرافي والرماني بقوله (٧٥) : « والفارسي ... متهم على الرماني كما هو متهم على السيرافي ، لأن الثلاثة اشرقوا في عصر واحد ، وكان للأخيرين من التوفر في اعين الناس ما ليس للأول . ولأمر ما أولع الفارسي بأن ينص على تلمذة الرماني له حينا » . والمنافسة النابعة من الحسد صرح بها الزجاجي وتخوف منها في تقديمه كتابه « الايضاح » ، فهو يتوقع أن الخصوم سيعترضون عليه ويغالطونه بعد

---

(٧١) الشعر والشعراء : ص ٣٣ .

(٧٢) طبقات النحويين واللغويين : ص ١٢٨ .

(٧٣) الخصائص ج ٢/٢٩٢ ، اوضح المسالك ج ١/١٠٩ .

(٧٤) معجم الادباء ج ١٤/٧٤ .

(٧٥) ملغزة الاعراب : ص ١٣ (المقدمة) .

صدور الكتاب ، ويرى أن لن يُفْصل بينه وبينهم حينئذ الا مناظرة علنية، يشترط أن تكون أمام علماء من ذوي الفهم الدقيق والنظر الصائب.يقول(٧٦):

« ومن مالت به عنه عصبيته أو حميته فعنه يصرف حظه ، وعنا تسقط كلفته ؛ ومن سمت به نفسه الى تتبع ما أودعناه اياه ، وسميناه فيه ، وفحصه والكشف عن حقائقه ، فحقيق عليه أن مر به أن يراجع فكره ويثير قريحته ويحرك خاطره ، ليقف على ما لعله قد انستر عنه ، ولا يحكم من اول وهلة بخروج عن الحق ؛ فان فعل ذلك وتدبره ، ولم يره ينقاد في طريقة القياس مستمرا ، او راى انه لا حق الا في غيره ، كانت حلبة التناظر — باجتماع ذوي الفهم والنظر والفحص والجدال معنا فيها — فاصلة بيننا وبينه ، حتى نصير معا بحق النظر الى الصواب » .

وعُرف التنافس زمن الفارسي ايضا — في مصر بين ابي العباس بن ولاد (ت ٣٣٢ هـ) وابي جعفر بن النحاس (ت ٣٠٧ هـ) ؛ فقد جمع (٧٧) بعض ملوك مصر بينهما ، وأمرهما بالمناظرة ، قال ابن النحاس لابن ولاد : كيف تبني مثل « افعلون » من رميت ؟ فقال : ارميت . فخطاه ابن النحاس وقال : ليس في كلام العرب « افعلون » ولا « افعليت » . فقال ابن ولاد : انما سألتني أن أمثل لك بناء فعلت .

وهذه المناظرة فيها مغالطة وتعمد التخطئة من ابن النحاس ؛ وقد صوب (٧٨) الزبيدي اجابة ابن ولاد ، ودعم ما ذهب اليه بأن الأخفش الأوسط سعيد بن سعدة كان يبني من الأمثلة ما سئل ان يبني عليه ، وان لم يكن ذلك في كلام العرب .

(٧٦) ص ١١—١٢ (المقدمة) .

(٧٧) طبقات النحويين واللغويين : ص ٢٢٨ — ٢٢٩ .

(٧٨) المصدر نفسه : ص ٢٩ .

في نهاية هذا البحث أرجو ان يُفهم انني حاولت ان اجلو ما نتج عـــن التنافس من آثار سلبية على النحو ، واسجله . ولكنني أرجو ايضا الا يفهم من خلال هذا البحث ان النحاة انحرفوا تماما عن جادة الصواب ، وان مظاهر الحياة الخادعة قد اضلتهم الطريق كلها ــ وان كنت قد بينت انها اضلّتهـــــم فعـــــلا في احـــوال عارضـــــة ــ فقـــد عُـــــرف عنهـــم العفـــــــة والنزاهـــــــة والامانـــــة في الحفـــــــاظ على علم النحو ، وعلى خط سيره الصحيح ، وكأن كل شيء، في احيان كثيرة، كان يتضاءل في قيمته ليرتفع شأن النحو عاليا ؛ فهذا المازني (٧٩) يقصده بعض أهل الذمة ليقرأ عليه كتاب سيبويه ، ويعرض عليه مائة دينار مقابل تدريسه اياه ، فيرفض ؛ فيقول له المبرد : جعلت فداءك ، اترد هذه النفقة مع فاقتك وشدة اضاقتك ؟! فيقول : ان هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة وكذا آية ، من كتاب الله عز وجل ، ولست ارى ان امكّن منها ذميا غيرة على كتاب الله تعالى ، وحمية له .

وهذا الكسائي يأتيه الفراء ، فيراه باكيا ، فيقول له (٨٠) : مـــا يبكيك ؟ فيقول : هذا الملك يحيى بن خالد ، يوجه الي فيحضرني ، فيسالني عن شيء ، فان ابطأت في الجواب لحقني منه عتب ، وان بادرت لم آمـــن الزلل ؛ فيقول له الفراء ممتحنا : يا أبا الحسن ، من يعترض عليك ؟ قل ما شئت ، فأنت الكسائي ، واذا بالكسائي يأخذ لسانه بيده ويقول : قطعه الله اذا انا قلت مالا أعلم !

وهذا المبرد يقول (٨١) : « الناس يلحقهم السهو والغلط ، فاذا غلطوا

---

(٧٩) درة الغواص : جـ ١ / ٤٢ .

(٨٠) انباه الرواة : جـ ٢ / ٢٦٦ .

(٨١) الايضاح : ص ٤٠ .

رجعوا فكأن لم يغلطوا ، واذا اقاموا على الغلط بعد أن يتبين لهم الصواب، كانوا جهالا كاذبين » .

ثبت مصادر البحث ومراجعه

الدكتور محمود حسني

١ ــ اخبار النحويين البصريين ــ السيرافي ــ المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٣٦ م .

٢ ــ اسرار العربية ــ ابن الانباري ــ مطبعة الترقي ، دمشق ١٩٥٧ م .

٣ ــ امالي ابن الشجري ــ حيدر آباد ــ الطبعة الاولى ، ١٣٤٩ هـ .

٤ ــ انباه الرواة ــ القفطي ــ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ــ دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٥٠ م .

٥ ــ الانصاف ــ ابن الانباري ــ مطبعة السعادة ــ الطبعة الرابعة ١٩٦١ م .

٦ ــ أوضح المسالك ــ ابن هشام ــ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الخامسة، بيروت ١٩٦٦ م .

٧ ــ الايضاح ــ الزجاجي ــ تحقيق مازن مبارك ــ القاهرة ١٩٥٩ م .

٨ ــ بغية الوعاة ــ السيوطي ــ تحقيق ابو الفضل ابراهيم ، مطبعة الحلبي ، الطبعة الاولى ١٩٦٤ م .

٩ ــ حاشية الصبان ــ دار احياء الكتب العربية .

١٠ ــ تاريخ بغداد ــ البغدادي ــ مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٣١ م .

١١ ــ الحيوان ــ الجاحظ ــ تحقيق عبد السلام هارون ــ مطبعة مصطفى الحلبي .

١٢ ــ خزانة الادب ــ البغدادي ــ تحقيق عبد السلام هارون ــ دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٨ م .

١٣ ــ الخصائص ــ ابن جني ــ تحقيق محمد النجار ــ دار الكتب المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٥٢ م .

١٤ ــ درة الغواص ــ الحريري ــ مطبعة الجوائب ــ القسطنطينية ، الطبعة الاولى ١٢٩٩ هـ .

١٥ ــ سيبويه امام النحاة ــ علي النجدي ناصف ــ مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهــرة ١٩٥٣ م .

١٦ ــ شرح ابن عقيل ــ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ــ مطبعة السعادة ــ الطبعــة الثانية عشرة ، ١٩٦١ م .

١٧ ــ الشعر والشعراء ــ ابن قتيبة ــ دار الثقافة ــ بيروت .

١٨ ــ ضحى الاسلام ــ احمد امين ــ مكتبة النهضة المصرية ــ الطبعة السادسة ، ١٩٦١ م.

١٩ ــ طبقات النحاة واللغويين ــ الاسدي ــ تحقيق الدكتور محمد غياض ــ مطبعةالنعمان ــ النجف ، ١٩٧٣ م .

٢٠ ــ طبقات النحويين واللغويين ــ الزبيدي ــ تحقيق ابو الفضل ابر هيم ــ الطبعة الاولى ١٩٧٤ م .

٢١ ــ في اصول النحو ــ سعيد الافغاني ــ مطبعة جامعة دمشق ــ الطبعة الثالثة ، ١٩٦٤ م

٢٢ ــ القرآن الكريم .

٢٣ ــ القواعد النحوية ــ عبد الحميد حسن ــ مطبعة العلوم ، القاهرة ، ١٩٤٦ م .

٢٤ ــ اللامات ــ الزجاجي ــ تحقيقد. مازن مبارك . المطبعة الهاشمية ــ دمشق ، ١٩٦٩م.

٢٥ ــ مجالس العلماء ــ الزجاجي ــ تحقيق عبد السلام هارون ــ الكويت ، ١٩٦٢ م .

٢٦ ــ المدرسة البغدادية في تاريخ النحو العربي ــ د. محمود حسني محمود ، رسالــــة دكتوراة مخطوطة .

٢٧ ــ مرآة الجنان ــ اليافعي ــ مطبعة دار المعارف النظامية ، ١٣٣٨ هـ .

٢٨ ــ مراتب النحويين ــ ابو الطيب اللغوي ، تحقيق ابو الفضل ابر هيم ــ مطبعة نهضــة مصر ، ١٩٥٥ م .

٢٩ ــ المصون ــ ابو احمد العسكري ــ تحقيق عبد السلام هارون ــ الكويت ١٩٦٠ م .

٣٠ ــ معجم الادباء ــ ياقوت الحموي ــ مكتبة عيسى الحلبي بمصر ــ الطبقة الاخيرة .

٣١ ــ مغني اللبيب ــ ابن هشام ــ تحقيق د. مازن مبارك ، محمد علي حمد الله مراجعــة سعيد الافغاني ــ دار الفكر ــ الطبعة الثالثة ــ ١٩٧٢ م .

٣٢ ـ ملغزة الاعراب ـ الرماني ـ تحقيق سعيد الافغاني ـ مطبعة الجامعة السورية ، ١٩٥٨ م .

٣٣ ـ من تاريخ النحو ـ سعيد الافغاني ـ دار الفكر .

٣٤ ـ الموشح ـ المرزباني ـ المطبعة السلفية ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٣٨٥ هـ .

٣٥ ـ نزهة الالباء ـ ابن الانباري ـ تحقيق د. ابرهيم السامرائي ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٧٠ م .

٣٦ ـ نشأة النحو ـ محمد الطنطاوي ـ دار الصاوي للطبع والنشر ـ القاهرة ١٩٢٨ م.

٣٧ ـ همع الهوامع ـ السيوطي ـ تحقيق عبد السلام هارون الكويت ـ ١٩٧٥ م .

٣٨ ـ وفيات الاعيان ـ ابن خلكان ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨ م .

● ★ ★ ●

عقيدة الخيام

للاستاذ عبد الحق فاضل

تقديم

من خلال رباعياته الفارسية عرفناه نحن العرب في هـذا الجيل ، لكنه كان في حياته من اعلام الثقافة العربية ، لأنه كتب مؤلفاته ورسائله العلمية والفلسفية والدينية باللغة العربية، التي كانت لغة العلم والدين والأدب في زمانه ، لا في فارس وحدها بل في غيرها من اقطار الامبراطورية الاسلامية . وقد طُبع كتابه الجليل (الجبر والمقابلة) بنصّه العربي وترجمته الفرنسية في باريس عام ١٨٥١ — اي ان اللغة العربية هي المرجع لدراسة هذا الاثر وغيره من ثمار عقل الخيام . ولولا أن شهرته برباعياته الفارسية قد غطت على شهرته العلمية وثقافته العربية، لعرفناه واحدا من رجال الفكر العربي، كالفارابي وابن سينا والخوارزمي والزمخشري وغيرهم من اخوانه واخواننا غير العرب، الذين نشأوا في احضان الثقافة العربية والحضارة الاسلامية، والذين هجروا لغاتهم الاصلية في التعلم والتعليم، ودونوا ثمار قرائحهم بالعربية التي احبوها وهاموا بها،

الى حد ان ابا الريحان البيروني،مثلا،كان يقول ان الهجـــو بالعربية أحب اليه من المدح بغيرها ! . . وما كان هذا شعوره وحده .

لهذا ارى ان الخيام جدير بأن يُحتفي بـــه العـــرب في المناسبات،ويصدروا الاعداد الخاصة به من المجلات ، شأنهم مع أمثاله الآنف ذكرهم .

عقيدتــــه

كنت في كتابي « ثورة الخيام » عقدت فصلا بعنوان (الالحـــــاد انرياضي) برهنت فيه على الحاد عمر الخيام ؛ وهنا أعقد فصلا بعنوان (الايمان الرياضي) أبرهن فيه على ايمانه ــ دون أن أمس ذلك الفصـــل الالحادي بتصحيح أو تنقيح ، لان عمر الخيام نفسه قد كان كلا الرجلين .

فكيف كان ذلك ؟

البيهقي ــ جزاه الله خيرا كثيرا عما روى لنا من اخبار الخيام،ولا سيما أن لمروياته،على قلتها وايجازها ونقصها، خطورتها في البحث ، لقرب عهده من مصادرها ، ولأنه يكاد يكون شاهد عيان في بعض ما يعنينا منهـــا ــ يقول عن صاحبنا عمر « وحكى لي ختنه الامام محمد البغدادي انه كان يتخلل بخلال من ذهب (١) ، وكان يتأمل الالهيـــات من (الشفاء) ، فلمـــا وصل الى فصل (الواحد والكثير) وضع الخلال بين الورقتين وقال : ادع الأزكياء حتى أوصي . فوصى ، فقام وصلى . ولم يأكل ولم يشرب ، فلما صلى العشاء الأخيرة سجد ؛ وكان يقول في سجوده : اللهم انك تعلـــم

١ ــ التخلل : تنظيف ما بين الاسنان من بقايا الطعام . والخلال (زنة الهلال) : ما يتخلل به من عود أو نحوه .

اني عرفتك على مبلغ امكاني ، فاغفر لي ، فان معرفتي اياك وسيلتـــــي اليك . ومات » . اه*البيهقي (٢) .

قال لي الخيامي التركي المرحوم رضا توفيق (حين لقيته في استانبول عام ١٩٤٧) انه لا يصدق الحكاية ، لان الخيام كان فقيرا ،وليس معقولا ان يتخلل بخلال من ذهب . غير اني لا اتفق معه في هذا ؛ اولا لأني لا ارى من الضروري تكذيب الحكاية كلها اذا كان جزء منها غير معقول ، وثانيـــا لان الاستنتاج بمثل هذا التعميم لا يبيح لنا انكار نصٍ ينقله راوٍ عرف شخص الخيام (مذ قابله سنة ٥٠٧ هـ ـــ اي قبل وفاة الخيام بعشر سنوات) فلم ينكر من رواية ختنه عنه انه كان يتخلل بخلال من ذهب . وقد كان هـــو اخلق بالشك في صحة ذلك لو قد وجد ما يثير شكا ، وخاصة انه يروي الحكاية نقلا عن شاهد عيان يعرفه ايضا ويثق بروايته ، بدليل انه نقلهـــا دون أن يعلّق عليها ، او يناقش راويها ختن الخيام الذي يظهـــر انه كان مساكنا له في دار واحدة . وليس ثمة ما يحمل اي واحد من الاثنـــــين ـــ الراوي والمروي عنه ـــ على أن يخترع (خلال الذهب) خلافا للواقـــع . وليس مستبعدا أن يكون الخيام اغتنى في بعض مراحل عمره،وهو الـــذي كان يخالط الأمراء والسلاطين . وقد جاء في بعض اخباره أن الوزير نظـــام الملك كان اجرى عليه (١٢٠٠) دينار في السنة ، وربما اجرى عليه وزير آخر أو سلطان ، ما أغناه ولو في اخريات حياته فقط . كما ان الخيام كـــان طبيبا عالي الدرجة،يستدعيه الملك لمعالجة حفيده سنجر حين اصيـــــــب

---

* ـــ ظهير الدين أبو الحسن علي بن زيد البيهقي ، يرجع نسبه الى الصحابي خزيمة الاوسي الملقب بذي الشهادتين ، نزل أبناؤه فارس ـــ « تتمة صوان الحكمة » تم تأليفه ما بين عامي ٥٥٣ و ٥٦٥ هـ . ويلاحظ أن لقب الخلق (البغدادي) ينبيء ان زوجة الخيام كانت عراقية النسب .

بالجدري في صباه (٣) ، والطب صنعة رائجة رابحة ، وما احسب بضاعة الخيام هذه كانت بائرة . حتى لو كان فقيرا حقا أيامئذ فليس من المحال ان يكون احد المعجبين او الاصدقاء قد اهدى اليهذلك الخلال الذهب . وليس ببعيد كذلك ان يكون تفسير هذه النقطة اي شيء لا يخطر لنا ببال . فعلى هذا لا استسيغ تكذيب نص لمجرد وجود نقطة فيه لا نعرف كيـــف نفسرها . وما اكثر الالغاز المستعصية ، وبعضها شديد الغرابة لا نفقه له معنى ، في حيوات رجال التاريخ .

على انحكايتنا هذه تقول بنفسها ان الخيام كان عند وفاته ميســور الحال ، لانه حين شعر بدنو ساعة الصفر المحتومة ، دعا بالأزكيـــاء ليوثقوا وصيته ، فحضروا ووصى فعلا . فلو لم يكن ذا مال ذي بال لما كان ثمة ما يستدعي الوصية ، وتوثيقها من جانب الازكياء ، وهم بمثابـــة الكتـــاب العدول في زماننا .

لكني انا لم أسلم من مثل هذا الخطأ الذي وقع فيه المرحوم رضـــا توفيق ؛ فقد صدرت الطبعة الأولى والثانية من « ثورة الخيام » وانا غير عابىء بالحكاية . . أصدق كل ما رواه البيهقي عن الخيام ما عداها ، فكنت انخطاها كلما وقع نظري عليها . وكان السبب أنها صادرة عن ختن الخيام - اي اخي زوجته او أبيها - فقلت لنفسي،اذا كان معاصرنا المرحـــــوم فروغي (٤) يدافع عن صحة ايمان الخيام،المتهم بالالحاد،ذلك الدفـــاع

---

٣ - هو ابو الحارث سنجر بن محمد بن ملكشاه السلجوقي ، تولى الملك ولقـــب بالسلطان الاعظم .

٤ - محمد علي فروغي ذكاء الملك ، كان احد جهابذة السياسة والعلم والادب في ايران ، توفي اثناء الحرب العالمية الثانية . اصدر مجموعة لرباعيات الخيام باسم « رباعيـات حكيم خيام نيشابوري » وقدم لها ببحث قيّم،على ايجازه،وعلى مخالفتنا لبعض آرائه فيه. طبعت في طهران سنة ١٣٢١ شمسية ، اي ١٩٤٢ م .

الحار ، غير المنطقي ، ويتأول حتى الرباعيات الالحادية الواضحة الكفران، بالرغم من أن أكثر من ثماني مئات من السنين تفصل بين المحامي والمتهم ، وبالرغم من عدم وجود اية رابطة شخصية بينهما من صداقة أو مخاتنة — فما بالي بالامام محمد البغدادي، ختن الخيام ؟ كيف اصدق حكايته ضد رواية القفطي الذي قال لنا بكل جلاء عن الخيام إن اهل زمانه قدحوا في دينه .. حتى لخشي على دمه وأمسك من عنان لسانه وقلمه ؟ .. وضد اتهـــام الرازي اياه بأنه من الدهريين والطبيعيين الضالين، بالرغم من اكبـــاره لـــه ؟ (٥)

يضاف الى ذلك ان الرواية نفسها لا تخلو مما يثير الشك أو التساؤل على الأقل . فان ما يقال في السجود أثناء الصلاة هو « سبحان ربي الأعلى» .. فلماذا قال الخيام في سجوده غير ذلك ؟ كما ان ما يقال في السجود انما يقال سرًّا، اي همسا لا جهرا ، فكيف سمعه الختن ؟ وان شئت مشككا آخر علاوة على هذا، فكيف علم أن الخيام وقف في القراءة عند (فصل الواحد والكثير) من كتاب (الشفاء) وهو من أشهر كتب ابن سينا ؟

من اجل هذا اهملت هذه الحكاية من رواية البيهقي التي صدقتها كلها، لأني لم اجد فيها — عدا هذه الحكاية — ما يدعو الى شك او تكذيب . وكان ذلك تسرّعًا مني .

بعد الطبعة الثانية من « ثورة الخيام » عدت الى القصة أنظرها بعين جديدة ، ازالت قبل كل شيء ذلك التناقض بين روايتي القفطي والرازي وغيرهما عن الحاد الخيام، وبين رواية ختنه عن ايمانه ؛ فظهر لي أن عمـــر الخيام نفسه قد كان كلا الرجلين ؛ ذلك أن الالحاد والايمان لم يلتقيا في فترة واحدة من حياته . فنحن وان كنا على جهل تام بمرحلة الحاده، فاننا نعلم أن

● — ورد تفصيل ذلك في « ثورة الخيام » .

ايمانه كان في شيخوخته،وقد اطلعنا عليه في آخر يوم من حياته بالتحديد . وما اكثر مَن اُلحِدَ من العلماء والمفكرين في عهد الشباب او الكهولة ثم فاء الى الايمان في الشيخوخة .

وعلى ضو هذه الظاهرة نعود الى النقاط الغامضة التي اشـــارت شكوكنا لنمتحنها ونحقق النظر فيها . فأما كيف عرف الامام محمد البغدادي ان صهره الخيام وقف من (الشفاء) عند (فصل الواحد والكثير) فهـذه ابسط المشاكل واسهلها جوابا . عندما فتح الكتاب — ربما بعد أن اسلـم الخيام الروح — حيث كان قد وضع الخلال بين الورقتين — وجد هـــذا العنوان في احدى الصفحتين .

واما ما قاله الخيام في سجوده،فالظاهر انه كان خارج صلاة العشاء الأخيرة — الأصولية — التي يقال في سجودها « سبحان ربي الاعلى » . واكبر ظني ان البيهقي لم يحسن اختيار اللفظ للتعبير عن هذه النقطة ، ولو ان عبارته تحتمل تفسيرنا هذا . فهو يقول : « فلما صلى العشاء الأخيرة سجد .. » اي : فلما فرغ من صلاة العشاء الأخيرة سجد . ولا معنـــى لعبارته بغير هذا التفسير،لأن السجدات في أثناء الصلاة بديهية لا حاجـة الى ذكرها . ولو كان قصده السجود الذي في اثنائها لقال : « فلما صلى العشاء الأخيرة وسجد كان يقول في سجوده .. » أو : « فلما سجد فيصلاة العشاء الأخيرة .. » .. أما خارج الصلاة فما أكثر ما يسجد المسلم لله شكرا او تضرعا ، او تحية للمسجد ، او استقبالا للأجل .

فلما احس الخيام بدنو ساعته وصّى ، وكان متهيئا نفسيا للقـــاء الرفيق الأعلى،فسجد بعد صلاة العشاء تضرعا وانابة . وفي مثل هـــذه الحالة من المعقول أن يكون قد جهر بما قاله،ورفع به صوته من فرط التأثر وحرارة الابتهال . كما يحتمل ان يكون كرر الدعاء بعد السجود فسمعه

ختنه . وأية كانت الحالة فقد وردت أحاديث نبوية عن أجلّة من الصحابة أن الرسول كان يدعو أحيانا في سجوده ويقول كذا وكذا ، من مختلف الأدعية(٦)ويظهر ان البيهقي قد دوّن نص دعاء الخيام حين سمعه من الختن ليثبته في كتابه ، كما يفعل أمثاله ممن يؤلفون عن المشهورين او يجمعون الاقوال والنصوص .

أما الاحساس بدنوّ الأجل فظاهرة كثير حدوثها ؛ ولعل القارىء قد صادف من معارفه أو اقاربه — كما صادفت انا — مَن احسّوا بقرب تسليم الروح،ولو لم تعتورهم أثناء المرض نوبة او انتكاسة فجائية منذرة ، سوى الهاجس الداخلي .

من الملحوظ أن بعض الرواة — ومنهم رواة الخيام — ميالون الى الاختزال أحيانا،فيحذفون كلمات أو عبارات يظنونها زائدة او غير ذات جدوى ، غير مقدرين ما لها عند الباحث المحلل المدقق من خطورة ؛ وهي قد تغير المعنى أو تقلبه ، أو تضعف الرواية على الاقل . من ذلك مثلا رواية الشهرزوري لهذه الحكاية نفسها : فبدلا من أن يقول « روى البيهقي ان ختن الخيام الامام محمد البغدادي حكى له كذا وكذا .. » — قال الشهرزوري عن الخيام : « وحكي (بصيغة المجهول) أنه كان يتخلل بخلال من ذهب،وكان يتأمل الالهيات من الشفاء .. » (٧) .. فليتصور القارىء كم كانت تهبط قيمة الحكاية لو لم تصل الينا رواية البيهقي الأصلية،التي منها علمنا ان الراوي ناقل مباشر ، ثقة ، عن شاهد عيان . شيء من هذا

---

٦ — ابن تيمية : « الكلم الطيب » — تحقيق محمد ناصر الدين الالباني — فيه امثلة من أدعية السجود النبوية ، ص ٦٠و٦١ .

٧ — شمس الدين محمد بن محمود الشهرزوري — « نزهة الارواح وروضة الافراح » — تأليف ٥٨٦ — ٦١١ هـ .

القبيل اقوله عن البيهقي نفسه ، فلا بد أن ختن الخيام قد روى له أمـــورا اكثر اقناعا واوفى تفاصيل مما اختصره لنا في نصه هذا الذي لم يجد هو فيه ما يثير تساؤلا أو يتطلب اقناعا أو ايضاحا ــ لأن الحكاية كما سمعها كانت مقنعة واضحة . ولعله كان شخصيا يعلم عن تدين الخيام وتقواه ما لـــم يذكره لنا اكتفاء بزواية الامام محمد البغدادي .

ما سبب الحاد الخيام ؟

انه السبب الرائج للالحاد بخطوطه العريضة في كل مكان ، ولا سيما لدى العلماء والمفكرين .

لماذا كل هذا الجور في الحياة ؟

لماذا يسعد الأشرار ويثرون ، بينما يشقى الأحرار ويفتقرون ؟

لماذا يخلق الانسان لينمو ، ثم يموت بعد ان يتم ويكتمل ويصبح أجدر بالحياة ؟

لماذا تموت الصبيّة كالوردة في ميعة عمرها قبل أن يأتي دورها ؟

لماذا كل هذا الاضطراب والظلم ، واللامعقول ، في العالم ؟

لماذا .. لماذا .. لماذا ... (وقد ادرجنا نماذج أخرى من تساؤلاته و (لماذاته) في فصل (الالحاد الرياضي) في « ثورة الخيام ») ..

فالذي يستطيع أن يستنتجه بعضهم من كل هذا انه لو كان للكون اله لما كان جائرا ، وان كان جائرا فلا يمكن أن يكون الها .

ولا بد ان الخيام كان عارفا بالقالة السفسطائية الاغريقية المشهورة: إما ان الله لا يريد الشر ولا يستطيع أن يمنعه ، واما أنه يستطيع ولا يريد ، واما انه يريد ولا يستطيع .. وكل اولئك يعني انه ليس الها . والرابعة

انه لا يريد الشر ويستطيع ان يمنعه ، وهذا أيضا مستحيل ، لانه يقـــال عندئذ : ماله لا يفعل اذن ؟

يضاف الى ما تقدم من أفكار تقود الى الجحود والكفران بذات الله ، ان الالحاد ضرب من التمرد الذي يتسم به عهد الفتوة التي من طبعها التحدي والنزوع الى التجديد، والخروج على الموروث من معتقدات ومواضعات دينية واجتماعية وذوقية . . حتى في الأزياء . . حتى في الموسيقا والأغاني . . وقد رأينا بأعيننا انتشار بدعة اطالة اللحية على عهدنا عند أحداث الجيل ، خلافا لجيل آبائهم ، ثم اطالة شعر الراس محاكاة للاناث . ولا تسل عن تملص الفن عموما — من رسم عبثي وادب تشكيلي — من كل القيود، وخاصة من القيد الجوهري الأساسي الذي انما خلق الفن والأدب للتعبير عنه ، وهـو المعنى . وما كل هذا غير طراز من الالحاد الاجتماعي .

بديهي ان فكرة وجود خالق للكون مبدع لكل شيء لم ينتظر الخيـــام حتى يشيخ ليتعلمها، فهي في الواقع أول شيء من الاسلام تُعلِّمه الصبي ، عمر ، في دروس علم الكلام (الالهيات) يوم قالوا له : كل متغير حادث ، وكل حادث له محدث . والعالم متغير، فهو اذن حادث، فلا بد أن يكون لـــــه محدث، أي صانع او خالق هو الله سبحانه . فكان يحفظ ذلك صبيا، ويتفهمه ويعيده على ممتحنيه مثلما يحفظ (قفا نبك) ويتفهمها ويعيدها. غير أنـــه حين شب ونما جسمه واضطرمت فتوته في مرحلة التمرد والتحدي، بدأ يقول (لماذا) ؟ ولا بد انه كان يسمع اقاويل الملحدين المنكرين ايضا ، فكان يقارن ويوازن . وحين لابس الحياة واحتك بتفاعلاتها، لَعُلَّه عانى واقعيا فوضـــى الأمور واختلال معايير العدالة، بل فقدانها في الكثير من الاحوال ؛ وربما اصابه الكثير من عقابيل ذلك ، ولعله قاسى أيضا من تحيز القدر في معاملة الناس شيئا غير قليل — علاوة على لا منطقية الموت ومجهولية المبتـــدا

والمنتهى ، لا بد انه حين واجه كل أولئك صار رنين (لماذا) يدوي بقوة في رأسه — استفهاميا حينا ، واحتجاجيًا حينا ، واستنكاريا حينا آخر .

ولا بد كذلك ان الخيام قد درس منذ الصبا ايضا اجوبة الدين على اسئلته واعتراضاته ، فقيل له ان (الآخرة) تصحح أغلاط الدنيا . فـ « من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ؟ فكما يثاب الأخيار على صالح اعمالهم وعلى ما يبتلون به من مصائب الحياة ، يعاقب الاشرار على شرورهم، ويحصى ما يتمتعون به في الدنيا من نعم الحياة فيحسب على سيئاتهم . . والظالم يؤخذ من حسناته يوم القيامة لتضاف الى حسنات المظلوم، فان لم تكن له حسنات أضيف الى سيئاته من سيئات المظلوم . . « يقضى بينهم بالحق ، وهم لا يظلمون » .

لكن هذا الذي تعلمه في الصغر تبخّر تأثيره والاقتناع به مع الزمن في دورة الشباب . كل الملحدين يعرفون موقف الدين هذا ، لكنهم يزيغون عنه ويذهب بهم الفكر و (اللماذات) مذهب الحيرة فالنكران .

على أن تقدم السن يخفف من فورة التمرد والتحدي ايضا . وكثيرا ما يؤمن الشيوخ بعد كفران . والتأويل الرائج لهذه الظاهرة هو ان المرء حين يستنفذ عمره،وتخبو حدة شهواته،ويقترب منه قبره،يستغفر ربه خوفا من ويلات الآخرة وطمعا في نعيمها،فيتوب عن معاصيه ، وكثيرا ما يعكف على العبادة واداء الفرائض من حج وصوم وصلاة وزكاة ؛ ومنهم من يتصدق بما حشد من مال حرام ، وبعضهم يبني المساجد ، أو يوقف املاكه على وجوه البر .

لكني لا اخال هذا منطبقا على مثل شيخنا الخيام ، بل على مثل ابي نواس الذي كان يقول في شبابه :

قم سيدي نعص جبار السماوات

فهو كان يؤمن بأنّ في السماوات جباراً،لكنه يعصيه تمردا وسفاهة حتى بعد ان حج البيت وقال في بعض قريضه ما ينم عن ايمانه . وذلك شأن معظم العصاة من الناس . يؤمنون بالله القاهر فوق عباده،ولا يمنعهم ايمانهم من اتيان المعاصي،من غش وابتزاز وعدوان وفسوق،وما الى ذلك من صغائر الذنوب وكبائرها . . كالولد الشقي المتمرد،يرتكب كل ما تسول له نفسه ضد أوامر ابيه ومعلميه على الرغم من علمه ـ يقينا ـ بما سينال من عقاب وضرب وجيع .

فاذا ادبر الشباب وحلّ المشيب ببعض المارقين عن الدين تابوا .

قال أبو نواس فيما قال :

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه   فاذا عصارة كل ذاك اثام !

يتوب من آثامه لا من الحاده . انه لم يخرج على الدين عن فلسفة ، ولا هو تاب عن تفكير. لأن التوبة خامرته فيما يظهر عند اعتلال جسده، ربما بسبب الاسراف على نفسه في الخمر والفجور . ويغلب على ظني انه لو عاوده عنفوان الشباب واقبال الحياة لتاب عن توبته .

الخيام طراز آخر ، كان كفره بالدين والحاده بالله عقليا ، اي علميا، لا جهليا او عصيانيا ؛ فلما عاد الى الايمان عاد عن تفكير وتأمل . فلهذا لم يستغفر في دعائه الاخير عن ذنوبه ومعاصيه ، بل عن عدم تمكنه من معرفة الله .

بعد أن شبع وسئم في مدارج العمر من كثرة تساؤل وطول احتجاج واعتراض ، اخذت (لماذا) تضعف وتتلاشى مع الزمن وبالتدريج . . لتظهر مقابلها فينفس الوقت ، مع الزمن وبالتدريج : (كيف) ؟ . . ولا سيما أن شعلة التمرد والتحدي خمدت مع تدرج خمود الفتوة ونضج الكهولة ،

فأصبحت نظرته الى الامور وتأملاته في شؤون العالم تتسم بشيء من الحياد .. الايجابي .

اذا كانت تأملات أبي نواس قد قادته الى القول :

وفي كل شيء له آيــة تدل على انه واحدُ

فلا بد أن هذه الحقيقة قد كانت أجلى لعين الخيام، وهو أوسع علمـا وأعمق فكرا ، وأكثر اهتماما بتقصي الحقائق والتفتيش عن المجهـولات واسرار الحياة والكون . لا بد أنه تساءل :

(كيف) نبتت هذه الشجرة الوارفة من تلك البذرة الصغيرة ؟ كـل أوراق هذه الدوحة الضخمة وخضرتها وخشبها والوان نورها ونوع ثمرتها وطعمها .. كل هذا كان مسجلا بطريقة خفية ودقة غير معقولة في تلـك البذرة الصغيرة .

(كيف) تكونت هذه الحيوانات في أرحام أمهاتها ، من لا شيء تقريبا، من ماء دافق لا يبين فيه اثر لحياة .. ثم أخذ كل منها منذ ولادته يتصرف على نحو خاص بأبناء نوعه دون تعليم ، بالفطرة ؟

(كيف) تكونت هذه الفطرة ؟

والانسان .. (كيف) سطرت كل خصائص شخصيته بالتفصيـل المسهب ، المتقن ، في تلك النطفة الضئيلة ؟ كل البرنامج : الطول والحجم ولون البشرة وعدد الشعرات في الجسم في كل مرحلة من مراحل الحياة .. والأحاسيس ، والمشاعر ، والهواجس ، والأفكار ؛ وكيف يواجه جسمه ونفسه وعقله كل أنواع الاحتمالات الـ تصادفه في الحيـاة ، وكـل الاستجابات والتفاعلات وتعاملات البيئة ؟ .. والخيام طبيب ..

وهذا الكون (كيف) تهندس بنجومه الثابتة على مسافات محددة ..

ـ والخيام فلكي ــ وبكواكبه السيارة المتحركة بحسابات مضبوطة ؟ ..
ـ والخيام رياضي ــ هذا الكون (كيف) نشأ و (كيف) يعمل ؟ (ولو انه لم يكن معروفا يومئذ ان الفلك يتحرك كله ويسير) .

وهذه الفصول السنوية (كيف) تتغير وتتعاقب بانتظام، فلا يتقدم دوران السنة دقيقة واحدة ولا يتأخر ؟ .. والخيام قد شارك في وضع التقويم السنوي الذي يبدأ في لحظة تعادل الليل والنهار الربيعي .. وهو فوق ذلك خبير بعلم الأجواء والأنواء ..

بعض هذه الاسئلة يظهر في رباعياته ، لكني لا اشك انها كلها ــ واكثر منها ــ قد كانت موضوع اهتمامه وتأملاته .

كيف وكيف وكيف ؟ ...
كل شيء يدعو الى العجب ، بل الدهشة .
وكلما كان العقل أكبر كان تعجبه ودهشته أكبر .

هذا الكون المذهل بكل هذه العظمة وهذه الدقة، من أعظم شيء الى اصغر ذرة فيه لا يمكن أن يكون قد تَكوَّن مصادفة . وهذه الدقة المتناهية المحكمة الى حد لا يدركه الفكر، يستحيل أن تكون هي التي خلقت نفسها .

قال لي في اذن قلبي الفلك الدوار همسا :
لأرحت الآن نفسي من هيامي ودواري !
انا لو كان بامري دوراني في مداري
أتظن الحكم حكمي في الورى سعدا ونحسا ؟

كلا ، ان الفلك لم يبدع نفسه ، ولا هو يدور باختياره ، ولا بوعي منه ؛ انه كالثور يدور في الناعورة لا يدري من أجل ماذا .

لسنا نعلم في اية مرحلة من حياته قال هذه الرباعية ، وهي رباعية

خيامية الدلالة،حتى ان لم يكن الخيام قائلها فعلا .

(كيف) اذن نشأ الفلك ، و (كيف) دار ؟

انه بحـــر وجود جـــاء من طـــي الخفـــاء؟
درة للبحـــث لم تُثْقَب بعلـــم او ذكـــــاء؟
كلهـــم جـــاء بقـــول من تَظَنٍّ وهـــــــراء؟
غير ان الحـــق لم يظهـــر عليـــه ابن فنـــاء؟

(لا أدرية) صريحة ؟ وهي من الرباعيات (المعتمدة) التي يرجح ترجيحا قويا صحة نسبتها الى الخيام . وثمة امثال لهذه اللاادريـــــــة في رباعيات أخريات . ثم :

يا فتى من صولج التقديـــر كالأُكرة يجـــري(٨)
سِرْ شمالا ويمينـــا ، ثم لا تنطق بأمـــــر
ان من القاك في المحنـــة من كُـــرٍّ وفـــــرِ
هو يدري،وهو يدري،وهو يدري،وهويدري

(لا أدرية) أخرى ، لكن من نوع آخر . فالخيام نفسه ما يزال (لا يدري) غير أنه قد توصل هنا الى معرفة (هو) الذي وحده يدري .. اي انه اعترف بوجود (هو) الذي « ألقاك في المحنة » ..

كان إلحادُه رياضيا ، فلا بد أن ايمانه أيضا قد كان رياضيا .. فلا يَفُلُّ الحديد الا الحديد .

فاذا وضعنا المسألة في صيغتها الرياضية كانت كما اظن هكذا :

---

٨ ـــ الصولج هو الصولجان (اللسان) . يقصد لعبة الكرة والصولجان ، المشهورة فـــي عصرنا باسم (الهوكي) .

(لماذا) ، جوابها : لا ادري ، أيْ صفر . جواب سالب .

(كيف) ، جوابها : هو يدري . جواب موجب ، على كل حال .

وطبيعي أن يتخلى عقل علمي كعقل الخيام عن السالب من اجل الموجب ! بعد أن اقتنع عقله باستحالة وجود هذا الكون من دون موجد ، خالق ، صار اذا عاوده التسآل : لماذا هذه المفارقات في الحياة ؟ لماذا الشرور ؟ لماذا الحياة ؟ .. لماذا الموت ؟ .. لماذا ، لماذا ؟ ..

كان الجواب : هو يدري ! .. نفس الجواب الذي تَعَلَّمه الصبي عمر ابن ابرهيم الخيام من معلميه واهله : انها حكمة الله .. قضاء الله .. ارادة الله .. يُعِزّ من يشاء ويُذِلّ من يشاء ..

ولماذا كانت حكمة الله ومشيئته هكذا ؟ .. هو يدري ، هو يدري .. « لا يُسأل عما يفعل ، وهم يُسألون » .

عندها لا بد ان الخيام عاد الى أجوبة الدين القائمة على تعادلية اليوم الآخر . وصار يتأمل تلك الأجوبة على (لماذاته) بعين جديدة، ويهضمها عقله بالتدريج — بعد ان كان يحفظها ويعيدها ويتبحر في فلسفتها تحليلا وتعليلا في محاضراته ورسائله . كان يلقيها دروسا على الناس، ويجهد في افهامهم اياها بالأدلة المتداولة بين العلماء والحكماء دون أن يقتنع هو بها أو يفهمها .. كما يفعل الكثيرون من المعلمين في كل زمان حين يضطرون الى تلقين تلاميذهم مبادىء دينية أو سياسية لا يؤمنون بها . لكن الخيام بعد ان آمن بالذي (يدري) صار يلقيها دروسا على نفسه ويجهد في افهامها اياها بالأدلة التي تقنعه هو، واصبح شعوره بضرورة وجود (الواجب الوجود) يساعده ويجبر عقله على الاقتناع .

وما في الأمر غرابة ؛ فالغزالي الفقيه المتصوف الكبير أيضا ثاب الى

الايمان بعد طول حيرة وتشكك . وللغزالي والخيام نظراء .

سؤال : (كيف) هو الله ؟ ..

اما هذا فلم يجب عليه العقل ولا الدين : الدين يقول : شيء لا كالاشياء .. بكل شيء محيط .. يدرك الابصار ولا تدركه الابصار .. والامام علي يقول : « كل ما خطر ببالك فهو ليس كذلك » !

والواقع ان كل تفكير في حقيقة الله وصفاته لا نتيجة له غير الحيرة والضلالة : وهنا ياتي الحديث النبوي المنقذ : « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله ، فتهلكوا » (٩) .

وينتهي التأمل الرياضي بالخيام ذي العقل الرياضي الكبير الى هذه النتيجة :

ان عقلي ليس بالكفء لاثباتك ، ربي
فمناجاتك اضحت هي تفكيري ودابي
كيف لي رباه ان اعرف ما كنه صفاتكْ ؟
ليس من يعرف ما ذاتك حقا غير ذاتكْ !

وما اشد انسجام رباعيته المنظومة هذه مع دعائه المنثور ذاك .

وان كانت للخيام عمر رباعيات دينية أخرى، فالمعقول ان تكون من نتاج فترة الرجوع الى الايمان والتدين . ولعل رباعيتنا هذه اهم واحدة

---

٩ ـ لقد كرر الرسول ذلك على أصحابه في مناسبات متعددة فيما يظهر، لان الحديث روي من جهات مختلفة بصيغ متقاربة ، كلها يؤكد النهي عن التفكير في ذات الله ويحث على التفكير في مخلوقاته .

فيها .

ولا نعلم متى قالها عمر ، لكن الشهرزوري يروي أنها آخر ما قـال من الشعر .

وأما الرباعية الرائجة التي كثيرا ما يستشهدون بها على ايمـان الخيام :

ان كنت لم اثقب درة طاعتك قط ،
ولم انفض غبار الذنب عن وجهي قط ،
فلست باليائس من رواق كرمك ،
لاني لم اقل ان الواحد اثنان قط ..

فما احسبها من صناعة عقل الخيام ، لضعفها ، وخاصة لتهافـت الاستعارة البلاغية في الشطر الأول منها — فمن اسلوب الخيام ان يقـول احيانا (ثقبوا در المعاني) بمعنى افتضوها ونفذوا الى صميمها ، أمـا (ثقب درة الطاعة) بمعنى الانصياع اليها والتمسك بها فاستعارة سقيمـة لا اراها شبيهة بشاعرنا المنطيق عمر .

لا استبعد ان يكون ايمانه هذا الذي ملك عليه مشاعره في شيخوخته، او منذ كهولته ، قد دعاه الى اتلاف رباعياته الفارسية وشعره العربـي، مما لم يرد به وجه الله او اراد به الالحاد والثورة على الدين ، كما يفعـل امثال له من التائبين — فلم يخلّف منجراء ذلك ديوان شعر ولا مجموعـة رباعيات ، الا ما بقي في ذاكرات اصحابه الذين كانوا اخذوها عنه او في دفاترهم ، او اخذها بعضهم عن بعض ، مما شاع شيء في حياته نقـلا عنهم،وصارت شذرات منه تظهر بعد وفاته في المؤلفات اللاحقة ، حينـا بعد حين .

ولنعد الآن الى ذلك الدعاء الذي ودع به الفانية . صيغته لا تخلـو من غرابة ، وهي تناسب الخيام كما نعرفه كل المناسبة . ونص الدعاء كالذي رأينا هو : « اللهم انك تعلم اني عرفتك على مبلغ امكاني ، فاغفر لي . فان معرفتي اياك وسيلتي اليك » .

فاذا كانت معرفته البارىء هي وسيلته اليه فلماذا يستغفره ؟ السر فيما ارى ان « المعرفة » في الشق الاول من هذا الدعاء تختلف عن «المعرفة» في الشق الثاني منه . وبعبارة أوضح،يخيل لي انه قصد بالمعرفة الأولى عكس معناها،أي الانكار ! . . فكأنه قال « اغفر لي عدم معرفتي اياك فيما خلا من أعوام عمري » . وهو يتنصل ضمنا من التبعة،ويلقيها على عجزه عن الادراك . وقوله « على مبلغ امكاني » يؤيد هذا التفسير . ثم جاءت المعرفة الحق في الشق الثاني من قالته ، وهي التي يتخذها وسيلته الـى الله لغفران الماضي وثواب الحاضر ، بل المستقبل .

كان الحاده عقليا ، وجاء ايمانه عقليا ولا بد .

عبد الحق فاضـل

● * * ●

المستعمرات الألمانية في فلسطين

للدكتور علي محافظة

(الجامعة الأردنية)

الغاية من هذا البحث دراسة المستعمرات الالمانية في فلسطين منذ تأسيس أولاها عام ١٨٦٨ وحتى نهاية الحكم العثماني عام ١٩١٨ . وتعالج هذه الدراسة الدوافع الدينية والسياسية والاقتصادية التي كانت وراء انشاء هذه المستعمرات ، ومدى صلتها بالمخططات السياسية الالمانية في الدولة العثمانية . كما انها تتناول طبيعة العلاقات بين المستعمرين الألمان والسكان العرب، من جهة ، وبينهم وبين المستعمرين اليهود، من جهة اخرى . وتستعرض أيضا موقف السلطات الرسمية العثمانية من هذه المستعمرات .

مشاريع استعمار فلسطين في النصف الاول من القرن التاسع عشر :

فتحت حملة نابليون بونابرت على مصر وبلاد الشام (١٧٩٨ــ١٨٠١) باب الصراع الدولي في الشرق العربي على مصراعيه . واطلقت العنان لمخططي السياسة الاستعمارية في أوروبا ، فتقدموا مشروعات عديدة ترمي الى تجزئة الدولة العثمانية واقتسام ممتلكاتها ، في وقت بلغ الجشع الاستعماري ، مع انتشار الثورة الصناعية ، اوجه . وكانت فلسطين بحكم موقعها الجغرافي والاستراتيجي واهميتها الدينية هدفا لمخططي هذه

السياسة . فمنذ عام ١٨٠٠ نشر الكاتب البريطاني جيمز بيتشينو James Bicheno كتابا بعنوان The Restauration of Jews, the crisis of All Nations دعا فيه الى تجميع يهود العالم في فلسطين ، تحقيقا للنبوءات التوراتية ، وسعيا الى حل الأزمات التي تجتاح الدول المسيحية والدولة العثمانية . وعلق بيتشينو آمالا واسعة على فرنسا النابليونية لتحقيق هذا المشروع . غير ان مبادرة نابليون بجمع « مجلس أعلى » لليهود لاستغلاله كأداة سياسية ، منيت بالفشل . ولذلك اتجهت الأنظار الى الدول البروتستانتية (بريطانيا وبروسيا) لتحقيق هذا المشروع . ولقيت آراء بتشينو صدى واسعا في بريطانيا ، واعيدت طباعة كتابه السابق الذكر عام ١٨٠٧ (١) .

وقد اعجب بالفكرة اللورد آشلي Lord Ashley الذي اخذ يدعو لها منذ خريف عام ١٨٣٨ . وفي رايه ان جمع اليهود على ارض فلسطين سيكون خطوة أولى نحو تنصيرهم ، كما أن استعمار فلسطين ضرورة للاقتصاد البريطاني الذي شهد آنذاك ازدهارا وتوسعا نتيجة للثورة الصناعية . وبضغط من آشلي قبل قريبه اللورد بالمرستون Lord Palmerston رعاية عودة اليهود الى فلسطين، وحماية الحكومة البريطانية للمقيمين منهم في الدولة العثمانية . وكان للكتاب الذي الفه اللورد ليندسي Lord Lindsay وصدر عام ١٨٣٨ بعنوان "Letters on Egypt, Edom and the Holy Land" * رسائل عن مصر وايدوم والأرض المقدسة* والذي تضمن تحبيذه لفكرة جمع اليهود في فلسطين ، صدى واسع في نفس اللورد آشلي . فقام الأخير بجمع الأموال لتنفيذ مشروع جمع اليهود على ارض فلسطين (٢) .

أثار المشروع اهتمام الحكومة البريطانية والصحافة اللندنية .

فقد تناولت صحيفة التايمز Times في عددها الصادر في ٢٤ كانون الثاني عام ١٨٣٩ الأفكار الرئيسية التي نادى بها آشلي وأيدت « حق الشعب اليهودي في العودة الى فلسطين » . وربطت المسالة اليهودية بالأزمة السياسية القائمة بين محمد علي باشا والسلطان العثماني (٣) . اما وزارة الخارجية البريطانية فقد أصدرت في ٣١ كانون الثاني ١٨٣٩ تعليماتها الى W. T. Young نائب القنصل المعين حديثا (١٨٣٨/٩/١٩) في القدس لبسط حمايته على كافة اليهود المقيمين في فلسطين (٤) .

ونشأت في الوقت نفسه حركة بين اليهود في بريطانيا تدعو الى استعمار فلسطين . ففي ربيع عام ١٨٣٨ زار موسى مونتفيوري (Moses Montefiore) (٥)،الثري والمحسن اليهودي، فلسطين ، وعرج على مصر لمفاوضة محمد علي باشا في مشروع يرمي الى تأجير منطقة الجليل (نحو ٢٠٠ قرية) له لمدة خمسين سنة ، وان يدفع له مقابل ذلك اجرا سنويا. وكان في نية مونتفيوري أن ينشىء شركة استعمارية في بريطانيا ، في حالة موافقة محمد علي باشا على مشروعه ، من اجل تشجيع يهود أوروباعلى الهجرة الى فلسطين . غير أن مباحثات مونتفيوري مع محمد علي باءت بالفشل، عندما اكد والي مصر انه لا يستطيع التصرف بأرض لا يملكها . واستمر مونتفيوري في نشاطه دون جدوى ؛ وزار فلسطين سبع مرات بين عامي ١٨٢٧ و ١٨٧٥ (٦) . كان مشروع مونتفيوري هذا مقدمة للمشروع الصهيوني الذي مرّ بمراحل عدة طوال القرن التاسع عشر .

وبعد جلاء قوات محمد علي عن بلاد الشام، اقترح هلموت فون مولتكه (Helmuth Von Moltke) الكابتن في الحرس الملكي البروسي، الذي عمل بين عامي ١٨٣٥ و ١٨٣٩ في اعادة تنظيم الجيش العثماني (٧)، مشروعا آخر لاستعمار فلسطين . وورد هذا المشروع في مذكرات فون

مولتكه التي نشرهافي صحيفة (Augusburger Allgemeine Zeitung) عام ١٨٤١ تحت عنوان : « المانيا وفلسطين "Deutschland und Palaestina" ».وقد شرح الضابط الالماني مشروعه هذا بتفاصيل دقيقة اثارت اهتمام الراي العام الالماني والأوروبي . وينص المشروع على انشاء « مملكة القدس » لتجعل من فلسطين مركزا متقدما للحضارة الأوروبية ، وانموذجا للتطور الاقتصادي في الشرق ، ودولة واقية بين مصر وسورية في حالة قيام مملكة وراثية في مصر ، تحول دون اي اعتداء على الدولة العثمانية ، وجسرا يربط أوروبا بالقارة الهندية . ويرى مولتكه ان قيام هذه المملكة سيكون بعثا للتقاليد والقيم الصليبية،ونصرا معنويا عظيما تحققه المسيحية في العالم . واقترح أن يكون على راس هذه الدولة امير الماني يتمتع بسلطة مطلقة، ويتّصف بروح متسامحة . فهو يرى أن اعتلاء أمير الماني لعرش مملكة القدس،سوف يبعد فلسطين عن تأثير المنافسات السياسية القائمة آنذاك بين الدول البحرية الاوروبية . كما أن تمتعه بسلطة مطلقة سيساعد في فرض النظام على بلد متخلف « لم يبلغ سكانه بعد مستوى حضارة اليونان، الذي تؤهله للمطالبة بالحكم الذاتي » (٨) . هذا وتحمس لمشروع مولتكه ملك بروسيا،فريدريش فيلهلم الرابع(Friedrich Wilhelm IV)وتبنّاه، فعرضه على ملوك اوروبا فلم يتقبلوا به (٩) .

وبقيت فكرة استعمار فلسطين تشغل بال العديد من رجال الدين والسياسة والاقتصاد في أوروبا ؛ غير أننا سنقتصر على هذه المشروعات التي كانت تمهيدا للمشروع الاستعماري الالماني،الذي بدا تنفيذه في نهاية الستينات من القرن التاسع عشر .

تعود جمعية الهيكل الالمانية (Deutsche Tempelgesellschaft) في اصولها الى حركة الأتقياء Pietismus التي ظهرت في المانيا في القـــرن السابع عشر ، كحركة دينية اصلاحية في الكنيسة الانجيلية،اكدت علـــى دراسة الكتاب المقدس،وعلى الخبرة الدينية الشخصية . واستمرت هـذه الحركة الدينية حتى مطلع القرن التاسع عشر، وتركزت حول تيوزوفــن بينجل Theosophen Bengel ، الذي بشّر بقيام مملكة الرب وعودة المسيح الى الأرض في أعقاب كوارث مريعة تنجم عن الابتعـــاد عـــن الـــروح المسيحية . ودعا بينجل كلّ تقي ان يبحث له عن مكان في الشرق،لقرب قيام مملكة الرب هناك . ورأى بينجل واتباعه في نابليون بونابرت الشيطـــان المناهض للمسيح . ومع نهاية نابليون،اعتقد بينجل أن لا بد من مرور بعض الوقت حتى تتم التغيرات الكبرى . وتوقع أن تتم عودة المسيح عام ١٨٣٦.

وفي عام١٨١٧حلّت مجاعة بمملكة فورتمبرغ Wurttemberg، فانتهز بينجل هذه الحالة،ودعا اتباعه الى الهجرة الى الشرق . فهاجـــر آلاف الفلاحين من هذه المملكة الى جنوب روسيا،حيث رحب بهم القيصر اسكندر الأول . واعتقد كثيرون منهم أن ترحيب القيصر الروسي نداء الهي لا بـد من تلبيته . وتمت هجرة هؤلاء الألمان تحت اشراف البارون فون بيركهايم Von Berkheim . وسمح لهم القيصر بادارة شؤونهم ادارة ذاتية .

اما مملكة فورتمبرغ فقد رأت في هجرة مواطنيها خطرا يتهددها،لذلك لجأت الى مختلف الوسائل للحيلولة دون هجرتهم . وتقدم النائب العـــام في المملكة باقتراح على حكومته ينص على السماح لهؤلاء المتدينين بتشكيـــل جمعيات خاصة بهم،تتمتع بشيء من الاستقلال الذاتي . قبلت حكومـــة فورتمبرغ هذا الاقتراح،وتشكلت اول جمعية دينية في فورتمبرغ على يــد

غوتليب هوفمان G. M. Hoffmann، رئيس بلدية ليونبرغ Leonberg في تشرين الأول عام ١٨١٨ . وفي صيف عام ١٨١٩ بدأ أعضاء الجمعية الجديدة بالاستيطان في قرية من أملاك الفارس كورنتال Kornthal ، قرب مدينة شتوتجارت Stuttgart ، وبنوا منازل لهم عليها مع دار للاجتماعات العامة (١٠) .

في كورنتال ترعرع ابنا غوتليب هوفمان : فيلهلم (الأكبر) وكريستوف، وتربيا تربية دينية ؛ فحصل الأول على منصب ديني رفيع في بلاط ملك بروسيا،وهو منصب قسيس البلاط Hof prediger ، بينما ورث الثاني،الذي يصغره بتسع سنوات ، أباه في رئاسة الجمعية الدينية (١١). درس كريستوف الفلسفة والتاريخ في جامعة توبنجن . Tuebingen . واشتغل في التعليم . ولما اشتد ساعد الحركة العلمانية المناهضة للمسيحية في المانيا،في الأربعينات من القرن التاسع عشر ، برزت هذه الجمعية الدينية للدفاع عن المسيحية،معتبرة المبادىء المسيحية الاسس التي ينبغي ان يقوم عليها الاصلاح الاجتماعي في المانيا . وتولى كريستوف مهمة الدفاع عن هذا الاتجاه الديني . واصدر في ايار عام ١٨٤٥ ، بالتعاون مع صديقه عمانويل باولوس Immanuel Paulus ، الصحيفة الاسبوعية Die Sueddeutsche Warte للتعبير عن هذا الاتجاه المسيحي الاصلاحي (١٢) .

وجاءت أحداث عام ١٨٤٨ الثورية في المانيا،فأدخلت الرعب في قلب كريستوف هوفمان . وتأكد له من أحداث ذلك العام الرهيبة أن « مسيحية الكنيسة مقتصرة على الوعظ الديني المجرد من الحياة » ، وانها قائمة على قوة العادة ، وعاجزة عن وقف التفكك والانحلال » . ووجد ان « المسيحية قد تخلت عن مهمتها الاساسية الروحية،وغاصت في اوحال

المادية،وتمسكت بالقشور الخارجية » . ورشح نفسه في ذلك العام عن مدينة لودفيجزبورغ Ludwigsburg في الانتخابات العامةللبرلمان الاتحادي الألماني « البندستاغ Bundestag »، الذي كان مقرّه مدينة فرانكفورت على الماين . وكان على مملكة فورتمبرغ أن تقدم ٢٨ نائبا عنها الى ذلك البرلمان . فاز هوفمان على خصمه مرشح الأوساط الليبرالية العلمانية ، فكان النائب الوحيد في البرلمان الاتحادي الالماني الذي يمثل حركة الأتقياء الالمان (١٣) .

وجد هوفمان في الاتجاهات الليبرالية والثورية،التي لقيت من يعبر عنها ويمثلها في برلمان فرانكفورت ، دليلا على فشل الكنيسة الانجيلية في القيام برسالتها . فعاد الى منطقته وبدأ الدعوة الى انشاء كنيسة حرة من الأوساط المتديّنة الورعة،وتأسيس جمعية انجيلية Evangaelische Verein مستقلة عن الكنيسة الانجيلية الرسمية،وكان ساعده الايمن في دعوته هذه جورج دافيد هارديج Georg David Hardegg ، الذي تعرّف عليه عام ١٨٤٨ (١٤) ، وصديقه عمانويل باولوس .

واتخذت هذه الحركة الدينية اتجاها جديدا عام ١٨٥٣، مع اندلاع حرب القرم بين الدولة العثمانية وروسيا ، اذ سرى اعتقاد لدى الأوروبيين ان الدولة العثمانية على شفا الانهيار ، وأنّ تفكّكها بات وشيكا . وجاءت الاضطرابات الدينية التي حدثت في القدس وغيرها من المدن الفلسطينية ، لتشد انظار المتدينين الالمان الى الأرض المقدسة . وبرز كريستوف هوفمان يدعو الى سلخ فلسطين عن الدولة العثمانية،وجعلها موطنا لشعب الله Das Volk Gottes ، تنفيذا لوعود الأنبياء الواردة في التوراة . وشعب الله هذا ليس الشعب اليهودي ، الذي لم يعد له وجود ، وانما هو الشعب المسيحي الانجيلي .

وفي ٢٤ آب عام ١٨٥٤ دعت لجنة أصدقاء القدس، التي تشكلت من اتباع هوفمان ، الى اجتماع عام يعقد في فالدهورن Waldhorn، قرب لودفيجزبورغ، من أجل بحث الوسائل اللازمة لتحقيق مشروع هوفمان . واقترح هارديج في هذا الاجتماع التوجه الى البندستاغ، في فرانكفورت، والطلب منه أن يسعى لدى السلطان العثماني للسماح للألمان باستعمار فلسطين ، من أجل ايجاد عمل للعاطلين عن العمل في المانيا . وكان الشعار الذي طرحه هارديج في هذا الاجتماع « ينبغي ايجاد عمل للشعب الالماني » "die deutsche Nation muss Arbeit Haben." . ونفذ اقتراح هارديج، ووقّع العريضة ٤٣٩ شخصا ، وحملها هوفمان وهارديج وقدماها الى البارون فون بروكش Von Brokesch، رئيس البندستاغ . غير اننا لا نعلم شيئا عن استجابة البندستاغ لهذه العريضة أو رفضها (١٥) .

وتولّت مجلة Sueddeutsche Warte، الناطقة باسم الجماعة الدعوة الى المشروع الجديد . واخذت في الوقت نفسه تشنّ هجوما على كنيسة فورتمبرغ الانجيلية الرسمية . وفي هذه الأثناء كتب فيلهلم هوفمان، من برلين، الى شقيقه ينصحه بالبقاء في حوزة الكنيسة الانجيلية، والابتعاد عن مغامرات هارديج . غير أن كريستوف لم يُعِرْ بالا لهذه النصيحة ، وكتب مشروع دستور للجمعية الجديدة سماه « مشروع دستور شعب الله "Verfassungsentwurf des Volkes Gottes" . فتشكلت الجمعية في عام ١٨٥٤ تحت اسم "جمعية تجميع شعب الله في القدس "Gesellschaft fuer Sammlung des Volkes Gottes in Jerusalem"، وجعلت هدفها السعي لجمع شعب الله في القدس لبناء مملكة الرب . ورأى قادة الجمعية انهم بحاجة الى مزيد من الاعداد على أرض الوطن، لجمع اكبر عدد ممكن من الالمان وغيرهم قبل الهجرة الى فلسطين . وقام هوفمان وهارديج برحلات عديدة في أوروبا ، وحضرا في خريف عام ١٨٥٤ مؤتمرا

دينيا في باريس، وعرضا عليه مشروعهما، فلقي اهتماما من المؤتمرين .

وتبرعت بعض الأسر الثرية بالأموال لشراء الاراضي الواجب تجميع شعب الله عليها في المانيا قبل الانطلاق الى استعمار فلسطين . فتم شراء قطعة واسعة من الارض في كيرشنهاردتهوف (Kirchenhardthof)، قرب فيننڊن Winnenden تحت منبع نهر النيكر Necker، عام ١٨٥٦ . وتمكن هوفمان وهارديج من جمع عدد كبير من الأنصار، أُطلق عليهم اسم « أصدقاء القدس Jerusalem Freunde »، بلغ عددهم حوالي عشرة آلاف شخص . وساهمت سنوات الجدب التي شهدتها مملكة فورتمبرغ ، خلال السنوات الأولى من تشكيل هذه الجمعية ، في كسب العديد من الأنصار الراغبين في الهجرة الى فلسطين (١٦) .

وانتهت حرب القرم عام ١٨٥٦ دون أن تسفر عن انهيار الدولة العثمانية، كما كان يتوقع هوفمان وأنصاره . وشُنَّت الكنيسة الانجيلية الوطنية في فورتمبرغ ، بتشجيع ودعم من حكومتها ، حملة شديدة على أصدقاء القدس . فأخذت أعدادهم تقلّ تدريجيا (١٧) .

وفي صيف عام ١٨٥٨ قررت الجمعية ارسال وفد مؤلف من هوفمان وهارديج والمزارع بوبيك Bubeck الى فلسطين ، ايمانا منها بأن المسألة الشرقية لم تُحلّ بمؤتمر باريس عام ١٨٥٦ ، وان لا بد من دراسة امكانية استعمار فلسطين . وصل الوفد الى فلسطين، والتقى بمطران القدس الانجليكاني صموئيل غوبات Samuel Gobat ، وبالمبشر الانجيلي شنلّر Schneller ، فشرحا للوفد أوضاع فلسطين، ولم يشجّعاه على تنفيذ مشروعه . وجمع الوفد معلومات جيدة عن البلاد من القنصلية البروسية في القدس . ولما عاد الوفد الى المانيا نشر هوفمان تقريرا عن الزيارة في مجلة Sueddeutsche Warte ، بيّن فيه المصاعب التي تعترض

الاستيطان في فلسطين ، واوضح أن لا بد من الاستعداد لذلك . ودامت فترة الاستعداد هذه عشر سنوات (١٨) .

دخل هوفمان وانصاره في اثناء ذلك في خلاف مع كنيسة فورتمبرغ الانجيلية،أدى الى طردهم منها في ٧ تشرين الأول عام ١٨٥٩ . واضطروا الى انشاء طائفة دينية خاصة بهم . فتقدّم هوفمان اقتراحا الى مجلس الجمعية بتسمية الطائفة « الهيكل الروحي Der geistliche Tempel » أو « طريق الخلاص Der Weg Zur Rettung » . أما فكرة « الهيكل » وتسمية الجمعية به،فتعود الى القس المعمداني جاكوب امان Jakob Amman ، الذي انشأ في برن Bern ، بسويسرا،جمعية بهذا الاسم عام ١٦٩٣،بهدف اعادة بناء هيكل الرب في القدس (١٩) . ولا صلة لهذه التسمية بجمعية « فرسان الهيكل » التي تشكلت في مطلع القرن الثاني عشر،واستمرت في نشاطها حتى نهاية احتلال الفرنجة لبلاد الشام في نهاية القرن الثالث عشر .

واشتدت حملة الكنيسة الانجيلية على الطائفة الجديدة،فتفرق العديد من أفرادها ؛ غير انها استطاعت أن تحافظ على بقاء بعضهم في حظيرتها،وان تكسب الى صفوفها العديد من الاتباع خارج المانيا،وبخاصة في أوساط المهاجرين الألمان في امريكا الشمالية وجنوب روسيا.

واعيد تنظيم الجماعة في كيرشنهاردتهوف عام ١٨٦١ تحت اسم جماعة الهيكل الالمانية Deutscher Tempel ،من أجل تجديد حياة « شعب الله» الدينية والاجتماعية . وحتى تكسب الجمعية ولاء العناصر القومية الالمانية، رفعت شعارات قومية المانية . وجاء في احد بياناتها : « ان روح الشعب الألماني ومزاياه ينبغي أن تكون الطابع المميز لهيكل القدس واستعمار فلسطين ... ولا بد من السعي لدى سلطة المانية (او دولة المانية) لمتابعة

تحقيق هذا الهدف ». (٢٠)

واستمر قادة الجمعية يحضرون المؤتمرات الدينية التي كانت تعقد في برلين ولندن وبيرن وجنيف ، ويتجولون في العواصم والمدن الاوروبية الكبرى يدعون الى تحقيق مشروعهم . فقد شارك هارديج في المؤتمر الذي عقد في جنيف عام ١٨٦٧، والذي كان ضيف الشرف فيه غاريبالدي Garibaldi ، بطل الحرية في ايطاليا . كما حضر حفل انشاء الصليب الأحمر على يد السويسري هنري دينان Henri Dunant ، الذي ابدى اهتمامه بشؤون الشرق العربي في فترة مبكرة . فقد أصدر كتابا في باريس بعنوان « تجديد الشرق La Rénovation de l'Orient » عام ١٨٦٥ . وقام دينان أثناء اقامته في باريس بانشاء جمعية العمل الدولي من اجل تجديد فلسطين Oeuvre Internationale de la Rénovation de la Palestine ، وتولى منصب سكرتيرها العام ؛ وتولى انشاء فروع لها في باريس . وأقام هارديج صلات وثيقة مع دينان . وتولى الأخير توجيه نداءات الى فروع « الجمعية الدولية لتجديد فلسطين »، من أجل هيمنة المسيحيين على فلسطين عن طريق الاستيطان السلمي .

وسعى دينان لدى السفير العثماني في باريس جمال باشا، ولدى الوزير المفوض الفرنسي في اسطنبول المسيو بوريه Bourrée ، من اجل حث الباب العالي على السماح للمستعمرين الالمان، من جمعية الهيكل بشراء الارض في فلسطين والاستقرار فيها . وتحت ضغط دينان جاء الجواب من الباب العالي يطلب تحديد موقع الأرض التي يريد المستعمرون الالمان شراءها . فاتصل دينان بهارديج، واقترح عليه ارسال مهندس مختص الى فلسطين من اجل اختيار الموقع المطلوب وتحديد مساحته . وكتب رسالة الى هارديج مؤرخة في ٢٤ كانون الثاني عام ١٨٦٨ يقول فيها : « من

المعروف جيدا أن ارسال مهندس من أوروبا أمر مكلف (١٠٠٠٠ ــ ١٥٠٠٠ فرنك) ، وهذا مبلغ أولى بجمعيتكم أن توفره لها . ولذلك قمنا بالاتصال بعدد من الأشخاص، وبخاصة بالوزير المفوض بوريسه، ليسأل اذا كان بالامكان ايجاد مهندس قدير وامين، وباجر قليل، في اسطنبول او في اي مكان آخر في الشرق . واتصلنا بدورنا بمحل لوفنتال Loewenthal في يافا لهذا الغرض . ولكننا لم نستطع ان نحصل على المهندس المطلوب . وربما كان من الافضل لو أن جمعيتكم اختارت مهندسا من بين أعضائها، وكلفته بالسفر الى فلسطين ... » . وفشل دينان وهارديج في العثور على المهندس المطلوب . واخيرا قررت الهيئة الادارية لجمعية الهيكل، في اجتماع عقدته في ٢٤ آذار ١٨٦٨ في كيرشنهارتهوف، أن يقوم هوفمان وهارديج بالسفر الى فلسطين في آب من العام نفسه، من اجل انشاء أول مركز، Tempel Post ، للجمعية على أرض فلسطين . وقد سرّ دينان بهذا القرار، وكتب الى هارديج في ٨ نيسان ١٨٦٨ يقول : « آمل ان نتمكن من احراز بعض التقدم في عملنا في هذا الصيف . وكلما طال الزمن زاد اقتناعي بذلك . يمكنك الاعتماد علي ، انني مؤمن بمستقبل فلسطين ... وسيكون لجمعيتكم الشرف الكبير في انشاء اول مستعمرة على الارض المقدسة ....» (٢١)

وفي ٦ آب ١٨٦٨ سافر زعيما جمعية الهيكل، هوفمان وهارديج، من كيرشنهاردتهوف مع أسرتيهما الى فلسطين . ومرّا بفينّا حيث قابلا البارون فون أورزي Von Orsi، من وزارة الخارجية النمسوية، فوعدهما بأن يقدم ممثلو الحكومة النمسوية الدبلوماسيون النصائح والمساعدات الضرورية لهما . كما مرا ببودابست، وقابلا فرانز دياك Franz Deák ، صاحب فكرة الاتحاد النمسوي ــ الهنغاري . واخيرا وصلا الى اسطنبول، حيث رحّب بهما الوزير المفوض لرابطة دول شمال المانيا

der Norddeutsche Bund* الذي كان قد تلقّى تعليمات من البلاط الملكي البروسي بتقديم التسهيلات اللازمة لهما ، نتيجة وساطة شقيق هوفمان، القس في البلاط البروسي . وفي ١٥ أيلول ١٨٦٨ تُقدّم هوفمان وهارديج بطلب الى الباب العالي للموافقة على شراء قطعة من الارض مساحتهـــا ثلاثة اميال مربعة على جبل الكرمل في حيفا . وجاء اختيار موقع القطعـــة بتوصية من المفوضية الالمانية . واوضحا في طلبهما هذا أن الغرض من الاستقرار في فلسطين ديني محض،وليس له اية ابعاد سياسيـــــة ، وأن الاستيطان هناك سيقتصر على أعضاء جمعية الهيكل،وسوف يتم بصـــورة تدريجية . كما ابانا ايضا دور الجمعية المقبل في تطوير الزراعة والصناعة في البلاد ، ولذلك طالبا باعفاء المستوطنين الالمان من الضرائب لمدة تتراوح بين خمس وسبع سنوات،حتى يتمكنوا من تدبير امورهم . وابديا رغبـــة المستوطنين في ادارة شؤونهم بأنفسهم،دون أي تدخل من السلطة الحاكمة.

واتصل هارديج بالوزراء المفوضين لدول النمسا وفرنسا وانكلترا والولايات المتحدة وروسيا وهولندا والسويد،وقال لهم : « ان ظـــروف شعبنا اقنعتنا بأن الوقت قد حان لبناء هيكل الرب في الارض المقدسة ؛ فأقوال الأنبياء في العهدين القديم والجديد تعتبر بناء الهيكل الوسيلة الوحيدة لسعادة الشعوب والافراد على حد سواء » . ورغم النشاط الحثيث الذي بذله زعيما جمعية الهيكل طوال مدة اقامتهما في اسطنبول (٤٥ يوما) ، لم يحصلا على الفرمان المطلوب . فغادرا العاصمة العثمانية في ٨ تشرين الأول ١٨٦٨ باتجاه بيروت،فوصلا اليها بعد أربعة عشر يوما . وقابـــلا هناك القنصل البروسي العام الدكتور فيبر Dr. Weber ، فتقدم اليهما عددا من النصائح،ومنها ان لا يتنازلا عن الجنسية الالمانية،وان يرفضـــا الجنسية العثمانية ، لكي يتمتعا بحماية القناصل الالمان . ومن بيروت سافرا الى حيفا فبلغاها في ٣٠ تشرين الأول عام ١٨٦٨ (٢٢) .

كان من الأسباب التي دفعت زعيمي جمعية الهيكل الى البدء بمشروعهما الاستيطاني في فلسطين ، صدور القانون العثماني للسادس عشر من حزيران عام ١٨٦٧، الذي أباح للرعايا الأجانب حق التملك في المدن والريف في كافة الولايات العثمانية . وأصبح هذا القانون نافذ المفعول في حزيران ١٨٦٨ . لذلك اعتقد زعيما جمعية الهيكل أن الطريق أمامهما قد فتح لشراء الأرض في فلسطين والاستقرار عليها (٢٣) .

مستعمرة الهيكليين في حيفا

عند وصول هوفمان وهارديج الى حيفا، استقبلهما نائب القنصل البروسي في المدينة، الهر تسيفوس Ziphos ، وقدم لهما كل ما يحتاجان اليه من عون ومساعدة . وفي الايام الاولى من اقامتهما وصل رد الباب العالي على طلبهما، يؤكد استحالة السماح لهما بشراء الارض في حيفا الا اذا حصلا على الجنسية العثمانية . ولكن هذا الرد لم يثنهما عن مشروعهما، فاجريا اتصالات بالبلاط البروسي، الذي اصدر تعليماته الى الوزير المفوض لرابطة دول شمال المانيا في اسطنبول بضرورة التوسط لدى الباب العالي، وتذكير المسؤولين العثمانيين بأنهم سمحوا لرعايا دول أوروبية اخرى بشراء الأرض دون التجنّس بالجنسية العثمانية (٢٤) .

غير أن هوفمان وهارديج لم ينتظرا نتائج الاتصالات الدبلوماسية، وبتشجيع من تسيفوس قاما بشراء قطعة من الأرض مساحتها عشرة هكتارات عن طريق الاحتيال على القانون العثماني ؛ اذ تم الشراء عن طريق وسيط يحمل الجنسية العثمانية، وقام بدوره بتأجيرها لهما لمدة طويلة. ولما احتج القاضي على عملية البيع، سويت القضية بتدخل نائب القنصل البروسي (٢٥) .

وبدأ بناء أول مستعمرة المانية في فلسطين على قطعة الأرض هذه، التي

كانت تمتد من شاطىء البحر حتى سفح جبل الكرمل ، في ربيع عام ١٨٦٩ . ودُشّنت المنازل الاثنا عشر التي بنيت على هذه الارض في آذار ١٨٧٠ من قبل نائب القنصل البروسي تسيفوس ، واشتملت آنذاك على منازل للسكن، وبناء لمدرسة،وآخر للصلاة . وقد وُضع تصميم هذه المنازل والابنية مهندس دنماركي جاء من بيروت، اسمه لويفد Loyved .(٢٦)وعلى مدخل المستعمرة نقشت العبارة التالية باللغة الالمانية « لتنسني يميني ان نسيتك يا قدس

Vergesse ich dein Jerusalem, So wurde meiner Rechten

vergessen (1969) " ، وحرص هوفمان وجماعته على بناء المستعمرة على الطراز الالماني،وفتح الشوارع الواسعة فيها،وتزيينها بالاشجار والزهر والورود . كما اهتمت الهيأة الادارية للجمعية باختيار افضل العناصر من اعضائها للهجرة الى فلسطين، من اجل اقامة مجتمع متماسك مستقلّ عن المحيط العربي ؛ كما حرصت على اقامة صلات وثيقة بالوطن الام ، وعلى الحفاظ على مستوى حياتهم كأوروبيين في حيفا (٢٧).

ونَمت هذه المستعمرة بقدوم مهاجرين جدد من كيرشنهاردتهوف، وبخاصة بعد ابرام اتفاقية بين مملكة بروسيا والدولة العثمانية في ٧ حزيران ١٨٦٩،نصّت على السماح للألمان بالاقامة والاستقرار في فلسطين . فبلغ عدد سكان المستعمرة في بداية عام ١٨٧٣ (٢٥٤) نسمة . وبلغ عدد بيوتها (٣١) بيتا ، استعمل عشرون بيتا الى جانبها كمعامل وورش للعمل. وفي عام ١٩٠٢ بلغ عدد سكانها ٥١٧ نسمة ، وبلغ عدد منازلها ٩٢ منزلا، والى جانبها ٩٥ ورشة عمل (٢٨) . وبلغ عدد سكانها عند اندلاع الحرب العالمية الاولى (٧٥٠) نسمة (٢٩) . ونقص عدد سكانها بسبب الاحتلال البريطاني لفلسطين ١٩١٧/١٩١٨،واعتقال العديد من الالمان،وتهجير بعضهم قسرا الى المانيا في نهاية الحرب العالمية الأولى،والسنوات الأولى التي تلت توقيع معاهدة الصلح بين المانيا والحلفاء عام ١٩١٩ (٣٠) .

اعتنى الالمان في السنوات العشر الأولى من استيطانهم في حيفابزراعة الكرمة،وبناء معامل لانتاج النبيذ . غير أن مرضـــا أصاب الكرمـــة في الثمانينات من القرن التاسع عشر، فقاموا باقتلاعها . وكذلك أصيبت أشجار الحمضيات التي زرعوها بأمراض أدت الى اقتلاعها . عند ذلك انصـــب اهتمامهم على زراعة الزيتون، الذي كانوا يستخرجون منه صابونا من نوع جيّد، كانوا يصدرونه لالمانيا وأمريكا الشمالية .

واقاموا في المستعمرة طاحونة هوائية على الطراز الهولندي، كمـــا انشأوا مزرعة للألبان . وانصرفوا تدريجيا عن الزراعة، واتجهوا نحـــو التجارة والصناعة، حتى أصبحوا محور الحياة الاقتصادية في حيفا . وكانوا روادا في الصناعات والحرف اليدوية وتجارة الاستيراد والتصدير . وادخلوا الى حيفا المكتبات الحديثة، والامسيات الموسيقية، والنوادي المسرحيـــة، والنشاط الرياضي ؛ فكانت مثلا يحتذى من قبل السلطات العثمانيـــة في المدينة (٣١) .

مستعمرة يافـا :

في آذار عام ١٨٦٩ وفد الى هوفمان زائر من يافا من أصدقائه الذيـــن تعرّف بهم في بازل ، هو المبشر الانجيلي زالميلر Saalmueller، يرافقـــه الالماني ميسلر Messler، الذي اشترى المستعمرة الأمريكية في يافـــا والمعروفة باسم « قرية آدامز Adams City » وجاء يعرضهـــا على الهيكليين الألمان بسعر معقول . ومن المعروف أن هذه المستعمرة المؤلفة من تسعة عشر بيتا من الخشب، قد انشأتها طائفة دينية أمريكية جاءت الى فلسطـــين لتشهد عودة المسيح الى الأرض، كما كانت تعتقد . ولكنها هجرت المستعمرة بعد أن تبين لاتباعها أن النبوءة بعودة المسيح لم تتحقق ، وبعد ان فتكـــت بهم الأمراض (٣٢) .

لقي العرض الذي تقدم به ميسلر استجابة لدى الهيكليين، فاشتروا خمسة منازل منها بمبلغ (٦٥) الف فرنك فرنسي اول الأمر، ثم ما لبثوا ان اشتروا ثلاثة ارباعها في مطلع عام ١٨٧١ ، وبعد ذلك بعامين اصبحت المستعمرة باكملها ملكا لهم (٣٣) .

وفي ايار ١٨٦٩ انتقل هوفمان من حيفا الى المستعمرة الجديدة، واوكل ادارة مستعمرة حيفا الى رفيقه هارديج . وباشر فور وصوله ببناء مستشفى صغير ودار للضيافة Gasthaus .

وحدث أن قام ولي عهد بروسيا، الأمير فريدريش Friedrich ، بالحج الى القدس في ذلك العام ، بعد ان حضر الاحتفالات بفتح قناة السويس ؛ فنزل في يافا في ٢ تشرين الثاني عام ١٨٦٩ ، وزار المستعمرة الالمانية الجديدة . وكتب هوفمان عن هذه الزيارة في مجلة الجمعية، Sueddeutsche Warte في عددها الصادر في ١٥ تشرين الثاني ١٨٦٩، يقول : « لقد استقبلناه (ولي عهد بروسيا) على مدخل المستعمرة ، فنزل عن جواده وتحدث الى العديد منا بروح ودية ، ثم تجول في المستعمرة ، وزار منزل رئيس الجمعية . واتجه بعد ذلك الى دار الضيافة، حيث تناول مع حاشيته طعام الفطور . وودعناه بعد ذلك ، فركب جواده، يرافقه جنود البحرية (الألمان)، والباشا (العثماني)، والجند الأتراك نحو الرملة . . » . هذا وقد تبرع الامير البروسي ببعض المال للجمعية (٣٤) .
وبلغت مساحة مستعمرة يافا هذه ستين هكتارا .

مستعمرة سارونا Sarona

توسع المستوطنون الهيكليون في يافا في نشاطهم ، واشتروا في عام ١٨٧١ قطعة من الارض على طريق يافا ـ تل أبيب مساحتها ٧٨ هكتارا، (بسعر الهكتار الواحد مئة غولد Guld) . وبدأ بناء المنازل على قطعة

الأرض هذه في ٢٧ آب ١٨٧١،فكانت المستعمرة الالمانية الثالثة في البلاد . وتولى تصميم الابنية والتخطيط للمستعمرة المهندس الالماني ثيودور زاندل Theodor Sandel ، ابن طبيب المستعمرة الهيكلية في يافا الدكتور زاندل وقد انتقل الى المستعمرة نائب القنصل الالماني في يافا،مراد أفندي (أرمني الأصل) .

انتشرت الحمى بين سكان المستعمرة في عام ١٨٧٢ ، وفتكت بثمانية وعشرين شخصا من مجموع سكان المستعمرة،البالغ حوالي مئة نسمة(٣٥).

اشتهرت مستعمرة سارونا بزراعة الزهور والكرمة وتربية الأبقار، كما وجد فيها معمل لانتاج النبيذ .

وفيما يلي بيان بتطور هذه المستعمرة بين عامي ١٨٧٢ و ١٩٢٦ :

السنة	عدد السكان	المساحة بالهكتار	معدل المساحة للفرد الواحد بالهكتار
١٨٧٢	٦٣	٧٨	١ر٢
١٨٨٠	١٦٢	٢٢٣	١ر٤
١٨٩٨	٢٦٣	٤٦٩	١ر٧
١٩١٤	٢٠٠	٤٧٤	٢ر٤
١٩٢٦	٢٢٥	٤٩٢	٢ر٢(٣٦)

مستعمرة ريفايم Rephaim

اشترى الهر فرانك Frank ، أحد اعضاء جمعية الهيكل في مستعمرة يافا،قطعة من الأرض في رفايم، شمال غربي محطة سكة حديد القدس، خارج حدود البلدية ، في نيسان عام ١٨٧٢،وبنى عليها منزلا وطاحونة تعمل

بالماء . واخذ اعضاء الجمعية يتوافدون اليه ويشترون الأرض المجاورة . واعتنى سكان المستعمرة الجديدة باصلاح العربات التي تجرها الخيول . فمنذ عام ١٨٦٧ فتحت طريق للعربات بين يافا والقدس ، وكانت بذلك أول طريق للعربات في فلسطين . واهتم الالمان بالنقل بين يافا والقدس، وأصبح منتظما بعد بضع سنوات من انشاء المستعمرة الجديدة (٣٧) .

أصبحت مستعمرة ريفايم منذ عام ١٨٧٨ المقر العام لادارة جمعية الهيكل ؛ وبلغت مساحتها ٢٥ هكتارا . وكان معظم سكانها يشتغلون بالحرف اليدوية والتجارة والصناعة ، واشتملت على مدرسة ثانوية كاملة وروضة للأطفال (٣٨) .

مستعمرة فالهالا Walhala

انشاها المستعمرون الالمان في يافا عام ١٨٩٢ على طريق يافا ـ تل أبيب . واقيم في هذه المستعمرة مستشفى لمعالجة الالمان المقيمين في المستعمرات الالمانية في جنوب فلسطين (يافا ، سارونا ، فيلهلما) . وكان سكانها يمارسون التجارة والصناعة والحرف اليدوية ، ويعملون في وكالات التأمين والنقل البحري . وانشىء في المستعمرة معمل للاسمنت . وبنت (فندق القدس) في يافا الذي كان من أجمل فنادق المدينة (٣٩) .

مستعمرة فيلهلما Wilhelma

انشئت على يد المستوطنين الالمان في مستعمرتي يافا وسارونا عام ١٩٠٢ ، على بعد خمسة أميال الى الشمال الشرقي من اللد في وسط سهل خصيب ، بالقرب من سكة حديد اللد ـ حيفا . بلغ عدد سكان المستعمرة في العام الأول من انشائها ٩٤ نسمة . وفيما يلي بيان بتطور هذه

المستعمرة بين عامي ١٩٠٣ و ١٩٢٦ :

السنة	عدد السكان	المساحة بالهكتار	معدل المساحة للفرد الواحد بالهكتار
١٩٠٣	٩٤	٨٢٤	٨ر٨
١٩١٤	١٩٥	٩١٩	٦ر٤
١٩٢٦	٢١٥	٩٥٩	٥ر٤(٤٠)

مستعمرة نويهاردهوف Neuhardhof

انشأها المستعمرون الالمان في حيفا من اجل الحصول على مزيد من الأرض، خارج نطاق المستعمرة الهيكلية الأولى في البلاد . وتقع المستعمرة الجديدة على بعد اربعة أميال الى الجنوب من جبل الكرمل . وبلغت مساحتها أربعمئة هكتار . وقد استُغلّت ارض المستعمرة لزراعة الخضروات والحبوب (٤١) .

مستعمرة بيت لحم في الجليل Bethlehem

انشأها المستوطنون الألمان في حيفا عام ١٩٠٦، بأموال من « جمعية شتوتجارت لتطوير الاستعمار الألماني في فلسطين »، على ارض قرية بيت لحم الواقعة على سفوح جبال الجليل، والتي تبعد بضعة أميال عن مدينة الناصرة . لها مساحتها فالف وسبعمائة هكتار ، زُرِع ثلثها باشجار البلوط، والباقي باشجار الكرمة والفواكه والحبوب . وفيما يلي بيان بنمو هذه

المستعمرة بين عامي ١٩٠٧ و ١٩٢٦ :

السنة	عدد السكان	المساحة بالهكتار	معدل المساحة للفـــرد الواحد بالهكتار
١٩٠٧	١٠	٧١٨	٥٤٫٨
١٩١٤	٤١	٧١٨	١٣٫٣
١٩٢٦	٩٨	٧١٨	٤٫٥ (٤١)

مستعمرة فالدهايم Waldheim

انشئت هذه المستعمرة عام ١٩٠٧ بالقرب من بير سالم على يـــــد المسؤولين عن دار الأيتام السورية Das Syrische Waisenhous ، لتكون مركزا لتدريب خريجيها واستغلالها لتمويل دار الأيتام . ولذلك لا صلة لها بمستعمرات جمعية الهيكل .

مستعمرة شمه Chemeh

كانت تتبع بدورها دار الأيتام السورية في القدس، ولم تختلف عن مستعمرة فالدهايم من حيث الاغراض التي انشئت من أجلها (٤٢) .

اشتملت كل مستعمرة من مستعمرات الهيكليين على قاعة للاجتماعات العامة، واخرى للعبادة، ومدرسة، وروضة اطفال او أكثر، وجمعيات للموسيقى، وناد رياضي، ومستوصف صغير احيانا ..

المصاعب الداخلية التي واجهها المستعمرون الالمان :

في السنوات الأولى للاستيطان واجه المستعمرون الهيكليون صعوبات

ومتاعب عديدة بعضها أمني وبعضها الآخر اقتصادي واجتماعي . لذلك اهملوا الأمور الروحية،وفشلوا في كسب انصار حدد لحركتهم في فلسطين وفي ألمانيا . وبلغ مجموع من استقر منهم في فلسطين بين عامي ١٨٦٨ و ١٨٧٥ نحو سبعمئة وخمسين عضوا ، اي نحو ربع عدد اعضاء الجمعية. وبعد عام ١٨٧٥ أخذت جمعية الهيكل في الاضمحلال التدريجي في المانيا نفسها،وتوقفت منذ ذلك العام هجرتهم من المانيا ، ومات معظم الجيل الاول من هؤلاء المستعمرين في أواخر السبعينات والثمانينات من القرن التاسع عشر .

ادرك الجيل الجديد تعذر تحقيق الغاية من هجرتهم الى فلسطين، وهي جمع « شعب الله » في القدس واقامة مملكة المسيح . وتركّز اهتمامهم على تحسين أحوالهم،وتقديم نمط معين من المعيشة للسكان المحليين . وساهم هذا التغيّر في اهداف الجمعية في جعل الحياة أسهل .

كانت أول الصعوبات التي واجهها المستعمرون الهيكليون في فلسطين النزاع بين زعيمي الجمعية،كريستوف هوفمان وجورج هارديج : كان هوفمان المؤسس الروحي للجمعية ، وكان هارديج المنفذ لفكرةالمستعمرات. اما أسباب الخلاف بينهما فشخصية،تدور حول كيفية تطوير الاستيطان الالماني ، وحول بعض الآراء الدينية .

فقد تولى كل منهما ادارة مستعمرة مستقلةعن الاخرى.وكانتمستعمرة حيفا من نصيب هارديج بينما كانت مستعمرة يافا من نصيب هوفمان . وكان هارديج قد اسرع الى شراء أراضٍ تابعة لمستعمرته دون التنسيق مع هوفمان . وعارض هارديج بشدة نقل المعهد الثانوي الى ريفايم،قرب القدس . وحصل خلاف بين هارديج والهيأة الادارية لجمعية الهيكل في شتوتجارت،حول أموال صندوق الاستعمار التابع للجمعية،

Kolinisations Kasse . ورفض هارديج أن يجيب عن كيفية صرفه لهذه الأموال، فاتهمته الهيأة الادارية بالتبذير . وكان لسلوكه المتصلب اثر في ابتعاد الهيكليين في فلسطين عنه ؛ فقد كان منفّرا في تصرفاته . ولما اجريت الانتخابات لاختيار القيادة الجديدة للجمعية، عام ١٨٧٤، لم ينجح هارديج . فما كان منه الا أن أعلن انسحابه من الجمعية . وصدرت مجلة الجمعية " Suddeutsche Warte " في ١٧ تموز ١٨٧٤ بآخر مقال له بعنوان « وداعي لجمعية الهيكل Mein Abschied » . " von der Gesellschoft des Tempels ، اكد فيه التزامه بمبادىء الجمعية رغم انفصاله عنها . وخرج مع هارديج عدد من أصدقائه، فشكلوا « رابطة الهيكل، Der Tempelverein » . ومنذئذ تولى القيادة العليا للجمعية كريستوف هوفمان، الذي اصبح يتمتع بسلطات واسعة . فأعاد تنظيمها بحيث أصبح لها مجلس استشاري Tempelrat، مؤلف من مئة عضو . ووثّقت الجمعية صلاتها بفروعها في المانيا وامريكا الشمالية وجنوب روسيا، بان اصبح لهذه الفروع ممثلون في مجلس الجمعية الاستشاري . وفي مطلع ايلول من عام ١٨٧٤ دعي ممثلون عن فروع الجمعية للمشاركة في عيدها الذي أقيم في حيفا . وبناء على قرار مجلس الجمعية أُعتُبِر يوم التاسع من ايلول عيدا لها . وتم الاحتفال بهذا العيد الاول بحضور المندوبين المذكورين . ومنذئذ تكررت اللقاءات في هذا العيد الذي كان القصد من استحداثه الحفاظ على الولاء للجمعية (٤٣) .

وحدث انقسام جديد في صفوف جمعية الهيكل، سببه الخلاف بين هوفمان ودافيد شتراوس، David Strauss ، خليفة هارديج في ادارة مستعمرة حيفا ، حول اسرار الكنيسة المقدسة، وتعاليم الثالوث الاقدس، والوهية المسيح، وموت المسيح الابن . وكان تأثير هوفمان العقلاني على جماعته قويا جدا ، لذلك بقيت أكثرية أعضاء الجمعية تدين له بالولاء .

وانفصل عدد ضئيل من الاعضاء واخذ يتقرب من الكنيسة الانجيلية .

واستغلت الكنيسة الانجيلية الانقسامات في صفوف جمعية الهيكل، فاوفدت القس راينكه، Reinecke ، من القدس منذ عام ١٨٧٩ الى مستعمرات الهيكليين . وقام خليفته القس شلخت ، Schlicht ، بالمهمة نفسها . وفي عام ١٨٩١ قررت « جمعية بيت المقدس، Jerusalem Verein » (٤٤) الانجيلية ارسال معلم الى مستعمرة حيفا ليقوم بتدريس ابناء الطائفة هناك، المنشقين عن هوفمان . وبعد ذلك بعام واحد بنيت مدرسة لهذه الغاية . وعندها قررت جمعية بيت المقدس ارسال القس ديكرت، Deckert ، الى حيفا . وبذلك اصبح للطائفة الانجيلية في حيفا مدرستها وكنيستها . وبلغ عدد الأسر التي عادت الى حظيرة الكنيسة الانجيلية من مستعمرة حيفا الهيكلية عشرين أسرة (٤٥) .

وكان للحرب العالمية الأولى آثار سلبية على المستعمرات الالمانية ، اذ منيت بخسائر فادحة على الصعيد الاقتصادي . ومع ذلك بلغ عدد المستوطنين الألمان في عام ١٩١٨ نحو الفي نسمة (٤٦) .

الحركة الثقافية في المستعمرات الهيكلية الالمانية في فلسطين :

سعى كريستوف هوفمان ، الزعيم الروحي لجمعية الهيكل، منذ وصوله الى فلسطين الى انشاء مؤسسة تعليمية تهيء التلاميذ من ابناء اعضاء الجمعية الى الالتحاق بالتعليم الجامعي في المانيا . كتب هوفمان الى رفيقه باولوس في ٢٨ ايار ١٨٧٠ يقول : « ان المدارس تشغل بالي ليل نهار » . وكان هم هوفمان تنشئة اجيال جديدة مؤمنة بالرسالة التي كرس نفسه لها . ولم تكن المدارس التي أنشأتها الجمعية في مستعمراتها السابقة الذكر مجرد مدارس دينية، وانما كانت تدرّس الرياضيات والعلوم الطبيعية والعلوم الفنية والتاريخ والجغرافيا واللغات الحديثة (الالمانية والفرنسية

والعربية) . وكان التعليم الديني أساسيا في هذه المدارس .

ولعل ابرز انتاج ثقافي للهيكليين في فلسطين هي مؤلفات زعيميهم كريستوف هوفمان وجورج هارديج ؛ فقد تولى الأول رئاسة تحرير مجلة الجمعية، Sueddeutsche Warte ، التي كانت تصدر في شتوتجارت مدة طويلة من الزمن،واصدر في عام ١٨٧٥ ، كتابا مهما هو « الغرب والشرق : تاريخ ثقافي من وجهة نظر جماعة الهيكل في فلسطين :
Okzident und Orient : Eine Kulturgeschichte Betrachtung Vom Standpunkt der Tempelgemeinden in Palaestina, Stuttgart, Druck und Verlag J.F. Steinkopf, 1875.

ويتضمن هذا الكتاب المبادىء الاساسية لعقيدة الهيكليين بعد الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) .وفيه ايضاحات جيدة لأفكار هوفمان وتطلعاته . ويتضمن الفصل الأول منه عرضا لتطور جمعية الهيكل وفكرتها الاستعمارية ، ومدى صلتها بحركة الأتقياء القديمة ، وموقفها من المسائل الكنسية والعلمية والاجتماعية . ويؤكد هوفمان في هذا الفصل ان الهدف الأول للجمعية السعي الى استعادة ما فقدته الكنيسة من هيمنة روحية على رعاياها،وثقة المثقفين والمؤمنين بها ، وتحقيق تعاليم الكتاب المقدس .

اما الفصل الثاني من الكتاب فيدور حول الشرق وحاجاته ، مؤكدا على أن على مستقبل الشرق يقوم التجديد الديني للانسانية . ويبين أن الواجب الديني ينبغي ان يحرّك السيحيين المؤمنين الى الهجرة الى فلسطين،التي لا يمكن مقارنتها بالهجرة الى امريكا واستراليا من وجهة نظر اقتصادية ، لأن فلسطين بلد فقير جدا،لا تتوفر فيه المصادر الطبيعية الكافية .

ويتضمن الفصل الثالث من الكتاب موضوع « الغرب ومستقبله »، يتناول فيه هوفمان الوضع الدولي ، بصفته سياسيا ، منطلقا من المسالة الدينية التي هي محور تفكيره . يقول في هذا الصدد ان الحزب الوطني الحر ، Der Nationalliberden Partei في المملكة الالمانية (١٨٧٥) قد اهمل النور القيادي للدين،« لأن مجرى تاريخ العالم تحركه افكار روحية عميقة » .

ويكرس الفصل الاخير منه للمسألة الشرقية ، ويرى استحالة حل هذه المسالة بفن الدبلوماسية،او باللجوء الى القوة . اما الحل الذي يقترحه فحملة صليبية سلمية تضمن الاستعمار المسيحي للشرق ، وتقديم صورة حية حقيقية للشرقيين عن التدين والاخلاق المقرونين بالعمل ، وبخاصة بعد ان اتضح أن التبشير المسيحي بين المسلمين لم ينل احترامهم واهتمامهم .

اما الكتاب الثاني لهوفمان فيتضمن ثلاث رسائل مفتوحة، Sendschreiben، نشرها خلال ١٨٧٧/١٨٧٨ .،وقد اصدرتها مجلة الجمعية في كتاب واحد في شتوتجارت عام ١٨٧٨ بعنوان : « رسائل مفتوحة عن الهيكل ، والأسرار المقدسة ، وعقيدة الثالوث ، والوهية المسيح ، وابوّة الله للبشر .

Sendschreiben Ueber den Tempel und die Sakramente, das Dogma Ueber die Dreieinigkeit und von der Gottheit Christi, Sowie Ueber die Versoehnung der Menschen mit Gott, Stuttgart, Warte des Tempels, 1878.»

تناول هوفمان في هذه الرسائل عقائد الكنيسة بشأن الثالوث الاقدس، وما قبل وجود المسيح،وموت المسيح وعودته . وقد احدثت الآراء التي نشرها انقساما في صفوف جماعته . وانشأت مجموعة منها في يافا جمعية اطلقت عليها اسم « مؤسسة الهيكل » Tempelstift » تولت ادارة

المدرسة والمستشفى في مستعمرة يافا .

ونشر هوفمان مقالات عديدة ونشرات كثيرة حول الدراسات التورانية، والدروس الدينية للشباب . وتمكن من انجاز كتابة مذكراته التي نشرت بعنوان « طريقي الى القدس ، Mein Weg nach Jerusalem » .
ونشر الجزء الأول منها في القدس عام ١٨٨١ بعنوان « ذكريات من شبابي، Erinnerungen aus meiner Jugend »، ونشر الجزء الثاني منها في القدس ايضا عام ١٨٨٤ بعنوان « ذكريات سن الرشد، Erinnerungen des Mannesalters » .

ومن الجدير بالذكر ان هوفمان أصدر كتابا آخر في بداية اقامته في فلسطين بعنوان « اشعار واغان ، Gedicnte und Lieder »، صدر في شتوتجارت عام ١٨٦٩ .

اضطر هوفمان بسبب المرض الى العودة الى المانيا عام ١٨٨١، فتخلى عن رئاسة جمعية الهيكل، وتوفي في ٨ كانون الأول ١٨٨٥ (٤٧) .

أما جورج دافيد هارديج، رفيق هوفمان والزعيم الثاني لجمعية الهيكل، فقد شارك في تحرير مجلة الجمعية ، Sueddeutsche Warte ، منذ أن تعرّف بهوفمان عام ١٨٤٨ . وأصدر كتابين قبل الهجرة الى فلسطين، همـا: « الانجيل السرمدي، Das Ewige « Evangelium » و « وسائل لحل المسألة الاجتماعية ، Mitteln Zur Loesung der Sozialen Frage, Verlag Von Carl Scholer "، صدرا في شتوتجارت عن دار كارل شولر عام ١٨٦٦، ، كما اصدر آخر مؤلفاته عام ١٨٧٧ بعنوان :"المسألة التركية
Die Tuerkische Frage Oder die sechste Zornschale von einem Laien, Stuttgart, bei Messler Buchdrucker, 1877."

وتوفي هارديج في ١١ تموز ١٨٧٩ في حيفا (٤٨) .

المستعمرات الالمانية في فلسطين والعلاقات الالمانية ــ العثمانية

ينبغي علينا،عند معالجتنا لموقف المانيا من المستعمرات الهيكلية في فلسطين،التمييز بين موقفين : موقف الحكومة الالمانية القيصرية،وموقف الراي العام الالماني .

ففي ظل المنافسة القائمة بين الدول الاوروبية الكبرى على الشرق العربي،كان من المفروض ان تستغلّ الحكومة الالمانية وجود طائفة من مواطنيها في فلسطين لصالحها . غير أن دراستنا للوثائق الموجودة في الأرشيف السياسي لوزارة الخارجية الالمانية افضت الى عكس هذا الافتراض ؛ فقد اتصف الموقف الرسمي الالماني من هذه المستعمرات بالتحفّظ،لاعتقاد المسؤولين الالمان أن النفوذ الذي يمكن لالمانيا أن تحققه من خلال دعمها لهذه المستعمرات،لا يساوي المصاعب التي قد تواجهها في علاقاتها مع الدولة العثمانية .

غير أن وزارة الخارجية الالمانية كانت عاجزة عن التصرّف،انطلاقا من الاعتبارات السياسية الصرفة ؛ اذ تدخلت عدة عوامل أدت الى تصرفها ، في كثير من الأحيان ، بصورة مناقضة لما اعتبرته مناسبا في العلاقات الالمانية ــ العثمانية . ومن أهم هذه العوامل التي أكرهت برلين على تقديم العون للمستعمرين الالمان في فلسطين،الراي العام الالماني،والبلاط القيصري،ووزارة خارجية مملكة فورتمبرغ،والبحرية الالمانية .

كان الراي العام الالماني اكثر هذه العوامل فاعلية ؛ فقد كان المستعمرون الالمان في فلسطين ينشرون تقارير في الصحف الالمانية بصورة

متقطعة أحياناً ومنتظمة أحياناً أخرى عن نشاطاتهم . وكثيراً ما كانت هذه التقارير الصحفية تؤكد عداء السكان العرب والادارة العثمانية لهم . وكانت الأوساط القومية الالمانية تتجاهل في البداية المبالغة الواردة في هذه التقارير ، غير انها غضبت لتجاهل حكومة برلين للمعاملة القاسية التي زعم المستعمرون انهم يعاملون بها من طرف السلطة العثمانية . والواقع ان اهتمام اوروبا المتزايد بالاحداث الجارية في فلسطين منذ منتصف القرن التاسع عشر، صاحبه زيادة في كمية المعلومات المنشورة في الصحف المحلية عن تلك الاحداث . وقد استغلّ قادة جمعية الهيكل هذا الوضع احسن استغلال ، اذ كانوا خبراء في هذا الميدان الاعلامي .

اما البلاط الملكي ووزارة الخارجية في مملكة فورتمبرغ فقد كانا معاديين ، من حيث المبدأ ، لنشاطات جمعية الهيكل ، وذلك لاعتبارات دينية محضة . غير ان هذا الموقف الديني اتّجه الى الاعتدال بعد انتشار الليبرالية في أوروبا بوجه عام وفي المانيا بوجه خاص ؛ وخفّ ، مع الزمن ، هجوم الهيكليين في مجلتهم Sueddeutsche Warte على الكنيسة الانجيلية والسلطة السياسية في فورتمبرغ (٤٩) . واخذ العديد من أعضاء جمعية الهيكل يعودون الى حظيرة الكنيسة الانجيلية، حتى بلغ عدد هؤلاء عام ١٨٧٤ نحو ثلث اعضائها. وبدلا من التطرّف الديني ، نما شعور جديد في مملكة فورتمبرغ بأن على الوطن الأم واجب حماية ابنائه في ديار الهجرة، وهم يتعرضون لاهمال البروسيين . ولم تعد حكومة شتوتجارت تقتنع بالاعتبارات التي اعتمدت عليها وزارة الخارجية في برلين في تعاملها مع المستعمرين الالمان في فلسطين .

وكانت القوات البحرية الالمانية، المرتبطة مباشرة بالقيصر، ذات نفوذ واسع ، وتتلقى باستمرار تقارير من ضباط البوارج الحربية التي كانت

تتردد على الموانىء الفلسطينية . ولعل اهتمام القيصر فيلهلم الثاني بالبحرية زاد من أهمية هذه التقارير التي كان يقرأها القيصر نفسه، ويعلق عليها بخط يده . وكان معظم ضباط البحرية الألمان الذين يترددون على فلسطين يميل الى قبول وجهة نظر المستعمرين الالمان، القائلة بان برلين لم تبذل الجهد الكافي لحمايتهم (٥٠) .

وعندما طلب اصدقاء القدس ، Jerusalem Freunde ، من البندستاغ في فرانكفورت ان تتوسط النمسا وبروسيا ، العضوان في الاتحاد الالماني ، لدى السلطان العثماني للسماح لهم بالاستيطان في فلسطين ، رفضت الدولتان هذا الطلب بصورة قطعية ، وذهبت النداءات الشخصية الموجهة الى مندوب بروسيا في الاتحاد ، أدراج الرياح (٥١) .

ولما سافر وفد جمعية الهيكل الى فلسطين عام ١٨٥٨ لدراسة امكانية الاستيطان فيها ، طلب من ملك بروسيا، فريدريش فيلهلم الرابع Friedrich Wilhelm IV ، الذي كانت تربطه بفلسطين صلات عاطفية دينية ، أن يزوّده بعدد من الخبراء الرسميين . وليس هناك ما يدل على استجابة ملك بروسيا لهذا الطلب (٥٢) .

ولما قرر الهيكليون عام ١٨٦٨ البدء بالاستيطان في فلسطين، طلبوا من جديد المساعدة من ملك بروسيا . وكان فيلهلم هوفمان، شقيق رئيس جمعية الهيكل (كريستوف هوفمان)، يشغل آنذاك اعلى منصب كنسي في برلين General superintend ent ، وقسيس البلاط الملكي ، وله نفوذ كبير على ملك بروسيا . غير أن الملك طلب من وزارة الخارجية ان تتعرف على موقف حكومة فورتمبرغ من جمعية الهيكل قبل تقديم اية مساعدة لها . وجاء جواب وزير الخارجية في شتوتجارت في ١٦ ايلول ١٨٦٨ يقول أن آراء الجمعية ومواقفها المعادية من الكنيسة الانجيلية تجعلها

عنصرا غير مرغوب فيه . كما ان الظروف الصعبة في فلسطين سوف تنهي مشروعها بالفشل (٥٣) . غير أن نفوذ فيلهلم هوفمان تغلب على راي وزارة الخارجية في شتوتجارت،وصدرت التعليمات الى الممثلين الدبلوماسيين البروسيين لدى الدولة العثمانية لتقديم العون للهيكليين . فبذلوا جهودا كبيرة لحماية الهيكليين في حيفا . ولكن الهيكليين لم يرضوا عن تردد بروسيا في دعمهم ، وأصيبوا بخيبة أمل كبيرة (٥٤) .

واذا استثنينا الدعم الذي قدمته برلين للهيكليين اثناء المفاوضات الأولى مع الباب العالي ، فان المستعمرات الالمانية في فلسطين لم تتمكن من اثارة اهتمام حكومتي برلين وشتوتجارت خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٨٦٨ و ١٨٧٤ . أما على صعيد الرأي العام الالماني فقد حظي مشروع الهيكليين منذ بدايته بتاييد الصحافة الوطنية : ففي نهاية عام ١٨٦٨ نشرت صحيفة Augusburger Allgemeine Zeitung مقالة للبروفسور زيب Sepp ، مؤرخ الكنيسة والسياسي الالماني جاء فيها : « أن قيصر المانيا الكبير فريدريش بربروسّا Friedrich Barbarossa قد قضى نحبه من أجل امتلاك الأرض المقدسة ، وترك للألمان واجب استعادة السيطرة على فلسطين العزيزة على قلب كل مسيحي . ولا بد أن تجد المانيا في نهاية المطاف نصيبها من الاستعمار ، ومن اجل هذه الغاية ينبغي تشجيع هجرة الالمان الى فلسطين (٥٥) .

أما موقف السلطات العثمانية الذي كان معارضا لقيام المستعمرات الالمانية في فلسطين،فقد تغير منذ قيام الوحدة الالمانية عام ١٨٧١ . فوالي دمشق رشيد باشا ، الذي تعرف على نشاط الانجيليين الالمان في بسرابيا ، كان يعطف على الالمان،حتى انه وعد القنصل الالماني العام في بيروت بمنح الهيكليين قطعة من الأرض في حيفا هدية . وقام هارديج بزيارة الوالي

أثناء وجوده في بيروت،وعرض عليه خطة لاستغلال جبل الكرمل . فما كان من رشيد باشا الا أن ارسل سكرتيره الخاص ليعد تقريرا عن المنطقة المطلوبة في عام ١٨٧١ . وكانت خطة هارديج تقوم على انشاء مصح على قمة الكرمل،وربطه بمسبح على شاطىء البحر . ورغم جهود القنصل الألماني فريدريش كيلر ، Friedrich Keller ، في سبيل تحقيق هذا المشروع ، امتنعت الحكومة العثمانية عن اصدار فرمان باهداء جبل الكرمل للهيكليين (٥٦) .

وحدث تغيير في موقف وزارة الخارجية الألمانية من الهيكليين بعد عام ١٨٧٥ . وكان السبب في ذلك المظاهرات التي قام بها المسلمون في فلسطين في اثناء الحرب البلقانية في ذلك العام . اذ خشي القناصل الأجانب قيام تحرك اسلامي ضد الأجانب في فلسطين ، وعلى راسهم المستعمرون الالمان (٥٧). وبناء على طلب الهيكليين ، وافقت الحكومة الالمانية على ارسال بوارجها الحربية الى الموانىء الفلسطينية في مظاهرة عسكرية،القصد منها تطمين المستعمرين الالمان . وفي ٢ حزيران ١٨٧٧ أصدر وزير الخارجية الالماني فون بيلوف، Von Buelow ،تعليماته الى السفير الألماني في اسطنبول بالخطوة الاستثنائية التي اتخذتها الحكومة الالمانية . وجاء في هذه التعليمات : « وافق القيصر على طلب المستشار بسمارك ارسال قواتنا البحرية الى الشرق ، آخذا بعين الاعتبار الوضع الراهن هناك .. ان الهدف الأول للاسطول ظهور العلم الألماني في الموانيء التركية من اجل حماية رعايانا هناك،ومن أجل التعبير عن اهتمام حكومة القيصر برعاياها في ضوء قلقهم الناشىء عن الحرب ... وحماية أرواحهم وممتلكاتهم، بالتدخل الفعال اذا اقتضت الضرورة ذلك » (٥٨) .

واصدرت وزارة الخارجية في برلين سلسلة من التعليمات الى

سفرائها في أوروبا لاقناع الدول الاوروبية بأنه ليست وراء ارسال الاسطول الالماني الى الموانيء العثمانية اية دوافع سياسية ، وان السبب الوحيد هو الدفاع عن الرعايا الالمان في الشرق (٥٩) .

اما على الصعيد المحلي في فلسطين، فقد شعر المستعمرون الالمان في شباط ١٨٧٧ ، بينما كان مئات الشباب من المسلمين يتجهون الى يافا وحيفا للسفر الى سالونيك للمشاركة في القتال، انهم قد يتعرضون للأذى. وقام وكيل ضابط سابق الماني بتدريب الشباب الالمان على التمارين العسكرية في مستعمرة سارونا. وطلب هوفمان من القيصر حماية المواطنين الالمان من اي اعتداء محتمل من جانب المسلمين . وفي يوم عيد الفصح من عام ١٨٧٧ أرسى الطراد الالماني غاتسيله ، Gazelle ، في ميناء يافا . وكان عليه اربعمئة جندي وثمانية عشر مدفعا . وكان يقود الطراد الأمير فون هاكه ، Graf Von Hacke ؛ وجاء هوفمان وممثلون عن الهيكليين الى ميناء يافا لتقديم شكرهم لقائد الطراد لحماية الحكومة الالمانية لمواطنيها . ولما رد قائد الطراد على زيارة هوفمان ورفاقه بزيارة مستعمرة سارونا ، أقام المستعمرون الالمان الاحتفالات الضخمة بهذه المناسبة . وحدث شيء مماثل لذلك عندما زار الطراد نفسه ميناء حيفا في الفترة نفسها . وفي صيف العام نفسه قامت أربع بوارج حربية المانية بزيارة الساحل السوري والفلسطيني (٦٠) .

وبدأت بعد هذه المظاهرة العسكرية مرحلة من العلاقات الودية بين الهيكليين والحكومة الالمانية، واستجابت الحكومة الالمانية لطلب الهيكليين بدعم مدارسهم في فلسطين، فتقدمت وزارة الخارجية الالمانية مبلغ ٣٧٥٠ ماركا منحة سنوية لهذه المدارس . وكان هذا المبلغ يعادل ربع الموازنة السنوية لتلك المدارس . ومن الجدير بالذكر أن هذه المنحة هي المعونة

المالية الرسمية الوحيدة التي قدمتها الحكومة الالمانية للهيكليين منذ بداية مشروعهم الاستعماري في فلسطين عام ١٨٦٨ وحتى عام ١٩١٨ .

وفي عام ١٨٨٠ سعى الهيكليون الى اعتراف الحكومة العثمانية بالتنظيم الاداري المستقل لمستعمراتهم . وايدهم في هذا المسعى القنصل الالماني العام في القدس مينشهاوزن ، Muenchhausen ؛ غير ان مساعيهم باءت بالفشل . كما فشلت محاولتهم لدفع وزارة الخارجية الالمانية الى التوسط لدى الحكومة العثمانية لتوسيع حقوق الأجانب المقيمين في الولايات العثمانية (٦١) . وحدثت ازمة عنيفة بين الهيكليين والحكومة الالمانية سببها الخدمة العسكرية في المانيا : ذلك أن عددا قليلا من المستعمرين الالمان قد اتم الخدمة العسكرية الاجبارية في المانيا قبل الهجرة الى فلسطين؛ وكان هؤلاء يتمتعون بالجنسية الالمانية وفقا للقانون الالماني . اما الذين كانوا دون سن السابعة عشرة عندما غادروا المانيا،ولم يعودوا اليها للقيام بالخدمة العسكرية،فقد كان من الصعب منحهم حقوق المواطنة الالمانية . ومن المعروف أن العديد من الالمان وغيرهم قد دخل في حماية القنصليات الالمانية في فلسطين،إمّا بصفتهم مواطنين يتمتعون بحق المواطنة الالمانية ، Reichsangehoerige ، وإمّا بصفتهم رعايا تحت الحماية ، Schutzgenossen . وفي عام ١٨٨٠ اصدر المستشار الالماني بسمارك تعليمات الى القناصل الالمان في الدولة العثمانية يطلب فيها رفع الحماية عمّن لم يَقضِ الخدمة العسكرية في الجيش الالماني .

ودخلت الأزمة مرحلتها الحرجة اثر وصول خليفة القنصل مينشهاوزن، الدكتور رايتس ، Reitz ، الى القدس عام ١٨٨١ : فقد بدأ يدعو الهيكليين الى مكتبه واحدا بعد الآخر،ويتهمهم بأن القصد من مشروعهم الاستعماري في فلسطين هو التهرب من الخدمة العسكرية في الجيش

الالماني . ولما حاول رايتس أن يرفع الحماية عن بعض الهيكليين،ثار غضب هوفمان زعيمهم ، وبعث باحتجاج شديد اللهجة الى المستشار الألماني . وقال في رسالته الاحتجاجية هذه : اذا كان رايتس يتصرف بناء على تعليمات من وزارة الخارجية،فان الهيكليين سوف يبحثون عن دولة اخرىللدخول في حمايتها ، وربما اضطروا الى الانتقال الى بلد آخر . ورجا هوفمان المستشار الالماني أن يعتبر العمل في المستعمرات الالمانية في فلسطين،ولعشرين سنة قادمة،كخدمة عسكرية . وطلب تعديل قانون الخدمة العسكرية الالماني،بحيث يأخذ بعين الاعتبار وضع الهيكليين في فلسطين . فاذا تعذر ذلك طلب هوفمان ابقاء الوضع كما هو عليه حتى عام ١٨٨٤،ليتمكن الهيكليون من ايجاد حل آخر (٦٢) .

وجاء رد المستشار الالماني ليؤكد أن تصرفات رايتس مبنية على تعليمات تلقاها من وزارة الخارجية الالمانية ، وانه من المتعذر استثناء الهيكليين في قانون الخدمة العسكرية . ولكنه اعترف بحقهم في التمتع بالحماية القنصلية الالمانية ، شريطة ان يطبّق عليهم قانون الخدمة العسكرية اعتبارا من عام ١٨٨١ (٦٣) . ومنذئذ شرع الهيكليون يرسلون ابناءهم الى المانيا للقيام بالخدمة العسكرية هناك،ومدتها ثلاث سنوات(٦٤).

وحدث تغيّر مهم في السياسة الالمانية نحو الدولة العثمانية في الثمانينات من القرن التاسع عشر : ففي عام ١٨٨٠ لبّى المستشار الالماني بسمارك طلب السلطان العثماني بتزويد بلاده بالخبراء الماليين والعسكريين. وبدأت المانيا منذئذ الغزو الاقتصادي، Penetration Pacifique ، للدولة العثمانية . واصبح دعم الدولة العثمانية وتقويتها ، على امل أن تكون في يوم ما حليفة لالمانيا ، هدفا مهما من أهداف السياسة الخارجية الالمانية . واستقدمت الدولة العثمانية العديد من الخبراء العسكريين

والاداريين الالمان . واخذ الشباب العثماني يتردد على المعاهد العسكرية والعلمية الالمانية . وبدأ بنك فلسطين الالماني Deutsche Palaestina Bank نشاطه في القدس،ثم فتح فرعا له في يافا وآخر في حيفا . واخذت البواخر الالمانية تتردد بانتظام على الموانىء العثمانية . وتأسست في علم ١٨٨٩ شركة بواخر الشرق الالمانية ، die Deutsche Levante-Linie

وبدأت رحلاتها بأربع بواخر، ثم ما لبثت أن زادت عدد بواخرها الى العشرين في مطلع القرن العشرين (٦٥) . وفي عام ١٨٨٨ حصلت شركة المانية على امتياز مدّ سكة حديد الاناضول (٦٦) .

وفي العام نفسه اعتلى عرش المانيا القيصر فيلهلم الثاني . وبعد عام من ذلك قرر ان تكون أول زيارة له خارج المانيا الى السلطان العثماني . وقد اعجب القيصر بآراء السفير الألماني في اسطنبول، البارون هاتسفيلد Baron Hatzfeld ، (١٨٧٩ — ١٨٨١) بشأن التعاون الالماني — العثماني . فقد راى هاتسفيلد ان فرنسا تمتعت بوضع متفوق في الدولة العثمانية حتى حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨ ، وان انجلترا، التي حاولت الحلول محل فرنسا،قد اثارت شكوك الاتراك بها بعد أن ضمّت قبرص اليها عام ١٨٧٨،واحتلت مصر عام ١٨٨٢ . وينتهي السفير الالماني السابق الى القول إن فراغا قد وجد نتيجة لذلك، ولا بد لقوّة اوروبية من ملئه ، وإن المانيا هي الدولة المؤهلة لملء هذا الفراغ (٦٧) .

في نطاق الانفتاح العثماني على المانيا،ورغبة هذه الأخيرة في توسيع علاقاتها مع الدولة العثمانية،لم يكن للهيكليين الا اثر ضئيل جدا في هذا المجال ؛ اذ حرصت برلين على ازالة مخاوف العثمانيين من تجميع الأجانب على اراضيهم ، كما ان فلسطين تقع خارج نطاق المصالح الالمانية التي تركزت على طول سكة حديد بغداد .

لقد دار جدل طويل في أوساط وزارة الخارجية الالمانية حول موقف الحكومة الالمانية من الاستيطان الالماني في الدولة العثمانية على ضوء التطورات الجديدة . ففي عام ١٨٩١ طلب خليفة بسمارك، المستشار كابريفي، Caprivi ، من وزارة الخارجية ابداء رأيها في اقتراح تقدم به السلطان العثماني الى القيصر فيلهلم الثاني، يتضمن انشاء مستعمرات المانية على طول سكة حديد بغداد . وكانت اول مذكرة من وزارة الخارجية تناولت هذا الاقتراح قدّمها الهر كيدرلين، Kiderlen ، من الدائرة السياسية في الوزارة . وقد بنى كيدرلين تحليله على تجربة الهيكليين في فلسطين . وجاء في مذكرته هذه :

« ان المستعمرات الالمانية في فلسطين لا تقدم لنا مثالا مشجعا . فالمستعمرون يكسبون قوتهم بصعوبة ، ويتعرضون لعداء السكان المحليين والسلطات التركية . واذا كان المستعمرون المقترح توطينهم في آسيا الصغرى من الالمان، فسيواجه تناصلنا التذمر الدائم من السلطات المحلية، كما ستواجه سفارتنا تدخل الباب العالي المستمر . وهذا أمر لا بد من اخذه في الحسبان . وقد يدمّر علاقاتنا الطيبة مع الاتراك بدلا من أن ينميها. والمستعمرات في فلسطين خير مثال على ذلك » (٦٨) .

وتقدم مدير الدائرة الاستعمارية في وزارة الخارجية الهر كايزر، Kayser ، مذكرة مماثلة للمذكرة السابقة . يتبين لنا من هاتين المذكرتين ان وزارة الخارجية الالمانية كانت ترى في مستعمرات الهيكليين في فلسطين مثالا سيئا، وسببا دائما لتهديد العلاقات الالمانية ـــ العثمانية بالتدهور . والواقع ان شكاوى الهيكليين اثارت غضب السلطات العثمانية ؛ كما ان وجود المستعمرات الالمانية في فلسطين اثار حفيظة الدول الأوروبية ضد المانيا . ولم تكن فلسطين، بامكانياتها المحدودة، البلد القادر على تلبية

احتياجات المانيا ؟ فلا هي مصدر مهمّ للمواد الاولية، ولا هي سوق واسعة قادرة على استيعاب منتجات المانيا . ولذلك لم يكن فيها ما يستحق اهتمام المانيا الحقيقي في هذه الفترة .

ولعل ابرز الاحداث السياسية التي شهدتها فلسطين في نهاية القرن التاسع عشر، زيارة القيصر الالماني فيلهلم الثاني، في تشرين الاول عام ١٨٩٨، وهي زيارته الثانية للشرق . وكان الغرض المعلن من هذه الزيارة الحج الى الاماكن المقدسة : ففي ٢٥ تشرين الاول من ذلك العام، ارست ثلاث بوارج المانية تُقِلّ القيصر وحاشيته في ميناء حيفا . وفي صباح اليوم التالي تجمّع كافة افراد المستعمرة الالمانية في حيفا في باحة القنصلية الالمانية من اجل تحية القيصر . وقام فريدريش لانجه « Friedrich Lange » رئيس الجماعة الهيكلية في حيفا (ومؤرخ الجمعية)، بالقاء كلمة في حضرة القيصر، شكره فيها على الدعم والمؤازرة التي يلقاها الهيكليون من القيصر، وبخاصة في ميدان التعليم . واكّد على ضرورة توثيق الصلات بين الهيكليين والوطن الام . وردّ القيصر عليه بالاعراب عن سعادته اذ يرى في قلب الارض المقدسة مستعمرة المانية لها علاقات وثيقة بالوطن الام، وقال بانه سوف ينقل الى ملك فورتمبرغ ما حققه مواطنوه من انجازات ؛ واكد حمايته لكافة الالمان. كما القى الدكتور شوماخر « Dr. G. Schumacher » لبن احد قادة الجمعية، كلمة في حضرة القيصر اشار فيها الى قيمة الابحاث العلمية الالمانية عن فلسطين واحوالها (٦٩) . وتجوّل القيصر في المستعمرة، ثم اتجه الى يافا ومنها الى القدس . وخلال سفره الذي استغرق يومين، زار القيصر مستعمرات يافا وسارونا وريفايم، حيث استقبل استقبالا حافلا (٧٠) .

وفي اثناء هذه الزيارة اصبحت فلسطين والمستوطنون الالمان فيها موضوع الساعة في المانيا . وتاسست في شتوتجارت في تشرين الاول ١٨٩٩

« جمعية تطوير الاستيطان الألماني في فلسطين » Gesellschaft Zur Foerderung der deutschen Ansiedlungen in Palaestina » تحت رعاية البارون فون ايليريكسهــــــــوزن ، Freiherr Von Ellerichshausen ، من اجل تزويد الجمعية بالتبرعات المالية لتوسيع نشاطها وشراء المزيد من الارض . وتولى ادارة الجمعية الأمير فون أوراخ، K. Von Urach ، بينما تولى رئاستها الفخرية النائب العام في المملكـــة الدكتور فون رو ب ، Von Rupp ؛ وتمكنت هذه الجمعية من جمع مبلـــغ ثلاثمئة الف مارك،حوّلت الى جمعية الهيكل،فاشترت به قطعة من الأرض مساحتها ثمانية كيلومترات مربعة بالقرب من اللد،غير بعيد عن سكة حديد يافا ــ القدس . وانشأت عليها مستعمرة فيلهلما Wilhelma (٧١) .

واذا كانت زيارة القيصر لفلسطين قد بعثت الحماس في نفوس سكان مملكة فورتمبرغ،فانشأوا جمعية تطوير الاستيطان الالماني في فلسطين ، فلم يتجاوز دعم القيصر للهيكليين اعجابه بمنجزاتهم،وتعاطفه معهم،ووعده لهم بأن يسعى لدى السلطات العثمانية لِتُعامِلَهم المعاملـــــة التـــــي يستحقونها (٧٢) . واذا عدنا الى وثائق الأرشيف السياسي لـــوزارة الخارجية الالمانية لمعرفة نتائج زيارة القيصر هذه ، لم نجد فيها ذكرا أو اشارة للمستعمرات الالمانية في فلسطين ؛ فقد لخّص نتائج هذه الزيـــارة القائم بالاعمال الالماني في اسطنبول في تقريـــر بعـــث بـــه الـــى وزارة الخارجية (٧٣) ، ووُزّعت نسخ من هذا التقرير ، بناء على أوامر القيصر، الى كافة السفارات الالمانية في العالم ؛ وقد ورد في هذا التقرير أن الدافـــع الاول لزيارة فلسطين هو دافع ديني . ولم ترد فيه اية اشارة للمستعمرات الالمانية فيها . والواقع أن زيارة القيصر لفلسطين لم تُحْدِث اي تغيير في السياسة الالمانية الرسمية نحو المستعمرات الهيكلية ؛ غير أن فلسطين بقيت منذئذ موضوع اهتمام الرأي العام الالماني ؛ فقد اثار الوصـــــف

الحماسي للمستعمرات موجة من التعاطف الشعبي،ساعدت المستعمرين على التغلّب على المصاعب التي واجهوها،وبناء ثلاث مستعمرات جديدة . غير أن الأموال اللازمة لبناء هذه المستعمرات جُمعت من مواطني مملكة فورتمبرغ وحدها (٧٤) . وذهبت جهود جمعية تطوير الاستيطان الألماني في فلسطين من اجل الحصول على تعاون القيصر الألماني لشراء الاسهم في المؤسسة المالية التي انشاتها ، سدى . هذا وقد لقيت الجمعية المذكورة اهتماما خاصا في مملكة فورتمبرغ : ففي عام ١٩١٠ طلب وزير خارجية المملكة من ممثلها في برلين ان يتوسط لدى وزارة الخارجية الاتحادية لتضغط على الدويتش بانك، Deutsche Bank ، لمنح جمعية الهيكل قرضا مقداره مئة الف مارك،للحفاظ على الطابع الألماني لمستعمرة ساروناء وتطوير مستعمرتي فيلهلما وبيت لحم في الجليل . وبينما كانت المساعي جارية للحصول على القرض المطلوب،انفقت حكومة برلين مبلغا يساوي عشرين ضعف هذا المبلغ على مؤسسة القيصرة اوغستا فكتوريا، Kaiserin Auguste Victoria Stiftung ، في القدس التي انشئت تخليدا لزيارة زوجة القيصر للمدينة المقدسة (٧٥) .

ومع مُدّ سكة حديد الحجاز،وقيام الفرنسيين بمد السكك الحديدية في فلسطين،ازداد تلق الهيكليين،وشعروا أن البلاد تكاد تقع تحت النفوذ الفرنسي . وفي صيف عام ١٩١٣ قام وفد من جمعية الهيكل في فلسطين، مؤلف من رئيسها كريستيان روهرر ، Christian Rohrer ، وغوتليب شوماخر ، Gottlieb Schumacher ، بزيارة شتوتجارت وبرلين للسعي لدى حكومة فورتمبرغ وحكومة برلين الاتحادية لتجنّب وقوع فلسطين في منطقة النفوذ الفرنسي . وفي آب ١٩١٣، قدّم الوفد مذكرة ألى فون روزنبرغ ، Von Rosenberg ، مدير الدائرة الشرقية في وزارة الخارجية في برلين ؟ وسال شوماخر المسؤول الألماني عن مصير المستعمرات

الالمانية في حالة قبول المانيا بوقوع فلسطين تحت الهيمنة الفرنسية . وتضمنت مذكرة الوفد الهيكلي اشادة بدور المستعمرين الالمان في تطوير فلسطين،ورفع سمعة المانيا . كما اقترحت ايجاد حلّ لمستقبل فلسطين تقبل به الدول الكبرى ، وذلك باسرع وقت ممكن،وقبل ان يفوت الأوان . واقترح شوماخر في هذا الصدد وضع فلسطين (من الحدود المصرية الى راس الناقورة شمالا،وحتى سفوح جبل الشيخ شرقا) تحت حكم امير أوروبي . وبرّر اقتراحه هذا بانه لا يتعارض والمصالح البريطانية والروسية في المنطقة . واقترح بالمقابل منح فرنسا المنطقة الواقعة شمال فلسطين،دون الاضرار بمصالح الدول الكبرى فيها (٧٦) .

وسعى الوفد لدى وزارة خارجية مملكة فورتمبرغ لقبول مقترحاته السابقة الذكر ، فايّدتها،وطلبت من ممثلها في برلين ان يجسّ نبض وزارة الخارجية الاتحادية . فجاء الرد : ان سورية لا تقع في منطقة اهتمام المانيا، لأنها بعيدة عن سكة حديد بغداد (٧٧) . وهكذا خابت آمال الوفد الهيكلي من موقف حكومة برلين ، وعاد الى فلسطين خالي الوفاض . وجاءت الاتفاقية الفرنسية ــ الالمانية لعام ١٩١٤ (٧٨) لتؤكد اعتراف المانيا بوضع فرنسا الخاص في فلسطين،وبخاصة في موضوع بناء السكك الحديدية .

غير أن فكرة فصل فلسطين عن الدولة العثمانية ووضعها تحت الهيمنة الأوروبية،لم تغب عن ذهن بعض المسؤولين الالمان ؛ فقد اقترح السفير الالماني في اسطنبول،في رسالة بعث بها الى المستشار الالماني الامير فون هيرتلنغ ، Graf Von Hertling ، انشاء مملكة في فلسطين لحل مسألة الاماكن المقدسة ، معتقدا بأن هذا الحل سوف يرضي المسيحيين واليهود في العالم ، شريطة ايجاد حلّ مُرضٍ للاماكن المقدسة

الاسلامية في القدس (٧٩) . وكان القنصل الالماني العام في القدس الدكتور بروده، Brode ، قد اقترح على السفير الالماني في اسطنبول اقامة مملكة صغيرة في القدس تضمّ بيت لحم جنوبا،وتمتد الى نهر الأردن والبحر الميت شرقا،والى قرية رام الله شمالا ، وان يعتلي عرشها امير كاثوليكي الماني؛ شريطة أن تبقى هذه المملكة تحت السيادة العثمانية الاسمية ، وان تُدفع للخزينة العثمانية مليون جنيه استرليني ، وان يُحتفظ المسلمون والمسيحيون واليهود بأماكنهم المقدسة فيها . واقترح بروده ايضا ان تسعى الحكومة الالمانية لدى الباب العالي للتوسع في الاستعمار اليهودي في فلسطين،ومنح اليهود حكما ذاتيا في البلاد (٨٠) . والواقع ان هذه المقترحات قد جاءت في فترةٍ بَلَغَ النشاط الصهيوني في المانيا أوجه من اجل الحصول على وعد رسمي من الحكومة الالمانية مماثل لتصريح بلفور .

يتضح مما سبق ان الحكومة الالمانية لم تَسْعَ الى تحقيق اية مطالب علنية أو سرية في فلسطين،منذ قيام الرايخ الالماني عام ١٨٧١ وحتى نهاية الحكم العثماني عام ١٩١٨ ؛ كما أنها لم تستغلّ عنصر المستعمرين الالمان لأغراضها السياسية في البلاد .

علاقات المستعمرين الالمان بالسكان العرب

اتَّسَمَت العلاقات بين المستعمرين الالمان والسكان العرب في فلسطين بالشك والريبة والحذر . لقد أدرك كريستوف هوفمان،أثناء رحلته الاستطلاعية الى فلسطين عام ١٨٥٨،أن مشروعه لن يحظى بتأييد السلطات العثمانية فحسب ، وانما سيواجه مقاومة حقيقية من جانب السكان العرب، الذين يشكل المسلمون اكثر من ٩٠٪ منهم (٨١) .

ولما بدأ استيطان الهيكليين في فلسطين،كانوا يحملون افكارا واضحة

عن العداء العربي لهم . وساهمت أحداث فلسطين في تشدد كل فريق في موقفه . وأدرك العرب ان الهيكليين الالمان ليسوا كبقية المقيمين الأجانب في فلسطين ؛ فمشروعهم ليس خيريا كمشاريع الارساليات التبشيرية المنتشرة في البلاد . واكتشفوا ايضا ان الالمان قد جاؤوا الى البلاد تاركين أوطانهم بهدف واحد، هو الاستيلاء على أراضيهم وامتصاص دمائهم (٨٢) . ولذلك كان من المتعذّر على مشروع الاستيطان الالماني ان يكسب قلوبهم . وخلافا لما كان يعتقده او يزعمه الالمان، لم تساهم انجازاتهم في فلسطين الا في بعث كراهية العرب لهم (٨٣) . ونظر الالمان ، بالمقابل ، الى العرب نظرة استعلاء وتفوّق ، فزادت من توتر العلاقات بين الفريقين (٨٤).وكان قادة جمعية الهيكل يخشون الاختلاط بالسكان العرب والذوبان في المجتمع المحلي ؛ فهم « شعب الله » المكلف ببناء مملكة الرب في القدس . لذلك تحاملوا على العرب دوما ، وبرروا هذا التحامل في المقالات التي كانوا ينشرونها في مجلتهم Sueddeutsche Warte : فالشرقي في نظرهم « وقح متعجرف بالطبيعة ، يمارس السرقة والاستجداء ، ولا يحني هامته الا للقوة والمال » (٨٥) .

وكان قادة الجمعية يحذّرون اعضاءها من التزاوج مع العرب . واستغلوا حالة زواج فاشلة بين فتاة المانية وشاب مسيحي عربي في دعايتهم هذه . وكانوا يقولون « من الافضل للألمانيات ان يبقين عوانس من ان يلقين بأنفسهن في احضان الرعاع » . (٨٦)

ولم يُخفِ كريستوف باولوس، الذي خلف هوفمان في رئاسة جمعية الهيكل بين عامي ١٨٨٤ و ١٨٩٠ ، والذي كان من اتباع الفلسفة الانسانية، احتقاره للعرب . وحينما تكونت شركة للنقل بين يافا والقدس من الالمان والعرب واليهود عام ١٨٨٤ ، واوكل تنظيمها الى الالمان، كتب

باولوس بهذا الصدد يقول : « تعتبر هذه الاتفاقية نصرا للأمانة الالمانية على دسائس العرب واليهود القذرة . لقد أمكن قيام الشركة لان ادارتها والاشراف على ماليتها قد اوكلا الى الالمان،الذين تعترف كافة الأطـــراف بأمانتهم ومثابرتهم على العمل . دعنا نأمل ان يكون لهذا الانجاز الذي حققته النزاهة الالمانية ، تاثير ايجابي على السكان المحليين . ويمكن اعتبار هذا العمل الانموذجي عملا تبشيريا ، لأن الهيكليين يؤمنون بأن على الشعب الذي يتوجه اليه المبشرون،ان يتحول الى كائنات بشرية قبل ان ينظـــر في أمر تنصيره » . (٨٧)

ازاء هذه النظرة الاستعلائية العِرْقية ،لا عجب اذا عجز الهيكليون عن الوصول الى قلوب العرب،واقامة علاقات طيبة معهم .وقد اعتـــرف بهذا الوضع السفير الالماني في اسطنبول، مارشال فون بيبرشتايـــن ، Marschall Von Bieberstein ، في رسالته التي بعث بها الـــى المستشار الالماني فون بيلوف، Von Buelow ، والمؤرخة في ٨ ايـــار ١٩٠٩ ، والتي اقتبس فيها اقوال نائب القنصل الالماني في حيفا (٨٨) .

ورغم حالة الشك والحذر والكراهية التي سادت العلاقات بـــين المستعمرين الهيكليين والعرب في فلسطين ، لم تحدث خلال الحكم العثماني سوى حادثة قتل واحدة،ذهب ضحيتها أحد هؤلاء الالمان،وبسبب استفزازي. وكان سبب الحادثة التي تمت عام ١٩١٠ ، مقتل احد فلاحي قرية الطيرة (قرب حيفا) على يد احد الالمان من مستعمرة حيفا في اثناء اقدام الأول على السرقة من المزرعة الالمانية .وثار اهل القتيل لقتيلهم، وهاجموا في اليـــوم التالي للحادث احد الالمان، واسمه فريتس اونجر ، Fritz Unger، في مستعمرة نويهاردتهوف وأردوه قتيلا (٨٩) .

وخشي المستعمرون الالمان اعتداء المسلمين عليهم في اثناء الحـــرب

البلقانية (١٨٧٥ — ١٨٧٨) ، وطلبوا الحماية من حكومتهم ؛ فرأت هذه ان تبعث ببوارج حربية الى الشواطىء الفلسطينية . فكانت خطوة لا سابقة لهـا .

وشعر المستعمرون الالمان بضيق شديد عندما أخذ العرب ينافسونهم في الميدان الاقتصادي ؛ فقد حل العرب محل الناقلين الالمان بالشاحنات على طريق حيفا — عكا ، كما الحقوا اضرارا كبيرة بشركة السفريات الألمانية على طريق يافا — القدس،بتخفيض اجور السفر . وواجه الحِرَفيون الألمان منافسة مماثلة من العرب . وزاد من كراهية العرب للمستعمرين الألمـان واليهود حماية الدول الأوروبية الكبرى لهم . ولم يشعر العرب في يوم من الأيام بأن وجود المستوطنين الالمان او غيرهم فيه اية فائدة لهم (٩٠) .

علاقة المستعمرين الالمان بالطائفة اليهودية

اتخذت جمعية الهيكل موقفا عدائيا من اليهود واليهودية قبل استيطان افرادها في فلسطين ، لاعتبارات دينية محضة . غير أن هذا الموقف تبدل بعد استيطان الهيكليين في فلسطين ، ولم يترددوا في التعاون مع المهاجرين اليهود والمستعمرات اليهودية لمواجهة المجتمع العربي المناهض لهم . واخذ هذا الموقف يتغير مع قدوم آلاف اليهود من شرق أوروبا في منتصف الثمانينات من القرن التاسع عشر ، وذلك بسبب منافسة المستعمرين اليهود الجدد لهم في الميادين الاقتصادية .

فقد كان هوفمان،مؤسس جمعية الهيكل،يعتقد ان الأرض المقدسة ينبغي ان تكون ملكا لشعب الله ، وان الله كان ينوي في البداية منح هـذه البلاد للشعب اليهودي ، غير ان هذا الشعب غرق في الفساد والرذيلة، ولم يعد شعبا مقدسا . الهيكليون وحدهم هم الذين أوجـدوا الشعب المقدس الجديد « شعب الله » . وتأكد هذا الاعتقاد لدى هوفمان عند

زيارته لفلسطين عام ١٨٥٨، ورأى « حالة اليهود السيئة، وكسلهم وعجزهم عن تخليص البلاد من حالتها المتدهورة » . ووجد الالمان في بداية استيطانهم مبررا للتفاهم مع الاقلية اليهودية، للتخلص من العزلة التي يعيشونها (٩١) .

اما بالنسبة الى اليهود ، فقد حاول زعماء هواة صهيون « حوفيفي تسيون » (٩٢) الاستفادة من تجربة المستوطنين الالمان في المستعمرات الزراعية ؛ وكانوا يترددون عليهم محاولين تجنب الأخطاء التي وقعوا فيها . وحينما بدأت الهجرة اليهودية المنظمة الاولى (١٨٨٢ — ١٩٠٤) التي تألفت من موجتين كبيرتين هما: الاولى (١٨٨٢ — ١٨٨٤)، والثانية (١٨٩٠ — ١٨٩١)، بدأ موقف المستوطنين الالمان يتغير . وكانت المنافسة الاقتصادية وراء هذا الموقف المعادي . صحيح ان نوعية الانتاج اليهودي من الحِرَف والصناعات الخفيفة كانت ادنى من نوعية الانتاج الالماني، الا ان انخفاض أسعار الانتاج اليهودي جعل من الحِرَفيين والصناع اليهود منافسين خطرين للألمان (٩٣) .

وشعر المستعمرون الالمان بالخطر الحقيقي حينما طلب ثيودور هرتسل ، Theodor Herzl ، في آب ١٨٩٧ من اعضاء المؤتمر الصهيوني الأول المنعقد في مدينة بازل السويسرية، الموافقة على برنامج الحركة الصهيونية . ومنذ أن صدرت صحيفة « العالم ، Die Welt » الناطقة بلسان الحركة الصهيونية في حزيران ١٨٩٧ ، شعر الهيكليون انهم يواجهون حركة سياسية يهودية منظمة، تؤكد صحيفتها كل يوم على اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين .

ومنذ مطلع عام ١٩٠٨ شنّت صحيفة الهيكليين Sueddeutsche Warte هجومها على الحركة الصهيونية، وعلى مختلف أوجه نشاطاتها . وكان يقود

هذه الحملة فريتس لورخ ، Fritz Lorch ، أحد الألمان المولودين في فلسطين، والذي انتقل الى شتوتجارت ليعمل في صحيفة الجمعية . وقد ابرز لورخ عدم ولاء الصهاينة للدولة العثمانية وتعاونهم مع بريطانيا من اجل تمزيق اشلائها . اما الصهاينة فقد حاولوا التقرب من المستوطنين الألمان والتفاهم معهم، حرصا منهم على تجنّب الصدام مع الامبراطورية الألمانية الناشئة. وامتنعت صحيفة « دي فيلت » الصهيونية عن الرد على حملة لورخ الاعلامية (٩٤) :

وبمناسبة انتقال صحيفة الهيكليين Sueddeutsche Warte من شتوتجارت الى القدس في كانون الثاني عام ١٩١٢، نشرت صحيفة « دي فيلت » مقالا مطولا طالبت فيه المستوطنين الألمان أن يبدوا مزيدا من التفهم نحو المصالح المشتركة لليهود والالمان . وأكد المقال على الفوائد التي قد يجنيها المستوطنون الالمان والامبراطورية الألمانية من المهاجرين اليهود، الناطقين باللغة الألمانية، والذين يفضّلون اقامة علاقات تجارية مع المانيا (٩٥) .

ومن الجدير بالذكر أن المانيا ، في هذه الفترة ، كانت مقرًّا لمعظم المؤسسات والمراكز التابعة للحركة الصهيونية . وانساق المستوطنون الالمان وراء سياسة المانيا الرسمية منذ عام ١٩١٣ ؛ تلك السياسة التي كانت تحبذ الإستفادة من الوجود اليهودي في فلسطين من أجل تنمية المصالح الالمانية فيها . وشهدت العلاقات بين الأقلّيتين: الالمانية واليهودية، تحسنا ملحوظا عشية قيام الحرب العالمية الأولى (٩٦) . غير ان هذا التحسن في العلاقات كان مؤقتا ولفترة قصيرة جدا .

المصـــــادر :

1) Hajjar, J. : L'Europe et les Destinees du Proche Orient, Bloud and Gay, Belgium, 1970, pp. 326-7

Hyamson, A.M.: British Projects for the Restauration of Jews to Palestine, in "Publications of the American Jewish Historical Society", 1918, No. 2, pp. 129-131.

2) Hajjar, J. : op. cit, pp. 327-8

3) Hyamson, A.M. : op. cit, p. 136, Hajjar, J. : op. cit, p. 329

4) Tibawi, A.L. : British Interests in Palestine, Oxford University Press, London, 1961, p. 33

Hyamson, A.M. : The British Consulate in Jerusalem in relation to the Jews of Palestine (1838-1914) London, 1939, vol. I,p. 45

5) ولد موسى مونتفيوري عام ١٧٨٤ في ليفورن Livourne . ونجح في حياته كرجل اعمال يهودي . واصبح نبيلا بسبب صلة النسب باسرة روتشيلد في بريطانيا . وانسحب في عام ١٨٢١ من اعمال التجارة،وكرس حياته للاعمال الخيرية الاجتماعية المتعلقة باليهود. وقام بعدة زيارات لفلسطين بين عامي ١٨٢٧ و ١٨٧٥ .

Loewe, L.(ed.):Diaries of Sir Moses and Lady Montefiore, London 1890, vol. I, pp. 165 ff.

Hajjar, J. : op. cit, p. 327.

6) Hajjar, J. : op. cit, pp. 330-331

7) حول تفصيل اقامة مولتكه في اسطنبول انظر :

Moltke, Helmuth von : Briefe ueber Zustaende und Begebenheiten in der Tuerkei aus den Jahren 1835 bis 1839, Berlin, 1893.

8) Wagner, R. : Moltke und Muehlbach zusammen unter dem Halbmonde (1837-1839), Berlin, 1893.

Moltke, Helmuth von : Vermischte Schriften, Berlin, 1892, Bd. 2, pp. 279-288.

Lewin, E : The German Road to the East, William Heinemaun, London, 1916, pp. 22-3.

Hajjar, J, : Op. Cit., P. 369.

Geschichte der Deutschen Evangelischen Kirche und Mission im Heiligen Lande, p. 4. (٩

Tibawi, A. L. : Op. cit, pp. 44-5.

Richter, J. : A History of Protestant Missions in the Near East, A.M.S. Press, New York (1970) Reprinted Edition of 1910, p. 237.

Brugger, Hans : Die deutschen Siedlungen in Palaestina, Bern, 1909, pp. 11-12. (١٠

Carmel, Alex : Geschichte Haifas in aer tuerkischen Zeit (1516-1918), Otto Harrassowitz, Wiesbaden, 1975, p. 80.

١١) ولد كريستوف هوفمان في بلدة ليونبرغ Leonberg في الثاني من كانون الاول عام ١٨١٥م، وانتقل مع والده الى كورنتال . وكان يتردد على خاله الهر باومان Baumann في شتوتجارت . واهتم كريستوف منذ صباه بالشعر والتاريخ . ودرس في جامعة توبنجن الفلسفة والتاريخ . واعجب بهيجل وكانت من الفلاسفة الالمان. ولما انهى دراسته الجامعية عام ١٨٣٧ اشتغل معلما في مدرسة انشاها صديقه عمانوئيل باولوس بالقرب من لودفيجزبورغ . غير انه لم يقم فيها طويلاً واضطر تحت ضغط والده الى العمل في مدارس الكنيسة في فورتمبرغ . وفي عام ١٨٤١، كرّس هوفمان نفسه للتعليم في المدرسة التابعة للجمعية التي يرئسها والده .

Brugger, H. : Op. cit., pp. 12-20

Brugger, H. : op. cit, pp. 20-32 (١٢

Hoffmann, Christoph : Errinnerungen aus meiner Jugend, Jerusalem, 1881, p. 720.

Carmel, Alex; The German Settlers in Palestine and their Relations with the local Arab Population and the Jewish Community (1868-1918) in "Studies on Palestine during the Ottoman Period, Jerusalem, (١٣

1975, p. 442.

Geschichte der deutschen Evangelischen Kirche. pp.132-3

Gaeschichte وسيشار اليه فيما بعد ......

Alonzo, Alphonse d' : Les Allemands en Orient, Oscar Schepens, Bruxelles, 1904, p. 37

Brugger, H. : op. cit, pp. 26-7

Carmel, Alex : Geschichte Haifas . . . p. 81

١٤) ولد جورج دافيد هارديج في الثاني من نيسان عام ١٨١٢ في قريـــة اغلوزهايـــم Egiosheim قرب لودفيجزبورغ في مملكة فورتمبرغ . أتم دراسته الثانوية وعمل في التجارة . ثم دخل في منظمة سرية تنادي بالنظام الجمهوري . وتنقّل بين شتوتجارت وبلجيكا وباريس خلال عامي ١٨٢٠ و ١٨٢١ . وفي باريس تعرف على عدد من اللاجئين السياسيين الالمان المتحمسين للنظام الجمهوري . وصادق تاجر كتب اسمه فرانـــك Frank كان قد أصدر في باريس صحيفة "Le Siècle" . وعاد فرانك الى فورتمبرغ في خريف ١٨٢١ . وعزم هارديج على دراسة الطب في جامعـــة غوتنجن فلم يوفق ، اذ كانت السياسة والنضال من اجل الحرية اعز على قلبه مـــن الدراسة . فشارك في محاولة العصيان الفاشلة في فورتمبرغ عام ١٨٣٢ ، وحكم عليـــه بالسجن لمدة أربعة عشر عاما . ثم استانف الحكم عليه لدى محكمة الاستئنـــاف في شتوتجارت، فخففت الحكم عليه بالسجن الى تسعة اعوام . درس هارديج اثناء وجوده في السجن الكتاب المقدس ، فاثر ذلك على سلوكه وفكره . ولما افرج عنه عام ١٨٤٠ لـــم يسمح له بالاقامة في فورتمبرغ، فرحل إلى سويسرا حيث بقي حتى عام ١٨٤٤ حينما سمح له بالعودة الى وطنه بمناسبة الاحتفال باليوبيل الفضي لاعتلاء الملـــك فيلهلـــم Wilhelm عرش فورتمبرغ .

Brugger, H : Op. cit, pp. 5-10.

١٥) Brugger, H. : Op. cit, p. 35.

١٦) المصدر نفسه ، ص ٣٥ — ٣٦ .

Carmel, Alwx, The German settlers., p. 443.

Geschichte . . , p. 134

١٧) Carmel, Alex, Op. cit, p. 443, Geschichte . . . p. 134.

١٨) Brugger, H. Op. cit, p. 37.

Carmel, Alex : Geschichte Haifas . . . p. 81.

١٩) Brugger, H. : Op. cit, p. 38.

٢٠) المصدر نفسه ، ص ٣٩ .

٢١) المصدر نفسه ، ص ٤١ — ٤٢ .

٢٢) المصدر نفسه ، ص ٤٥ — ٤٧ .
Carmel, A. : Geschichte Haifas . . . p. 82.

٢٣) Eliav, M. : German Interests and the Jewish Community in the 19th Century Palestine, in"Studies on Palestine during the Ottoman Period, Jerusalem, 1975" p. 431.

٢٤) Brugger, H. : Op. cit, p. 49.

٢٥) انظر تفاصيل عملية الشراء في مجلة Sueddeutsche Warte, 22.1.1869

٢٦) Brugger, H. : Op. cit, p. 51.

٢٧) Carmel, A. : Geschichte Haifas . . . p. 83.

٢٨) Grothe, Hugo : Bevoelkerung und Wirtschaftliche Lage der Schwaebischen Ansiedlungen in Palaestina, Palaestina 1.1902,p. 233.
Carmel, A. : Geschichte Haifas . . . p. 84.

٢٩) Carmel, A. : The German Settlers . . . p. 445.

٣٠) Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Politische Abteilung V,II, Po. 25, Bd. I.

٣١) Carmel, A. : Geschichte Haifas . . . pp. 87-9.

٣٢) Rosen, F. : Oriental Memoirs of a German Diplomatist, Methuen and Co., London, 1930, pp. 36-7.

٣٣) Brugger, H. : Op. cit, p. 52.

٣٤) المصدر نفسه ، ص ٥٣ — ٥٤ .

٣٥) Brugger, H. : Op. cit, p. 61.

٣٦) Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Politische Abt. VII, Po 25, Bd. I.

٣٧) Brugger, H. : Op. cit., pp. 62-3.

٣٨) Answaertiges Amt, Politische Archiv, Politische Abt. VII, Po 25, Palaestina, Bd. I.

٣٩)

٤٠) Brugger, H. : Op. cit, p. 95.

٤١) المصدر نفسه ، ص ٩٤ .

٤٢) Answaertiges Amt, Politische Archiv, Politische Abt. VII, Po. 25, Palaestina

تقرير القنصل الالماني في القدس فيليب فورست Ph. Wurst الى سكرتير لجنة التقسيم الفنية الفلسطينية في ١٢ تموز ١٩٢٨ .

٤٣) Geschichte . . . pp. 136 - 7

٤٤) انشئت جمعية بيت المقدس في برلين في ٢/١٢/١٨٥٢ من اجل دعم المشروعات التبشيرية الانجيلية الالمانية في فلسطين Geschichte . . . , pp. 51-62.

٤٥) Geschichte . . . p. 137, Brugger, H. : Op. cit, p. 66.

٤٦) Seidel, H. J. : Der Britische Mandatstaat Palaestina im Rahmen der Weltwirtschaft, Walter de Gruyter, Berlin, 1926, pp. 81-2.

٤٧) Brugger, H. : Op. cit, pp. 85-9.

٤٨) المصدر نفسه ، ص ٨٨ .

٤٩) Carmel, A. : The Political Significance of German Settlement in Palestine (1868-1918), in "Germany and the Middle East 1835-1939 Tel-Aviv University, Tel-Aviv, 1975, pp. 48-9.

٥٠) المصدر نفسه ، ص ٥٠ .

٥١) Haupistaatarchiv Stuttgart, Koeniglich Auswaertiges Amt.

٥٢) Sueddeutsche Warte, 1.7. 1858, p. 2., 22.7. 1858, p. 114, 16.9. 1858, pp. 145-6.

Lange, Friedrich : Geschichte des Tempels, Stuttgart, 1899, p. 167.

٥٣) Hauptstaatarchiv. Akten des Kabinets IV, Nr. 1585.

٥٤) Sueddeutsche Warte, 12.2. 1874, pp. 25-6, 26.3.1874, pp. 70-71.

٥٥) Brugger, H. : Op. cit, p. 48.

٥٦) المصدر نفسه ، ص ٥٨ — ٦٠ .

٥٧) Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Tuerkei 126, Muenchhausen an Bismarck, Jerusalem, den 30 Mai 1897.

٥٨) المصدر نفسه .

٥٩) Carmel, A. : The Political Significance . . . , p. 54.

٦٠) Brugger, H. : Op. cit, pp. 84-5.

٦١) Carmel, A. : The Political Significance . . . p. 55.

٦٢) المصدر نفسه ، ص ٥٦ .

٦٣) Sueddeutsche Warte Vom 18 Maerz 1882, p. 4.

٦٤) Carmel, A. : The Political Significance . . . p. 57.

٦٥) Brugger, H. Op. cit, p. 90.

٦٦) Carmel, A. : The Political Significance, . . . p. 59.

٦٧) Holborn, H. : Deutschland und die Tuerkei (1878-1890), Berlin, 1926, p. 106.

٦٨) Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Tuerkei 189, Vol. I.

٦٩) Brugger, H. : Op. cit, P. 92.

٧٠) المصدر نفسه ، ص ٩٢ .

٧١) المصدر نفسه ، ص ٩٣ .

٧٢) Carmel, A. : The Political Significance . . . p. 63.

٧٣) Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Preussen 4 (geheim), Vol. 9, Schlaezer an Hohenlohe, Istambul, 15.11. 1898

نص تقرير القائم بالاعمال الالماني في اسطنبول .

٧٤) Carmel, A. : The Political Significance . . . p. 63.

٧٥) المصدر نفسه ، ص ٦٥ — ٦٦ .

٧٦) المصدر نفسه ، ص ٦٧ — ٦٩ .

٧٧) Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Tuerkei 177, Vol.10.

٧٨) Hurewitz, J. : Diplomacy in the Near and Middle East, Princeton, Vol. 1, pp. 267-276.

Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Tuerkei 175 (e), Abteilung I A, Bd. 2. ٧٩)

Friedman, I. : Germany, Turkey and Zionism (1897-1918), Oxford, At the Clarendon Press, 1977, pp. 390-391. ٨٠)

Sueddeutsche Wrate Vom 23.9. 1858, p.125, 14.10.1858, p. 161. ٨١)

٨٢) جريدة الاهرام ، القاهرة ، عدد ٢٧ حزيران ١٨٩٨ .

Sueddeutsche Warte Vom 27.4.1914, pp. 133-4. ٨٣)

Deutsche Kolonial Zeitung, Berlin, 1884, pp. 83-4. ٨٤)

Sueddeutsche Warte, 27,4.1911, pp. 131-2. ٨٥)

Carmel, A. : The German Settlers . . . p. 448. ٨٦)

Sueddeutsche Warte, 30.00. 1884, pp. 1-2. ٨٧)

Auswaertiges Amt, Politische Archiv. Bd. 25 a Nr, 135. ٨٨)

Carmel, A. : The German Settlers . . . p.p. 449-50. ٨٩)

٩٠) المصدر نفسه ، ص ٤٥١ — ٤٥٤ .

٩١) المصدر نفسه ، ص ٤٥٥ .

٩٢) هواة صهيون حركة سياسية يهودية استهدفت تنظيم هجرة اليهود من اقطار اوروبا الشرقية الى فلسطين . وقامت بانشاء المستعمرات اليهودية الاولى في البلاد بين عامي ١٨٨١ و ١٩٠٤ .

حول هذه الحركة انظر :

جريس ، صبري . تاريخ الصهيونية ، ج ١ ، (١٨٦١ — ١٩١٧) ، مركز الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ١٩٧٧ ، ص ١٠١ — ١٤٢ .

Carmel, A. : The German Settlers . . . p.p. 455-8 ٩٣)

٩٤) المصدر نفسه ، ص ٤٦٠ — ٤٦٢ .

Die Welt, 13.10. 1911, pp. 1083-4 ٩٥)

Carmel, A. : The German Settlers . . . p. 464 ٩٦)

كتاب "نهاية السؤل والأمنية"

للدكتور أحمد سعيدان

(عضو المجمع)

١ ـ تعريف

في المكتبة البريطانية في لندن* مخطوطة تحمل الرقم OR3631 ، وتضم مجموعة من الرسائل العربية في الفروسية ، اكبرها رسالة بحوالي ٥١٠ صفحات ، في كل صفحة ٢١ سطرا ، في كل سطر حوالي ١٢ كلمة ، وقد كتب على صفحة غلافها بخط جميل وتشكيل هندسي :

(كتاب نهاية السؤل والأمنية في تعليم اعمال الفروسية ، تصنيف بكتوت الرماح ، خازندار الملك الظاهر ، رحمهما الله تعالى ، آمين).

فمن هو بكتوت الرماح هذا ؟

كُتِب على غلاف المخطوطة كاتب مستعجل ، بخط انكليزي غير واضح ، يزعم ان حاجي خليفة ينسب الكتاب الى ابرٰهيم ابن ابي الحسن الشهير بابن رافع الدمشقي المتوفى سنة ٧٥٨ هـ . رجعت الى كشف الظنون لحاجي خليفة فوجدته يذكر الكتاب،ولكنه ينسبه الى محمد بن عيسى ابن اسماعيل بن خسروشاه الاقسرائي الحنفي الرومي،المتوفى في حدود

* بترخيص من ادارة المكتبة البريطانية في لندن .

٧٥٠ هـ . ورجعت الى موسوعة بروكلمان فوجدتها تذكر بدر الدين بكتوت الرماح الخازنداري المالكي الظاهري المتوفى سنة ٧١١ / ١٣١١ ، ولكنها تنسب اليه كتابا غير نهاية السؤل ؛ وتذكر نهاية السؤل والأمنية في تعليم اعمال الفروسية،ولكنها تنسبه الى محمد بن عيسى بن اسماعيل الحنفي المعروف بنجم الدين أيوب .

ورجعت الى كتاب مارتن (مقدمة الى تاريخ العلم) فوجدته ينسب الكتاب الى الحسن الرماح،المسمى نجم الدين الاحدب ، ويذكر انه ظهر في سوريا حوالي ١٢٩٤ / ٥ (= ٦٩٤ هـ) وتوفي في الثلاثينات من عمره . ومارتن ينسب الى هذا الرماح الأحدب ، بالاضافة الى كتاب نهاية السؤل والأمنية ، كتابا في الفروسية والمناصب الحربية،ويسجل له انه عني بالبحث في طرق تنقية البارود .

في غمرة هذا الاضطراب عدت الى نص الكتاب عساه يكشف لي عن هوية الكاتب ؛ ومن النص تبين لي ما يلي :

ليس المؤلف هو نجم الدين الأحدب،كما يظن حاجي خليفة وبروكلمان ومارتن ؛ ففي النص صفحات ينقلها المؤلف عن كتاب لنجم الدين يسميه كتاب البنود ، ويذكر انه اخذها عن نسخة لناصر الدين محمد الرماح ، وان ناصر الدين هذا قد عارض نسخته بنسخة لعز الدين بن عبد العزيز الرماح بقلعة دمشق . ثم يذكر المؤلف ما يجد من فروق بين نصوص هذه النسخة ونصوص نسخ أخرى لكتاب نجم الدين ، ويضيف بنودا من عنده تكمل ما يذكره نجم الدين الى المئة .

ويلي كتاب نهاية السؤل في مجموعة المكتبة البريطانية كشف يسرد فيه المؤلف ، بدر الدين بكتوت الرماح الخازندار الظاهري ، ما الف من كتب ورسائل . ويلي ذلك رسالة قصيرة في علم

الفروسية وعلاج الخيل . « تصنيف بدر الدين بكتوت الرمـــاح ؛ وكان ابتداء تأليفه في حصار عكا في ايام مولانا السلطان الملك الاشرف ، ولد مولانا السلطان الملك المنصور . . . قلاوون ، وذلك في شهور سنة ٦٨٩ » .

وفي الحالين يتباهى المؤلف بفروسيته ومهارته في ركوب الخيـــل، والمبارزة بالسيف والرمح .

فالى ان نعثر على ادلّة جديدة ارى ان نعتبر :

أولا،ان كتاب نهاية السؤل والامنية في تعليم اعمال الفروسية ألّفــه بدر الدين بكتوت الرماح ، لا نجم الدين ايوب الاحدب .

ثانيا أن بدر الدين هذا خدم الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون وابنـه الاشرف ؛ وقد يكون توفي سنة ٧١١،ولكن لا يُعقل انه كان عندئذ فــي الثلاثين من عمره ، ذلك انه كان سنة ٦٨٩ في سنّ تُمكّنه من وضع كتاب في الفروسية وعلاج الخيل .

ثالثا أن محمد بن عيسى بن اسماعيل،المعروف بنجم الدين ايـــوب الأحدب،لا بد انه عاش قبل بكتوت بأكثر من نصف قرن ، وربما باكثر مــن ذلك بكثير .

٢ ـ النسخة والناسخ

ليس هناك ذكر للناسخ ولا لتاريخ النسخ ؛ ولكن الخط ، في صفحات المجموعة كلها ، واحد ، وهو على نمط خطوط القرنين السابع والثامـن الهجريين ، سواء في ترتيب النص وفي الارقام . فقد لا تكون النسخة متأخرة كثيرا عن تاريخ التأليف . ولكنّ ثمّة دلائل على انها منقولة عن نسخـــة سابقة . والخط واضح والاشكال مرسومة باتقان بالغ . الا ان الناسـخ ، على طريقة عصره ، لا يراعي دقة التنقيط ، ويندر ان يضع الهمزة ، وهو لا

برقم الصفحات ولا الأوراق .

ويبدو أن الناسخ كثير السهو ؛ ولعل اشنع اخطائه في موضع يجري فيه الكلام عن « الرمي بلا فوق » ، أي بلا تصويب ؛ فاذا بالكلام ينتقل فجأة ، في وسط السطر والجملة ، الى تعليم فنون الرماية للمبتدىء . ونستطيع أن نقدر ان الناسخ أراد هنا ان يقلب ورقة من الاصل الذي ينقل عنه فقلب ورقتين، ومضى ينسخ بلا تفكير .

ومثل هذا النقص في النص نجده في موضعين آخرين في الميكروفلم الذي حصلنا عليه من المكتبة البريطانية ، ولكننا فيهما لا نستطيع أن نجزم على من يقع اللوم .

أول هذين الموضعين هو الورقة الأولى من كتاب نهاية السؤل ، فهي مفقودة . ولكننا نستطيع ان نقدر ان المؤلف يبداها بحمد الله والصلاة على نبيه الكريم ، ثم يذكر سبب وضعه لكتابه ولمن وضعه ؛ ولعله هنا ، كشأنه في مخطوطتيه الاخريين ، يتباهى بفروسيته ومهارته في ركوب الخيل، والمبارزة بشتى أدوات الحرب .

والموضع الثاني الذي ينقطع فيه النص ياتي في اواسط المخطوطة ، حيث يمضي الكلام عما ينبغي على الآمر أن يصنع عند عقد الجيش وعرض العساكر ، فاذا به ينتقل فجأة الى جدول اختيارات ، اي أيام الاسبوع وما يصلح لها وتصلح له من اعمال . وتاتي هذه النقلة مع انتقالنا من ورقة الى ورقة،مما يبعث على الترجيح بأن ورقة على الأقل من المخطوط قد تخطاها التصوير ، او سقطت من الاصل .

٣ ــ المحتوى

يشتمل الكتاب على مقدمة واثني عشر فصلا يسميها المؤلف تعاليم ،

وهذه التعاليم متباينة في الطول بيملا أكبرها ٦٦ ورقة في المخطوط،في حـــين ان اثنين منها لا يتجاوز كل منهما ورقة واحدة . وقد لا يصعب تبرير هــذا التفاوت بين الفصول . الا أن مما يلاحظ على المؤلف ان تقسيمه لموضوعاته لا يجري على نسق مميز ؛ فهو قد يقسم الموضوع الى أبواب ، والباب الى فصول ، ثم يقسم الفصل ايضا الى ابــواب .

الا أن المؤلـــــف ، رغــم هذه الهنـــات الشكليـــة ، قــــد نجــح في تحديــد هدف واضح وفي تحقيـــق هــذا الهــدف : انــــه محارب خاض غمار حرب صليبية واكتوى بنارها ، فهو يكتب للحرب وفــي الحرب . ولذا فهو يستهدف الحض على الجهاد في سبيل الله،ثم يمضي في تعليم المجاهد كل ما يفيده عن آلة الحرب وفنونه .

اما الحض على الجهاد في سبيل الله فقد وفّاه بمقدمة عرض بها كل ما ورد في القرآن الكريم وكتب الحديث الشريف من آيات وأحاديث تتعلـــق بالجهاد ، ثم اتبع ذلك بما رواه الرواة من قصص وابيات شعرية عـــن المجاهدين والشهداء .

وقد لا تكون الأبيات الشعرية التي يوردها خير ما في الأدب العربي، وقد يكون كل ما فيها من أخطاء من صنع الناسخ،الا أننا قد يتعذر أن نجــد كتابا واحدا يضم بين دفتيه كل هذا القدر من الاحاديث والروايات عـــن الجهاد والمجاهدين . ان مقدمته تملأ ٢٤ ورقة في المخطوط ، ثم هو يضيف جديدا عن الجهاد عند الكلام عن الخيل ورباطها في سبيل الله ، ويضيـــف جديدا ايضا كلما وجد الى ذلك سبيلا،حتى يصل الى التعليم الحادي عشر، فيجمل فيه الاحكام الشرعية المتعلقة بالجهاد واسرى الحرب ، مَن يُسْلِـــم منهم ومن يبقى على دينه . ان ناحية التوعية في الكتاب وافية تكاد تدفــــع القارىء للجهاد دفعا .

وأما تعليم الفروسية وأعمالها، الذي هو الموضوع الرئيسي،فتتضح أبعاده من البيان التالي عن تعاليم الكتاب :

التعليم الأول عن رماية النشاب وما يتعلق بالقوس والوتر، وكيفية الرمي ، وكيف تختلف القوس باختلاف تركيب الرامي نفسه ، وما قد يلحق به الرمي من ضرر بدني، وكيف يعالج الضرر، وكيف يتوقاه .

وفي هذا يورد المؤلف مذاهب ينسبها الى أصحابها،ومن الأسماء التي يوردها : طاهر البلخي، ومحمد بن الحسن الهروي، وأبو هاشم الماوردي، وأبو موسى السرخسي . . . وهو يقتبس نصا من شخص يسميه محمد بن بركات، المعروف بابن القاضي الأصلاطي، ونصا آخر من سعيد بن خطيف . ويملأ هذا التعليمُ في المخطوطة حوالي ١٤ ورقة .

التعليم الثاني هو أطول فصول الكتاب، ويملأ ٦٦ ورقة ، ويشمل الحديث عن الرماح والخيل وركوبها،يبدأ بمقدمة دينية تتعلق بالرمح واستعماله، ثم يذكر ما يجب على المعلم في تعليمه وما يجب على المتعلم ؛ وهو يرى أن عليه أن يتعلم استعمال الرمح كما وصفه الشيخ نجم الدين أيوب المعروف بالأحدب، وذلك في كتابه عن البنود ، والبنود، على ما يبدو، أشبه برقصات حربية يجريها الفارس والرمح في يده ؛ والمؤلف يصف ٧٣ بندا ، نقلا عن الشيخ نجم الدين ، ثم يعيد وصف هذه البنود ثلاث مرات أخرى ، نقلا عن نسخ أخرى من كتاب الشيخ نجم الدين . ولكن وصفه في هذه الحالات كلها هو عندي أشبه بالألغاز ؛ وقد كنت أعزو السبب في ذلك الى أن الكاتب انما يصف فنونا مضى زمانها ، غير أني وجدته هو نفسه يذكر أن في هذه البنود كلمات زائدة وكلمات ليس لها معنى .

ثم هو لا يكتفي بذلك، وانما يذكر بنودا أخرى يقول انه وجدها للشيخ نجم الدين، ويكملها ببنود من عنده حتى يصل مجموعها الى المئة .

وهذا مثل :

« البند الاول ، وهو بند الحرب ، تبطيل يمين وتبطيل شمال، ونقل استواء، وتسريح مقور، وقربصة، ونشل، وطعن، ودخول وخروج، ونزول شمال، وضرب زندية » .

بعد صفحات على هذا المنوال ينتقل المؤلف الى التكلم عن الركوب، ويخصص لذلك مقدمة وثلاثين باباً يشتمل آخرها على ١٦ فصلا . واليك امثلة على هذه الابواب ، بنص المؤلف نفسه :

« باب في فضل الخيل واقسامها ورباطها في سبيل الله تعالى »

« فصل في المسابقة بين الخيل على عرض جائز » اي حيث يجوز تغريم الخاسر

« فصل في اختلافات الدواب »

« باب في ابتداء تعليم الرمح والفرس التي تصلح لذلك »

« باب في الركوب وانواعه »

« باب في ابتداء الخروج الى الميدان »

« باب في ذكر الميادين » ، (نقلا عن اهل العلم ، ومنهم الشيخ نجم الدين . يذكر خمسة ميادين مختلفة ويميز كلا منها باسم خاص ويفرد له باباً خاصاً، ويبدو انها تختلف بعضها عن بعض باختلاف خطوط سير الفارس في حلبة الجري) .

ومن ذلك أيضا باب في الكر والفر والدوران ، باب في المواجهة ، باب في المطاردة ، باب في الضرب بالمقرعة ، باب في العمل بالرمحين ، باب في العمل بالسيف والرمح .

فصل في رمي الفارس ، فصل اذا تبعك فارسان ، فصل اذا تقابلت

مع خصمك ... الخ

التعليم الثالث : في العمل بالسيف وما ورد فيه ــ ٣١ ورقة

بعد وصف العاب مختلفة بالسيف ذات أسماء متميزة، يقدم المؤلف فصولا في ما يحتاج اليه العامل بالسيف ، وفي وزن السيف وجهازه ، وفي العمل بالسيف والدرقة والترس .

ومن ذلك عمل بالسيف يذكر أنه من تاليف منصور، المعروف بالمصطنع؛ والعمل بالسيف على الفرس، وفصل بهز السيف والضرب به . ثم يورد بابا في السيوف وانواعها وسقاياتها ، وهو رسالة ابي يوسف يعقوب بن اسحق الكندي للمعتصم بالله .

التعليم الرابع : في الترس وما يرد حوله من مسائل .

التعليم الخامس : في العمل بالعمود ؛ والعمود على ما يبدو قضيب معدني يستعمل في الهجوم والضرب .

التعليم السادس : في صناعة الجنود والفرسان . خمسة ابواب في سبع ورقات :

الباب الأول في منافع السرج واللجام .
الباب الثاني في الخفة والوثوب على الفرس والرمي عليها .
الباب الثالث في تعليم الفروسية .
الباب الرابع في الصيد واحوالها .
الباب الخامس في طلب السباع والحذر منها على اختلافها .

التعليم السابع : في الأسلحة ومسائل تتعلق بها : سبعة ابواب في ٣٢ ورقة :

الباب الاول في سلاح الرسول صلى الله عليه وسلم .

الباب الثاني مقسم الى فصول منها لبس الأسلحة ، وأين يضعها الرجل من نفسه ، وماذا ينبغي أن يكون مع كل منها ، وما ينبغي من حذر وتثبت ، وقطع الأنهار والكباري بالأسلحة .

الباب الثالث في رجاحة الفارس على اقرانه .

الباب الرابع في لقاء الفارس الفارس .

الباب الخامس في لقاء الفارس الراجل .

الباب السادس في لقاء الراجل الفارس

الباب السابع في لقاء الراجل الراجل .

التعليم الثامن : في عقد الجيوش وجمعها وآلاتها وأمرائها وقوادها واجنادها، ١١ ورقة، يبحث في واجبات الرئيس والمرؤوس كل نحو الآخر ؛ ومن ذلك تحديد أوصاف مميزة للجنود وخيولها، وطرق صف الجيش وتعبئته، ووضع الكمين .

التعليم التاسع: في تعبئة الصفوف للقتال، وفي الانواع المختلفة للصفوف، وينتهي بباب للمبارزة ، اللعب منها والجد ، مع قصص عن مبارزة الصحابة عليهم السلام — ٢٠ ورقة .

التعليم العاشر : في المكايد الحربية، يتكلم في أربع ورقات عن ثماني مكايد، منها تسليط النيران، واستعمال النفط في الهدم بما يشبه القنابل والقذائف، ويتكلم ايضا عن اطلاق أنواع من الدخان يتسرب من الثقوب فيقتل من يشمه .

التعليم الحادي عشر : في قسمة الغنائم والاحكام الشرعية المتعلقة بالجهاد . في ٣٥ ورقة، يبحث في أمور مثل حكم الغنائم والانفال وقسمتها، والأمان،

والموادعة،والمصالحة،واحكام الأسير ، والمستأمن ما يُصْدَق فيه ومـــا لا يصدق ، والمعاقدة،والمعاملة مع اهل الحرب،واحكام المرتدين من الخوارج والبغاة .

التعليم الثاني عشر: في امور يحتاج اليها المحارب وغـــيره ، في ثماني ورقات،يبحث في وجوه الفال،وعلامات تظهر في اذناب الخيل ، وفي نبـــات النيروز ، والأصوات .

وفيه باب في تدبير المسافرين،وآداب الراحلين،وباب في معالجـــة انجروح والذرور والمراهم .

٤ ـ كلمـــة تقييم :

بدات اطالع كتاب نهاية السؤل وانا في القدس اشبه بمرابط أعزل يواجه العدو بالايمان بحقه والثقة بعدالة ربه ؛ فتملكني شعور غامر يربطني بالكتاب ومؤلفه،ويدفعني الى تحقيق الكتاب ونشره،ايمانا بأن حاجتنا للجهاد اليوم كحاجتنا اليه بالأمس .

ولكن اذ مضيت في دراسته تزايدت قناعتي بأنه يتكلم عن فنـــون ومهارات مضى زمانها .

وان آلـــة الحـــرب اليوم تحـتـــاج الى علـم ودربـــــــة وامكانيات أكثر مما تحتاج الى فروسية . حتى الجانب الرياضي ، جانب المباريات من فروسية الأمس،ذهب من بيننا نسيا منسيا في غضون أعصار من الاستعباد .

فهل أُنَحّي الكتاب جانبا ؟

ان فيه ما يستحق النشر، لأسباب تهم دارس تاريخ العلم؛فرسالة

الكندي للمعتصم بالله عن سقاية السيوف ، وما يتضمنه الكتاب من صفحات عن هدم الحصون بما يشبه قنابل اليوم وقذائفه،ومن كلام عن حـــــرب الغازات وحرب السموم ، كل هذا قد يتضمن كشوفا جديدة في تاريـــــخ الحروب . ولكنّ في الكتاب أيضا صفحات كثيرة لا أستطيع فهمها،لأنها تصف مهارات ذهبت من بيننا طيّ النسيان ، بكلمات كانت مألوفة في عصرها لا تحتاج الى تبيان ؛ هذا بالاضافة الى مواطن محدودة تَعَمّد المؤلف تعمية الكلام فيها لانها تقع في اطار الأسرار الحربية .

لهذا رايت مُكْرَهاً ان اكتفي بالتعريف بالكتاب، عسى أن يجد غيري الدافع القوي لتحقيقه . اما انا فساختزنه عندي كما يُخْتَزَن الاثر الذي لا يقدر بثمن .

ويبقى بعد ذلك صفحات احببت ان اشرك بالاطلاع عليها من تهمهم العربية من المجمعيين وامثالهم،ومن يهمهم الاطلاع على نواحي مجهولة من الحياة الادارية في الاسلام .

ملاحظـــــة : مع مراعاةٍ لحرمة النصوص ، أثْبَتّ الهمزة وقسمت النص الى فقرات ؛ وحيث اضطررت الى اضافة كلمة وضعتها بين قوسين، وحيث تَعذّر عليّ قراءة كلمة عن يقين جعلتُ مكانها ثلاث نقط متتابعة .

الباب الأول من التعليم الثامن
فيمـــا يجـب على الملـــك

ان ينظر في أمر الجيش،وان يولي أمرهم قائدا يكون أميرا مقدما جلدا بصيرا ذا تجربة ، فيقلده عرض الجيش . فليكن هذا الأمير تام النهضـــة ، كافي الجلادة ، سريع الاقدام ، قليل المحاباة ، غير مهمل لقليل يجب النظر فيه ؛ فالقليل من الاهمال في حق المعارض فساد لجمهور الجيش ، لانـــه

متى ساهلهم في شيء من العدد ، وربما اعاد بعض الأمراء اصحابه مرتين او ثلاثة ، وربما حاباهم بالضعيف وبالفرس الاعجف ، وغير ذلك مما يجب الاهتمام به ، فسبيل الأمير على هذا يكون غير مساهل في شيء منه وان صغر . وينبغي ان يكون قائد الجيش كما قال بزر جمهر : —

لا يصلح لقود الجيش وتدبير الأمور الا رجل تكاملت فيه خلال اربع ، وثلاث، واثنتان، وواحدة ؛ اما الأربع فحزم ، وحلم يحجب عن التهور في المشكلات الا مع امكان فرجها ، وشجاعة لا تقضها الملمات بتواتر جوائحها، وجود يهوّن جلائل الأموال عند سؤالها .

والثلاث سرعة مكافأة الاحسان الى صالح الأعمال ، وثقل الوطأة على اهل الزيغ والعدوان ، والاستعداد للحوادث اذ لم يثق بأمان الزمان .

والاثنتان ، اسقاط الحاجب عن الرعية ، والحكم بين القوي والضعيف بالسوية .

والواحدة : التيقظ في الأمور مع ترك تأخير عمل اليوم الى غد .
فاذا كانت فيه هذه الخصال،حفظ الجيش حفظا تاما .
وليكن معه كاتب شهم جلد عارف بالحليّ والثياب .

ويحتاج الأمير الى عرض الجند في ثلاثة مواضع : احدها عند ابتداء عقد الجيش ، والثاني عند ابتداء اللقاء للحرب ؛ وهذا عرض يختص فيه الترتيب ؛ والثالث عرض عند تمام الفتح ، ويتبعه ايضا قسمة الغنيمة .

ويحتاج ايضا الى الفراسة في الجند .

ونحن ذاكرون فصولا من ذلك تكون معونة لقائد الجيش وكاتبه .

الباب الثاني من التعليم الثامن

فيما ظهرت به اللغة واتصل به العرف ، واهمل من ذلك غريب اللغة فيه ؛ ونحن ذاكرون على رسومهم ذكرا يشتمل على استبقاء في اقتصار .

فمن ذلك الصفات الدالة على الاسنان :

فيقال في حق غير البالغ **صبي** ، فان كان قد راهق قيل **أمرد** ، فان علا موضع شاربه شعرات سود قيل : **حين طرّ شاربه** ، بفتح الراء ، ويقال : **بقل شاربه** ، والاول أجود، فان ظهر مثل ذلك في عارضيه وذقنه قيل : **حين بقَل وجهه** ، بتخفيف القاف . فان اسودّت لحيته بالاتصال قيل : **حين اتصلت لحيته** . فان تم شعر وجهه قيل : **شاب** .

فان ظهرت في لحيته شعرات بيض يسيرة،قيل : **حين وَخطه الشيب**.
فان زاد حتى يستوي البياض والسواد ، قيل : **مجتمع** ، وقيل:**كهل**.
فان زاد البياض على السواد ، قيل : **اشيب**

فان استكمل البياض قيل **شيخ** . وليس يكتب في ديوان الجيوش شيخ لقلة ذلك فيهم .

فصل في اللحى :

فان كان شعر لحيته موفرا من جميع الجهات قيل : **ألحى** . فان كانت موفرة الطول قيل : **طويل اللحية** ، وبعضهم يكتفي بقوله : **الحى**.وان كانت موفرة الذقن ، خفيفة في العارضين قيل : **خفيف العارضين** . فان قَلّ الشعر في الذقن والعارضين قيل : **كوسج** . فان قلّ شعره حتى يكون متفرقا جدا ، قيل : **سناط** . فان عري وجهه عن الشعر قيل : **ثط و أثط** . وان كان شعره يعلوه **شقرة** ، قيل : **اشقر** . فان زاد على ذلك حتى احمرّ ،قيل: **أصهب** . فان كان سدل الشعر قيل: **سبط الشعر** . فان كان بخلاف ذلك ،

قيل : **جعد الشعر** . حين يكون متفرقا جدا .

ثم ينظر في اللون : فان كان ابيض فان العرب يكتبونـــــه : **ابيض :** والمتأخرين : **تعلوه سمرة ؛** واتفق الجمهور انهم يكتبونه : **اسمر** . وكذلك لا يلقون (بالا) الى اصفر اللون ، لأن هذا مما يدخله لبس بزواله . . . ، الا ان يكون اصليا ، فلهاسميخصه :

فان كان الرجل ابيض يعلوه حمرة قالوا :**اسمر مشرب بحمرة** .

فان كان عليه سمرة مشرب بحمرة ، فان كان عليه سمرة خفيفة **قيل:** **أدم** ، فان زادت قليلا قيل : **أدم ظاهر الادمة** ، فان زادت كثيرا **قيـــــل :** **اصفر** ، فان اظلم لونه : قيل : **اسود** .

ثم ينظر في الشعر المتصل من الراس بالجبهة : فان تحاصّ على اعلى جبهته قيل : **انزع**،فان كان قليلا قيل : **خفي** ، وان كان كثيرا قيل : **بـــيِّن** . فان كان بذلك المكان اثر ، قيل : **وبنزعته اثر**،ويذكر مكانه ، ان كان بجانب اليمين او اليســار . فان كان اكثر من نزع . . . قيل : **اجلح** . وكان علي ابن ابي طالب ، رضي الله عنه ، كذلك . فان استوعب مقدار الراس **قيـــــل :** **اصلع** .

ثم ينظر (الى) الجبهة : فان كانت واسـعة ، قيل : **واسع الجبهـــة ،** وان كانت بخلاف ذلك ، قيل : **ضيِّق الجبهة** . فان (كان) جلدها متكسـرا ، قيل : **بها غضون** ، فان كان بها اثر ، يذكر صفته من جانب كذا وكذا . فان اتصل بشعره ، قيل ، **متصل بقصاص شعره** . فان اتصل بحاجبه الايمن او الأيسر ، ذكره وقيل : **مقترن بحاجبه** . وان كان بها خـــــال ، قيـــل : **بها خال،** ، **خفيّ** او **بيِّن** ، من جهة كذا .

ثم ينظر في حاجبيه : فان اتصلا قيل : **مقرون الحواجب،بيِّن** او **خفيّ**.

فان كان بينهما خط من انثناء . قيل : **مقرون بينهما خط او خطان** ، ان كان مستطيلا . فان كان معترضا قيل **بينهما انثناء** . وان كان بينهما خال ذكره . ثم يذكر كثرة شعرهما ، ان كان ، او قِلّته، فيقول **مقرون الحاجبين**، **غليظهما**، او **دقيقهما** . فان انفصل ما بينهما من الشعر ، قيل : **ابلج** ويقال : **ابلد وافرق** . فان رقّ الحاجب في لطافة ، قيل : **أزج** . في اللغة : مُزجَّج . فان كان شعره كثيفا زايدا فهو **اوطف** . فان سبغ وانعطف فهو : **اقوس** ، فان رق وخف في نبته فهو : **أنمص** ، فان غلظ من قدام ودق من اخر فهو **ادمص** ، فان ذهب شعره كله فهو **امرط** .

ثم ينظر في الانف : فان طال قيل : **طويل الانف** . فان علا، قيل : **اقنى الانف**، وبعكسه : **قصيره** . فان كان علوه من قبل آخره فهو **اشمّ** ، فان غلظ قيل **غليظه** ، وبعكسه **دقيقه** . فان اقبل طرف أنفه على فمه ، قيل : **اورد الارنبة** . فان انبسط منخراه قيل : **منتشر المنخرين** ، فان عرض وسطه قيل : **افطس** . فان انخفض آخره قيل : **اخنس** . فان مال الانف الى احد الجانبين قيل : **اورد** ، فان كان في طرفه قطع فهو **اجدع** ، فان كان في احد الناشرين فهو **اخرم** ، فان كان صغيرا مليحا قيل : **أدلف** . . . فان كان قصيرا قبيحا قيل : **ادلف اكزم** فان اشتدت فطسته قيل : **افطح** . فان زاد على ذلك حتى صار كأنف البقرة قيل : **اختم** ، فان كان مرتفعا في ملاحة فهو **اشم** . فان اشتد اقبال طرفه على فيه ، الشفة ، فهو **احجن**. فان مال ذلك منه الى أحد الجانبين فهو **افغم** . فان ارتفعت أرنبته نحو القصبة فهو **اقنى** .

ثم ينظر في الشفة فان كانتا غليظتين قلت : **غليظ الشفتين** ، وبالعكس دقيقتهما، فان كانت الشفة العليا منقلبة قيل لها : **قالصة** . وان كانت قصيرة قيل : **منشمرة** ، فان انقلبت السفلى قيل : **هدلاء** ، ويقال : **دالعة** . فان

كان في العليا شق قيل : **أعلم** . فان كان في السفلى قيل : **افلج** . فان كان في وسط العليا نثرة فهي **طرماء** ، فان كانت النثرة في السفلى قيل : **ترفاء** .

ثم ينظر الى بشرة الوجه فان كان مضطمس الخدين قيل : **مضمسوم الخدين** . فان كان بأعلاهما نتوء قيل : **ناتيء الوجنتين** . فان كان بوجهه اثر جدري قيل : **مجدور ، بيّن او خفيّ** . فان كان في مواضع متفرقة قيل : بوجهه **نبذ جدري** . ثم يذكر خالا ان كان به ، وصفته في أي موضع منه كان ، ويقول لونه ، ويذكر لونه فيقول : **احمر** ، ان كان ، او **اسود ، بيّن** . ويذكر ما في الوجه من نمش او اثر مستطيل او معترض،أو ضربة أو غير ذلك .

ثم ينظر الى الأسنان فان كان بينها انفراج قيل : **افلج او مفلج الثنايا**، ان كان مختصا بها ، والرباعيات والنياب السفلى والعليا ، او كلتيهما ، او اليمنى او اليسرى ، أو كلتيهما . فان سقط منها شيء ذكرته وذكرت موضعه ، وما هو ، قيل : **ساقط كذا وكذا** ، السفلى والعليا ، اليمنى او اليسرى . وان اخضرّ لونها ، أو لون بعضها ، قيل : **فاسد ذلك منه** . فان انسحج طرفها فهو **كشّ ، بيّن او خفي** . فان انسحج حتى يستوي مع الميت قيل : **أدود** . فان انكسر قيل : **اهتم** . فان ذهبت اسنانه وبقيت اسناخها فهو **ألطع** .

ثم ينظر الى اذنيه : فان كان صغيرهما قيل **اصمغ** ، فان كان مثقوبهما قيل : **مثقوب الاذنين** ، فان كان في احديهما ذُكُرَتُه . وكذلك يذكر ان كان مقطوع الاذنين ، احداهما ، او بعضهما .

ثم ينظر الى ظاهر كفيه وساعديه وباطنهما،فان كان به اثر من ضربة أو نار أو غير ذلك يقال : **في يده كذا وكذا** .

فهذا مختصر ما جرت به العادة في ديوان الجيوش .

الباب الرابع من التعليم الثامن

في شيــات الخيــل

اول ما يبدأ به فيقال فرس أو شهري أو برذون ، والانثى منها حجر، ويقال له بغل أو بغلة ، ثم يذكر اللون : فان كان اسود قيل **ادهم** ، فان عَلَته من الدهمة زرقة قيل : **ادهم يشبه اخضر** ، فان اشرب اسود او ظاهر حمرة في باطنه تلي الصفرة قيل **ادهم احوى** . فان كان حلوا في اللون فهو **كميت** . ولون الكميت لون المسك،فان كان أصفر من ذلك قيل : **فاقــع الصفــرة** . فان كان أصفى من ذلك قيل **كميت يشبه اصفر** ، وان شيت : **اشقــر يشبه كميتاً** . وكذلك كل لون اشكل اعتمد فيه على الاقوى وشبه الاخر . ومــن هذا يقولون **ادهم يشبه كميت** ، **وكميت يشبه ادهم** . والكميت يكون اسود العرف والذنب ، فان كان احمر العرف فهو **اشقر** ، فان كان اصفر العرف والذنب والجلد فهو **أصفر** . وان (كان) اصفر اسود العرف والذنب والجلد قيل **سمور** . فان كان أدغم اللون ، كلون البغال ، فهو **اخضر** ، نكتبه فــي كتاب العرض ، وبعض الناس يكتبونه **ادغم** . فان كان اشقر يميل الــى الصفرة فهو **ورد** ،.والأشقر اشد صفرة من الورد . فان كان اشقر تعلوه زرقة او ظلمة فهو **اصدى** . وهو أن يكون شعره بيضا مُنافِدة للدهمــــة والكتمة،**فهو صافي**،فان كثر الشعر المنافد في أحد اللونين واشتد ظهوره فهو **اشهب** احمر بسواد أو حمرة . فان كان اشهب الا أن في الحمرة آثــــارا سودا مباينة لجملة اللون فهو **زرزوري** اللون . فان كان ناقصا عن الكتمة وزايدا على الشقرة فهو **احمر** . فان كان ناصع البياض فهو **قرطاســـي ولباج** والعرب تسمي اللون الواحد **بهيما** ، وتسمي الاشهب والضبابـــي **اشيم واحم** . فان اجتمع فيه لونان ، وكل واحد من اللونين نكتة مفردة عن الآخر فهو **مدبر** . ثم انظر في شيةّ الراس : فان ابيضّ اعلى راسه فهـــو **اصقع** ، وان ابيضّ اصل ناصيته فهو **اقنف**،وان كان في اذنيه شعرات بيض

فهو **ادرا** ، فان ابيضّ ما بين اذنيه الى البطن فهو **موشح** . فان ابيض اكثر راسه فهو **ارخم** ، فان شمل البياض راسه فهو **اغشى** .

ثم ينظر في شيةّ الوجه : فان كان في وجهه بياض صغير ، كالدرهم ، فهو **أقرح** ، فان كان أكثر من ذلك فهو **اغر** ، فان كان شديد البياض فهو **اغر موجح** . فان سالت غرته فهو **اغر سايل** . فان دقت وجللت الخيشوم فهو **شمراخ** . فان سالت الغرة الى أحد شقي وجهه فالذكر والأنثى **لطيم**. فاذا أخذت الغرة احدى العينين فهو **اشعل**،فان شملتهما فهو **مغرب** ، فان ابيضّت شفته العليا فهو **أرقم** ، فان ابيضّت السفلى فهو **المظ** ، فان تعدى الى ناصيته البياض فهي **قرعاء** و **مقرعة** . فان عمها فهي **بشفاء وفاشغة** . فان ابيضّ راسه وعنقه فهو **آدرع** ، فان ابيضّ ظهره فهو **أرجل** ، فان ابيضّ عجزه دون مقدمه فهو **أذرف** . **فان** ابيضّ جنبه او كلاهما فهو **احصف** ، فان ابيضّ بطنه ولم يبلغ الجنب فهو انبط ، فان بلغهما فهو **أجوز ويجوز** ؛ فان جاوز جوزه ، وهو وسطه ، الى الظهر فهو **أرح** ؛ فان ابيضّ ظهره وبطنه فهو **مبطن** . فان كان في ظهره اثر سجج السرج ونبت شعر ابيض فهو **موفغ** . فان اعتدل السواد (والبياض) فيه نصفين او ما يتقاربان فيه فهو **ابلق** . فان كانت قوايم الفرس بيضا ، قَلَّ او كَثُر ، الى نصف الرضيف او ثلث منها ، فهو **محجل** . فان بلغ البياض ركبته وعرقوب الرجل ، أو الى الركبتين أو العرقوبين ، فهو **محجّل محبب** . فان جاوز ذلك الى فخذيه وعضديه فهو **مسرول** . فان (كان) البياض في رجل واحدة فهو **أرجل** . فان كان البياض في رجل ويد فهو **مشكول** ، وهو الشكال،فان كان محجل يد ورجل من احد شقيه فهو **متميل الايامن مطلق الاياسر** . والامساك والاطلاق ما ليس به بياض . فان كان البياض في يديه دون رجليه فهو **اعصم** . وقد قيل : يكون (في) احدى اليدين دون الاخرى ، فان كان البياض في يديه دون رجليه ، وبلغ مرفقيه فهو **اقفر**،وكذلك اذا كان البياض

باحدى يديه كان بقوائمه شعرات بيض فهو **مخَتَّم** **وبه خاتم** ، فان زاد قليلا فهو **منعَّل** ، فان استدار برجليه دون يديه فهو **اخدم ومخدوم** ، فان كان ذلك باي رجليه فهو **ارجل** ، فان ابيضّ ذنبه (فهو ــ **اصبع**) فان ابيضّ بعض ذنبه فهو **اشعل** ، فان كان على ذنبه بُرش فهو **موقف** . فان كان بـــــه سِمَة في فخذه ذُكر ذلك، وان لم يكن (به) سمة قيل : **غطل** .

فهذا (ما) في الشيات ، لا بد لكاتب الجيش من ذلك .

الدكتور احمد سعيدان

●★★●

ازدواجية اللغة

للدكتور محمد راجي الزغول

جامعة اليرموك

تعتبر مشكلة ازدواجية اللغة العربية من اهم المشكلات اللغوية الاجتماعية التربوية التي تواجه الوطن العربي . ولطبيعة هذا الموضوع الحساسة من الناحيتين القومية السياسية والدينية فانه لم يُلقَ عناية موضوعية كافية، او بحثا مستفيضا في ضوء الدراسات اللغوية المعاصرة، خاصة التطورية والمقارنة منها . في هذا البحث سأتناول قضية الازدواجية بالتعريف، واربطها بالوضع اللغوي العربي، شارحا أربعة أنماط للعربية تُحُدِّث عنها الغربيون، وتبعهم العرب في الحديث عنها ؛ ثم فكرة الدعوة الى العامية، مبيّنا ثلاث مراحل تاريخية هامة لتطورها. ومن ثم سأناقش هذا الوضع في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، لأخلص بنتائج واقتراحات آمل أن تكون موضع المناقشة والتنفيذ . ونظرا لأن جذور المشكلة تكمن في الاهتمام الذي أبداه الغربيون بها ، فسأورد في كثير من المواقع استشهادات مما قاله بعض مفكريهم في الجوانب المختلفة لهذه القضية .

ان كلمة « ازدواجية » ترجمة للاصطلاح الانجليزي "Diglossia" . يُعتَقد أن اول من تحدث عن هذه الظاهرة هو اللغوي الألماني كارل كرمباخر

في كتابه المشهور **مشكلة اللغة اليونانية الحديثة المكتوبة** (١) عام ١٩٠٢، اذ تطرَّق الى طبيعة هذه الظاهرة واصولها وتطورها ، واشار بشكل خاص الى اللغتين اليونانية والعربية، وخلص الى نتائج تفسر كثيرا من التطورات المتاخرة لبعض الدعوات في العالم العربي ، اذ اقترح على اليونانيين ترك « ازدواجيتهم الشرقية » واللحاق بالعالم الغربي، بتبني العامية لغة قومية، كذلك دعا العرب الى ترك فصيح لسانهم وتبنّي احدى اللهجات ــ مفضلا المصرية ــ لغة قومية . لكن الراي العام المقبول في ادب هذه الظاهرة اللغوية هو أن العالم الفرنسي وليم مارسيه اول من نحت هذا الاصطلاح (بالفرنسية La Diglossie) وعرَّفه في مقالة تخص الازدواجية في العربية عام ١٩٣٠ بقوله :

« هي التنافس بين لغة ادبية مكتوبة ولغة عامية شائعة للحديث»(٢)

وبعد ثلاثة عقود من الزمان ، وعلى جهة التحديد عام ١٩٥٩، وفي مقالة تُعَدّ من أشهر ما كتب عن الموضوع ــ لانه قلما تجد باحثا في الازدواجية لم يرجع اليها ــ قدَّم اللغوي الامريكي شارلز فيرجسون هذا الاصطلاح الى الانجليزية، اذ بحث اربع حالات لغوية تتميز بهذه الظاهرة، وهي: العربية واليونانية والالمانية السويسرية، واللغة المهجنة في هايتي . كما قدَّم فيرجسون تعريفه المعروف لهذه الظاهرة :

« حالة لغوية ثابتة نسبيا، يوجد فيها فضلا عن اللهجات الأساسية (التي ربما تضم نمطا محددا أو انماطا مختلفة باختلاف الاقاليم) نمط آخر في اللغة مختلف ، عالي التصنيف (وفي غالب الاحيان أكثر تعقيدا من الناحية القواعدية) فوقي المكانة، وهو آلة لكمية كبيرة ومحترمة من الأدب المكتوب لعصور خلت، أو لجماعة سالفة. ويتعلم الناس هذا النمط بطرق التعليم الرسمية ، ويستعمل لمعظم الأغراض الكتابية والمحادثات الرسمية، لكنه

لا يستعمل من قبل اي قطاع من قطاعات الجماعة المحلية للمخاطبة او المحادثة العادية » (٣)

دعا فيرجسون هذا النمط « المرتفع » وهو الفصحى ، وقـــارن استعماله « بالمنخفض » وهو النمط العامي، واعطى نموذجـــه التالي لاستعمالات كل منهما لتوضيح الفروق المذكورة : (٤)

الحالـــة	عـــال	منخفض
١ ــ الوعظ في المسجد (او الكنيسة)	×	
٢ ــ التعليمات للخدم والعمال والكتبة		×
٣ ــ الرسائل الشخصيـــة	×	
٤ ــ الخطبة في مجلس الامة ، الحديث السياسي	×	
٥ ــ محاضرات الجامعة	×	
٦ ــ الحديث مع الأصدقاء والزملاء وافراد العائلة		×
٧ ــ اذاعـــة الأخبـــار	×	
٨ ــ التمثيليات الاجتماعية في الاذاعة		×
٩ ــ افتتاحية الصحف ، اخبار الصحف والعناوين	×	
١٠ ــ التعليق على الكاريكاتير		×
١١ ــ الشعـــــر	×	
١٢ ــ الأدب الشعبي		×

ويمضي فيرجسون في المقالة نفسها ليتنبا بما ستكون عليه الحالـــة اللغوية في اللغات الاربع المذكورة بعد القرنين القادمين، وعلى وجه تقديره عام ٢١٥٠ . والجزء الخاص بالعربية جدير بالذكر هنا ، ويفسر لنا ايضـــا بعض الاتجاهات والدعوات في العالم العربي . يتوقع فيرجسون أن يكون هناك تقدم بطيء نحو تطور مجموعة من الانماط اللغوية يرتكز كل منها على

احدى العاميات مع مزيج مركز من مفردات الفصحى . وهناك بناءً على توقعه ثلاثة انماط رئيسية : أولها العربية المغربية وترتكز على عامية الرباط او تونس ؛ وثانيها المصرية وترتكز على عامية القاهرة ؛ والثالثة ما أسماه المشرقية وترتكز على عامية بغداد . ويضيف فيرجسون مكملا توقعاته أنه بناء على تطورات سياسية واقتصادية غير متوقعة فلربما نشأ نمط جديد للعربية في سوريا مرتكزا على عامية دمشق وآخر سوداني يرتكز على عامية ام درمان أو الخرطوم ، أو انماط اخرى على حد قوله . (٥)

ودعا فيرجسون في ختام مقالته المختصين لدراسة هذه الظاهرة بشكل اوسع. وقد تم ذلك بالفعل وخاصة بين علماء اجتماع اللغة . يقول دل هايمز (٦) اللغوي الاجتماعي الأميركي تعليقا على مقالة فيرجسون إن الازدواجية مثال ممتاز لتعايش نظامين غير متبادلي الفهم (ويقصد هنا الفصحى والعامية وصعوبة فهم الفصحى على العوام) وترابط كل من هذه الأنظمة بمفاهيم وقيم مختلفة ؛ وكمثال لضرورة الرجوع الى الجماعة المحلية للتحكيم لتجنب اي تحريف أو تشويه قد ينشأ بحالة الاتصال . وكذلك تعرّض لهذه الظاهرة بالدرس كل من جمبيرز Gumperz وفشمان Fishman ؛ فقد اضاف جمبرز في اعماله الكثيرة ذات العلاقة بهذه الظاهرة (٧) أن الازدواجية ليست حصرا في المجتمعات المتعددة اللغات، التي تعترف رسميا بعدة لغات ، ولا في المجتمعات التي تتكلم انماطا عامية وفصحى، ولكن في المجتمعات التي تستخدم لهجات منفصلة ، أو اساليب مختلفة، أو اي انماط أخرى تخدم وظائف مختلفة . كذلك بحث النماذج الاجتماعية التي تحدد استعمال نمط دون آخر . أما فشمان (٨) فقد لخّص ما قدّمه لدراسة هذه الظاهرة بانه تناول استمرارية الازدواجية وتعطيلها على المستوى القومي والاجتماعي . وحاول ربط الازدواجية ببعض الاعتبارات النفسية وما يختص منها بثنائية اللغة bilingualism

بشكل رئيسي، ودرس نماذج من الجماعات التي تتميز بالازدواجية والثنائية، وبالازدواجية دون الثنائية، وبالثنائية دون الازدواجية ، والجماعات التي لا تعاني من الازدواجية أو الثنائية . وقبل سنوات قليلة ، تناول الن كي(٩) A. Kaye تعريف الازدواجية بشكل مختلف، اذ انتقد تعريف فيرجسون لها، ووصفه بأنه « انطباعي ».ونظر الى وضع الازدواجية كوضع لا يميل الى الاستقرار والثبات كما فهمه فيرجسون ؛ كذلك فهم الفرق بين النمطين الأساسيين للعربية الفصحى والعامية بأنه الفرق بين نمط معرف " defined "، وهو العامية، وغامض التعريف " ill defined " وهو الفصحى . فالعامية في رأيه نمط معرف ، لأن الطفل يتعلمها لغة أولى، أما الفصحى فانها نظام غامض التعريف لأنها لا تكتسب لغة أولى، بل يتعلمها الطفل فيما بعد في المدرسة . وفي اعتقاده انه لوجود تفاعل مستمر بين النظامين ، لا يمكن أن نستنتج بأن الوضع الازدواجي يميل الى الثبات ، بل على العكس هو متغير .

لقد اعتُبر الوضع الازدواجي في أية لغة انه يشكل عوائق مختلفة للناطقين بتلك اللغة ؛ كما اعتبره الكثير من الباحثين عائقا للتعليم وللتطور التربوي والاقتصادي والتماسك القومي . يقول الباحث سوتيرو بولص(١٠) الذي تناول بالتفصيل الوضع القائم باليونان، حيث كان لأمد قصير التنازع بين الفصحى والعامية كلغة للبلاد (لقد حلت المشكلة في اليونان قبل بضعة أشهر بتبني العامية « ديموتيكا » لغة رسمية للبلاد، وترك الفصحى « الكاثارفوسا » بناء على قرار حكومي) في وصف انعكاسات الازدواجية اللغوية .

... « وان تكن الازدواجية ، وبشكل موضوعي ، اداة بارعة للضرورة، فانها من وجهة النظر الاقتصادية والتماسك القومي وفعالية

التعليم والاتصالات واجهزة الاعلام لعائق . بالاضافة الى ذلك ، اذا اعتبرنا إن وظيفة اللغة ليست للاتصال وحسب، وحقيقة أن اللغة تخدم احتياجات الشخص والمجتمع العاطفية والمعرفية والنفسية ، فان وجود الازدواجية في الجماعة اللغوية لذو آثار محددة، بل معقدة لقوتها التعبيرية . الازدواجية رمز وتذكرة للصراع الاجتماعي ونقص التماسك الاجتماعي ».

هل يُصدَّق هذا على العربية ؟ ان كان الحال كذلك فكيف الطريق لتجنب تلك العوائق ؟ هل للعربية وضع خاص يختلف عن غيرها من اللغات ؟ ساحاول الاجابة عن هذه الاسئلة بعد أن احدد المشكلة في سياقها العربي . لذلك سابدا ببحث اربعة انماط للغة العربية ، يعرف منها العرب الفصحى والعامية ؛ اما النمطان الآخران فقد ابرزهما كُتّاب غربيون او عرب تعلموا بالغرب وبامريكا خاصة . ولو وضعنا الانماط الاربعة على خط مستقيم لوجدنا الفصحى على طرفه الايمن ، والعامية على طرفه الايسر، وقارب كل من النمطين الجديدين احد الطرفين . والانماط الاربعة هي العربية الفصحى ، العربية الحديثة ، عربية المثقفين والعامية . سابحث تلك الأنماط مبينا بعض الاتجاهات نحو الانماط، مناقشا ومبيّنا بعض آراء الدارسين الغربيين لظاهرة الازدواجية في اللغة العربية .

١ ــ العربية الفصحى، وهي ما يسميه الغربيون Classical Arabic او Fusha Arabic. وما سماه فيرجسون بالنمط العالي أو « المرتفع » .

•الفصحى بالدرجة الاولى هي لغة القرآن ولغة الاسلام، وهي الوسط الذي انتشر به الاسلام دينا وثقافة . والعلاقة بين العربية الفصحى والاسلام علاقة عضوية حميمة . قال تعالى : « انا أنزلناه قرآنا عربيا »، وقال « بلسان عربي مبين » . ولا غرو أن يكون هذا السبب الأول في

احتفاظ العرب، على اختلاف مآربهم واهوائهم عبر التاريخ، ورغم كل ما بذله الغازون والمستعمرون عبر التاريخ العربي الاسلامي من جهد في سبيل تحويرها أو تحريفها أو ابدالها بلغة اخرى . ولا بد من نظرة عميقة في هــذه العلاقة بين العربية والاسلام، التي تنعكس في آراء المسلمين في بلاد منها الصين وبورما وافغانستان وروسيا السوفيتية وغرب افريقيا، وفي آراء ومعتقدات العرب منهم خاصة، حتى ندرك قيمة هذه اللغة ومدى تمســـك المسلمين بها . وقد حاول عدد من المفكرين المسلمين أن يشرحوا او يبينـــوا هذه العلاقة وللفكر الغربي بالذات ، وللمستغربين في تفكيرهم . فعلـــى سبيل المثال يقول الشيخ عناية الله، الأستاذ في جامعة البنجاب، في مقالة نشرتها مجلة Islamic World في توضيح هذه العلاقة (١١) :

« العربية ذات اهمية عظمى، لكونها اللغة الدينية للمسلمين الذيـــن يكوّنون خمس الجنس البشري ... ويتم التأكيد في القرآن الكريم مرارا وتكرارا على حقيقة ان كلمة الله قد أوحي بها باللسان العربي . ومـــن طرف العالم الاسلامي الى الطرف الآخر ، ومهما كانت لغة المسلم، ســـواء أكانت بربرية أم حوساوية أم بشتو أم فارسية أم تركية أم جاوية ام ملاوية، فان الصلوات تقام خمسة أوقات بالعربية يوميا . اما الكلمات الاساسية في العقيدة الاسلامية ـــ لا اله الا الله محمد رسول الله ـــ فانها تهمس في أذن الوليد، ومن بين أولى الجمل التي يعلم الطفل أن ينطق بها ، وينبغي أن تكون هي الكلمات الاخيرة على شفاه الميت » .

ويستطرد الشيخ عناية الله :

« بدون العربية يكون فهم الاسلام ناقصا، ولأي فهم للأفكار المؤثرة بطريقة حياة المسلمين وعقائدهم التي يعتبرونها اكثر الاشياء قدسيـــة، ومبادىء دينهم وأخلاقهم التي ينشأون عليها ، علينا ان نعود للعربيـــة

فهي الأداة الأصيلة لكل العلوم الدينية في الاسلام » .

من هنا نبع الاعتقاد بقدسية اللغة العربية بشكلها الفصيح،وقد أثر هذا الاعتقاد تأثيرا واضحا باتجاهات العرب نحو لغتهم . يقول انور شحنة (١٢) في كتابه المعروف في الغرب عن اللغة العربية واهميتها في التاريخ واصفا اثر هذا الاعتقاد :

« انالايمان بقدسية القرآن فيما يتعلق بمعانيه وكلماته،وحتى ادق تفصيلاته،اصبحت تشمل وتحتوي اللغة العربية بكليتها . ان مسألة كون العربية اعطية الله –وبناء عليه فهي فوق اللغات جميعا بجمالها وثروتها ونبلها –قد استحوذت بعمق على اهتمام وتفكير فقهاء اللغة ومشرعي الاسلام والفلاسفة والفقهاء وغيرهم » .

ان ما لا يفهمه الغربيون والمستغربون من اعداء امة العرب هي هذه العلاقة العضوية الحميمة بين الاسلام والعربية،وما لها من انعكاسات على تفكير المسلمين ، ومنزلة هذه اللغة بأنفسهم . وعلاوة على ذلك كله ما تركته هذه اللغة من آثار على استمرار الخط الحضاري المتماسك للعرب والمسلمين . فبالاضافة الى كونها لغة الاسلام ، فقد كانت اللغة التي سُجّلت بها الحضارة العربية الاسلامية وحُفظت . ولا نستطيع أن نعطي هذه النقطة حق قدرها الا اذا امعنا التفكير فيها،ووضعنا الفرضيات المختلفة فيما لو كان الحال غير ذلك . دعني هنا اقتطف بعض ما قاله المستشرق كاشيا في تبيان توضيح هذا الأمر ؛ يقول كاشيا :

« فوق ذلك كله فان الفصحى هي مفتاح تلك الكنوز الضخمة من الماضي ... ثباتها لم توازه اية لغة.وفي هذا اليوم يستطيع اي عربي في المرحلة الثانوية من تعليمه ، ان كان مهتما وقادرا على بذل قليل من الجهد، ان يعبر الى (ويكون في متناوله) السجل الكامل للألف وثلاثماية عام

الماضية » (١٣)

هل يستطيع الانجليزي او الفرنسي أو الاسباني عمل ذلك ؟ هل يستطيع التركي او الطلياني عمل ذلك ؟ هل يستطيع اي شاب من تلك الجنسيات ان يقرأ تراث امته كما كتب لفترة ما قبل الف عام مثلا ؟ وحتى خمسماية عام ؟ تتمنى الأمم ان يكون ابناؤها قادرين على دراسة تراثها لهذه الفترة الزمنية . ان الانجليزي، على سبيل المثال، لا يستطيع أن يقرأ اي شيء من تراثه بشكله الأصلي مما يزيد تاريخه على خمسماية عام، وحتى ذلك من الصعوبة بمكان . اننا لن نستطيع ادراك اهمية ذلك الا اذا ادركنا قيمة الاستمرارية الحضارية على المستوى الانساني وبشكل شامل .

بالاضافة الى هذه العلاقة مع الاسلام فان علاقة العربية بالقومية العربية والوحدة العربية ليست اقل من ذلك بمكان ؛ فهي عماد القومية العربية، واحد اهم مكوناتها، كما اوضح ذلك عدد كبير من كتاب العالم العربي وادبائه، ومن بينهم ساطع الحصري في معظم كتاباته في هذا الميدان . (١٤) كذلك ما زالت العربية بشكلها الفصيح اكبر قوة موحّدة في عالم عربي تتنازعه قوى التفتت، بعد الاسلام . وهنا اود أن أقتطف بعض ما قاله الأستاذ السابق في الجامعة الأميركية في بيروت ريتشارد يوركي في مقدمة لمحاضرة القاها في قاعدة لاكلانز الجوية الأميركية، بمجموعة من العسكريين الاميركيين الذين يدربون مبعوثي بعض الجيوش العربية في اميركا . يقول يوركي :(١٥)

« وعلى اختلاف تلك الدول وتشعبها ، هناك قوة موحّدة عظيمة واحدة : العربية الفصحى ؛ هذا النمط من العربية الذي تُحمّلُ وثُبِّتَ لالف وخمسماية عام خلت ، والذي يعتبر لغة القرآن المقدسة، ويحترم تراثه الأدبي الهائل . بشكل رئيسي ، لم تتغير هذه النوعية من العربية منذ عهد محمد، وهي تراث عام يوحد جميع العرب : ذلك العربي الفرنسيّ

الثقافة في المغرب ، وذلك الكاتب الانجليزي التعليم في فلسطين، وذلك البدوي الذي ما زال متنقلا في الحجاز ، جميعهم يتقاسمون احتراما شبه اسطوري لفصاحة ومرونة العربية، وبشكل خاص ما دعاه المستشرق البريطاني جب « لغة الأدب الثمينة، والمزينة بخيال غالبا ما يكون ساحرا ومترامي الاطراف » .

بالرغم من تلك الوظائف التي تؤديها، وأدتها، العربية الفصحى ، الا انها وصفت وتوصف من قبل ابنائها أحيانا واعدائها أحيانا اخرى بالجمود والاصطناعية والصعوبة المتناهية، خاصة من قبل الداعين الى العامية .

كذلك يعتبرها عدد من الباحثين لغة « غير طبيعية »، لانه ليس هناك من يتعلمها لغة اولى، بل يتعلمها الطفل لغة ثانية في المدرسة . وهذا الكلام ، ولا شك ، نابع عن جهل، اذ أن الكثير من اللغة العربية الفصحى يتعلمه الطفل اثناء اكتسابه لعاميته . أما صعوبتها وصعوبة تعلّمها فيتذرع الداعون لذلك بصعوبة نحوها الذي كتب قبل ما يقارب الف عام، وقلما تغيّر بعد ذلك . بالرغم من ذلك فانه يشهد لها كواحدة من اغنى ، ان لم تكن اغنى ، لغات العالم بمفرداتها. ورغم أن فيرجسون، في مقالة ثانية عما دعاه خرافات عن اللغة العربية، يدرج هذه كاحدى الخرافات، الا انه يدعمها كحقيقة بقوله إن ذلك ناتج عن الاستمرار الطويل في استعمال الفصحى، ودوام اثرائها من اللهجات وطرق النحت الأخرى . (١٦)

٢ — العامية او المحكية او الدارجة، وهو النمط الذي يسميه الباحثون الغربيون Colloquial Arabic او Spoken Arabic .

في الكثير من الأبحاث المنشورة عن العربية ، هناك تركيز على الفكرة القائلة بأن اللهجات العامية تطورت عن الفصحى، بعد اتساع رقعة الدولة العربية الاسلامية، واتصال الشعوب العربية بشعوب اخرى

بالاضافة الى توزيعهم الجغرافي . لا داعي هنا لمناقشة هذا الراي ، لكن هناك الكثير من الدلائل التي تشير الى أن اللهجات العربية قديمة قدم اللغة العربية نفسها،وما الفصحى مقارنة بتلك اللهجات الا لغة ادبية مشتركة،كُتب بها الشاعر الشمالي والجنوبي والشرقي والغربي،على اختلاف لهجاتهم المحلية تبعا لاختلاف لهجات قبائلهم .

كذلك كانت هذه اللغة الادبية هي أداة التفاهم في اللقاءات والاسواق الادبية . يخلص الدكتور محمود حجازي في كتابه "اللغة العربية عبر القرون" (١٧) الى نتيجة أنه انطلاقا من وجود هذه اللغة الادبية فانه « من الطبيعي أن يكون القرآن الكريم بلسان عربي مبين »،وأن لا يكون محليا في التعبير بلهجة ما،بينما الاسلام دعوة الى تجاوز المحلية القبلية الى أفق عالمي أرحب . وقد اعتبر عدد من الباحثين أن هذه اللغة الادبية هي لهجة قريش،وقد تبنى من بين المحدثين الدكتور صبحي الصالح في كتابه « دراسات في فقه اللغة » وجهة النظر هذه ودافع عنها . (١٨) بالرغم من ذلك فان اللغويين العرب لم يبدوا اهتماما باللهجات ودراستها ؛ ومردّ ذلك الى غلبة التشابه بين هذه اللهجات من جهة،وبينها وبين اللغة الادبية من جهة أخرى،وسهولة التفاهم،او وجود ما يسمى بالنظرية اللغوية الحديثة، « الفهمية المتبادلة » (Mutual intelligibility) بين هذه اللهجات واللغة الأدبية . بالرغم من عدم الاهتمام الفائق ذلك،فان هناك اشارات للمزايا البارزة لكل من هذه اللهجات واختلاف بعضها عن بعض ، اورد الكثير منها ابن جني في الخصائص (١٩) . ومن الطبيعي ان يكون التركيز على المزايا البارزة،وخاصة في حقل الأصوات،وهو حقل يثير الاهتمام والملاحظة . وجملته المشهورة تلخص بعض الخصائص البارزة لتلك اللهجات حين قارنها بلهجة قريش « فقد ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم ، وكشكشة ربيعة،وكسكسة هوازن،وتضجع قيس،وعجرفية

ضبة،وتلتلة بهراء » ، كما ورد المزيد منها في المزهر (٢٠) كالفخفخة في لغة هذيل،والعجعجة في لغة قضاعة،وشنشنة اليمن،ولخلخانية اعراب عمان، وطمطمانية حمير ... الخ .

لكنه باتساع رقعة الدولة العربية الاسلامية،ومخالطة الاعاجم، والاتصال بلغات مختلفة ومتعددة الأصول والفروع،اخذت الفوارق تزداد بين تلك اللهجات من جهة،وبينها كمجموعة وبين الفصحى من الجهة الاخرى . وبالرغم من اتساع الفوارق،الا ان انتشار الفصحى لم يتوقف،اذ كانت هي الأساس،وأصبحت لغة العلم والسياسة والابداع والتاليف والترجمة فيما بعد . ثم أخذت في الركود في العصور المتاخرة،حتى كان الحكم العثماني ومحاولات التتريك،ثم الاحتلال الفرنسي ومحاولات الاحتواء والضم بالقضاء على العربية ، والاحتلال الانجليزي ومحاولات التجزئة بضرب الفصحى . وهكذا زاد اتساع الشقة بين اللهجات والفصحى بزيادة استعمال اللهجات،وقلة استعمال الفصحى،حتى وُصف بعضهم الفصحى بانها لغة ثانية ، واصبح الاعتقاد الشائع أن الفهم المتبادل بين اللهجات ضعيف .

ينظر العربي بشكل عام للهجته بالنسبة للفصحى على انها ليست ناقصة وحسب،بل انها تشويه للغتنا المقدسة ، لغة الفصاحة والأدب.وقد وُصفت العاميات بأقذع الالفاظ من قبل الأدباء والكتاب العرب،فهي مصاحبة للجهل والسوقية،كما قال عبد الملك (٢١) لغة السكارى والخدم ... فوضوية ولا قواعد لها،كما يقول مبارك (٢٢) علامة للجهل والامبريالية،كما يقول ناصيف (٢٣) ، لا تستحق أن تسمى لغة،ولا تلائم أهداف الحياة الثقافية، كما يقول طه حسين (٢٤) ، ينشرها ويحبذها الأميون،كما يقول فهمي (٢٥) ... الخ . وبعض هذه الاوصاف مبالغة في الاتهام وتنقصه العلمية ؛

فللعامية قواعد، وتستطيع كتابتها ان كان ذلك ذا جدوى؛ وهي تميل الى التبسيط في النحو، اذ تلغى الحركات وتقلّ الأوزان والتمييزات ؛ ولكن هناك أسسا أمتن من ذلك للحكم على العامية وتفضيل الفصحى . وبالرغم من هذه الاتجاهات السلبية نحو العامية في العالم العربي، فان العامية تقوم بوظائف جديدة في عالمنا، ربما تستمر ولردهة من الزمن، وذلك لارتفاع نسبة الأمية . يقول صالح الطعمة في كتاب نشرته جامعة هارفارد في اميركا واصفا هذه الوظائف (٢٦) :

« ان تطور اشكال جديدة من الأدب والدراما، والاستعمال المكثف لوسائل الاعلام، قد زود العامية بوظائف مهمة في بعض الحالات، كما في الفنون المحلية، كالاغاني، والسينما، فانها تخدم كلفة اساسية . وفي اشياء اخرى، كالدراما والقصص، فقد اخذ استعمال العامية يزداد ويركّز عليه، وخاصة في الأعمال الموجهة للمشكلات الاجتماعية » .

لا شك في أن العامية تميل الى التبسيط، وخاصة في القواعد؛ اذ على سبيل المثال تختفي صيغة المثنى تقريبا، وينقص عدد الضمائر ، وتختفي معظم أوزان الجمع، وصيغ الأفعال، وكذلك تختفي حركات الاعراب . . . الخ. لكن هذا التبسيط هو ولا شك على حساب القدرة على التعبير، ويتناسب طرديا مع تضييق الآفاق لا توسيعها. كذلك فان العامية قاصرة عن ان تفي بالتعبير عن الامور الثقافية والفكرية والفلسفية ؛ وعلى المتكلم في هذه المواضيع أن يعود الى الفصحى ليمزجها بتراكيب العامية، ان اراد التعبير عما يقول بشيء من الدقة .

هناك بين هذين النمطين، الفصحى والعامية ، نمطان آخران من ابتداع دارسي العربية والمهتمين بالظواهر اللغوية في الغرب، وهما ما يسميان بعربية المثقفين Educated Arabic والعربية الحديثة

. Modern Standard Arabic (M.S.A.)

٣ ـ عربية المثقفين Educated Arabic . عربية المثقفين اسم جديد لنماذج العاميات الاقليمية، وداخل الاقليم الواحد، مع الفصحى في كلام المتعلمين من اقليم عربي واحد، او من اقطار عربية مختلفة حينما يجتمعون . وقد قام بدراسة تحليلية لهذا النمط عدة باحثين، أخص بالذكر منهم ثلاث دراسات قام بها «حاييمبلانك»(٢٧) عندما حلل كلام أربعة من الطلبة العرب القادمين الى امريكا (١٩٦٠) ؛ وشعبان (٢٨) الذي حلل كلام ستة من الطلبة العرب (لبنانيان ، وسعودي ، وعراقي ، وعماني، وتونسي)؛ وزغول (٢٩) الذي حلل كلام عشرة من الطلبة العرب (سعودي ، ومصريان ، وعراقي ، وجزائري ، وأردنيان ، وسوداني ، وعماني ، ومغربي) .

اتفقت نتائج هذه الدراسات الثلاث على أن ترتيب الكلام يبقى عاميا؛ كذلك يبقى النحو والصرف عاميا، ولكن هناك ميلا لاختيار الألفاظ من الفصحى؛ كما أن هناك ميلا لاستعمال أصوات الفصحى، وخاصة الصحيحة منها . لكن هناك انتقالا للاصطلاح الأجنبي في كثير من الاحيان . ان هذا النمط خليط من العامية وبعض جوانب الفصحى، لكنه يبعد عن الفصحى كثيرا . يقول بلانك مثلا في ختام دراسته :

« انه الاستثناء وليس القاعدة أن تجد اي كلام متواصل في أي من الأنماط المشار اليها (الفصحى أو العامية) ؛ اذ يميل المتكلم الى التنقل من نمط لآخر، وفي داخل الجملة الواحدة » .

ويستنتج شعبان : « تبقى عربية المثقفين بغالبيتها تحت سيطرة العاميات وخصائصها، خاصة في مجالي الاصوات والقواعد ؛ والركون الى الفصحى يعتمد على الموضوع المثار، وبلد المتكلم، ومعرفته باللهجات

الأخرى » .

٤ ـ العربية الحديثة أو ما يسمى في الغرب Modern Standard Arabic (MSA) او Neo-Classical Arabic .

لقد تطور هذا النمط من العربية بنمو الصحافة وتطورها وانتشار وسائل الاعلام ؛ ويقصد به تلك النوعية من العربية التي تكتب بها الصحف، وتذاع بها نشرات الأخبار والبرامج الثقافية في الاذاعة والتلفاز . يختلف هذا النمط قليلا عن الفصحى ، وما هو الا تبسيط للفصحى من بعض الجوانب، وذلك ليكون الكلام مفهوما لاي عربي يجيد القراءة والكتابة . وهذا كذلك ما سماه الأدباء العرب قبل حين « لغة الجرايد » . للمثقف العربي ليست هناك فروق واضحة ، اذ ما تزال اصوات الفصحى نفسها تستعمل، وكذلك قواعد النحو والصرف نفسها .

والفرق الوحيد الذي يستحق الذكر هو الميل الى استخدام الشائع من الألفاظ، والبعد عن الاغراب ، والمرونة الزائدة احيانا تجاه استعمال العبارات المترجمة (مثل يلعب دورا هاما ، في الجانب الآخر ، الخ) والألفاظ المستعارة من اللغات الأجنبية .

ان مفهوم ما يسمى بالعربية الحديثة، غريب عن العالم العربي؛ والكل يفترض أن هذا النمط هو الفصحى بعينها. ومن غير المتخصصين الذين تلقوا تعليمهم في بريطانيا او امريكا ، هناك القليل ممن يعلمون بوجود هذا النمط، إن وجد فعلا . بالرغم من ذلك فان بعض الباحثين قد بالغ في تقدير هذا النمط خطوة نحو تحديث العربية وتسهيلها. وآراء الباحث جارسلوف ستيتكيفتيش (٣٠) التي ضمّنها في دراسة من أوسع الدراسات عن العربية الحديثة، والتي نشرت في كتاب في الانجليزية، جديرة بالعرض والتمحيص لاهميتها وحتى خطورتها في بعض الأحيان . يقول ستيتكنفتش في خلاصة

كتابه عن هذا النمط من العربية (٣١) :

« ان المفهوم الخادع بأن هذا النمط من العربية غير مطعم لموجود ؛ اذ نادرا ما سيكون القاموس ذا فائدة في تتبع آثار الابتعاد عن الفصحى . والتوسعات في المعنى الواردة واسعة وشفافة لدرجة أنها لا تعيق استيعابا مرضيا . توسيع الصفات يدعمه السياق التشبيهي ، والانطباع العام هو ان تلك لغة واضحة ودقيقة بحيث لا يتردد الشعراء والكتاب في استعمالها ، ونادرا ما يركز النقاد على خصائصها . وفي الحقيقة فان الانطباع المتزايد هو أنه لا يبدو أن هناك ما يميز ما يختص بهذا النمط . وهي ليست « بلغة الصحفيين » كما كانت تسمى قبل خمسين عاما . كذلك فانها ليست اختراعا جديدا أو صرعة . لقد غمر الوضوح الطبيعي في هذا النمط المصطلح المستعار، حتى أصبح من الصعب التمييز بأن هذا النمط غريب او خارج عن العربية الفصحى . وفي الوقت نفسه فان قليلا من مستعملي هذا المصطلح العربي الجديد يعلمون مدى قربهم من آفاق لغوية جديدة . يستطيع المترجمون الآن دون عناء ، وبسهولة فياضة أن ينقلوا العربية المعاصرة للغات الحديثة الأخرى، والعكس بالعكس .

كذلك تظهر المحبة والالفة اللغوية على التباين الذي ساد سابقا . كذلك يجد العرب اللغات الأجنبية أسهل، والآخرون يرون العربية أسهل كذلك » .

ويمضي ستيتكيفتيش بعيدا في استنتاجاته ليصل الى نتيجة ان قواعد اللغة العربية الحديثة لم تبدأ بالابتعاد وحسب عن العربية الفصحى ، لكنها بدأت تتسبب في غربنة ديناميكية التفكير في العربية ؟ وان العربية كلغة قد تعدت حدودها من الوجهة السلالية، من لغة سامية لتدخل مجموعة اللغات الاوروبية الحديثة الفوق/سلالية . ونتيجة ستيتكيفتش

التي ينهي بها كتابه جديرة بالتمحيص، خاصة من الهيئات المشرفة على التخطيط اللغوي في العالم العربي . يقول ستيتكيفتش : (٣٢)

« من خلال مفرداتها (الغربية) الجديدة ، وسياق صقل التفكير الذي تقوم به المفردات ، واخيرا وليس آخرا من خلال تلك الثروة العظيمة والتنويع لتلك النماذج الإصطلاحية المستوعبة، واشباه الجمل الادبية المستعارة، فان العربية الحديثة قد تعدت حدود سلالتها النسقية، وانها قد دخلت بصلة الفة مضمارا لغويا حضاريا مع عائلة جديدة فوق سلالية من اللغات الأوروبية الحديثة . أما عملية استيعابها في الغرب فقد بدأت حديثا، لكن تهيئتها ثابتة وخطاها بالطبع سرية . تستمر العربية الحديثة من ناحية صرفها لغة ساميّة، والى حد بعيد ما زالت الفصحى في هذا المجال؛ لكن بقاءها ضمن هذا التعريف سيكون غلطة . فجلّ تركيب نحوها الآن يتمشى مع ديناميكية تفكير غير ساميّة الى حد بعيد . فالعقل العربي الحديث يتحول الى فرع للعقل الغربي الحديث، ويحتفظ بالقليل القليل من صلابة ديناميكية التفكير الساميّة . والعقل العربي الحديث يتحول الى استمرار للعقل الغربي، ولهذا فانه يحتفظ بالقليل من عادات التفكير الساميّة المتصلبة، وكذلك بالقليل من القوالب الكلاسيكية والخصائص التركيبية، وان روحا لغوية ثقافية حديثة مشتركة تتطور الآن لتكون العامل المعرف للعربية الحديثة » .

لا شك في أن ستيتكيفتش يبالغ في نتائجه بتأثير اللغات الاوروبية على العقل العربي، وطريقة التفكير العربية من خلال التأثير اللغوي، لكن تلك الاستنتاجات لا تخلو من الكثير من الصحة . يعارض هذا الراي لستيتكيفتيش نجم بزرقان، استاذ الأدب العربي والفلسفة السابق في جامعة تكساس بأميركا، في مقالة له اذ يقول بأن هناك تيارا جديدا في الكتابة العربية

وهو يمثل الميل الى الكتابة بأسلوب مشابه لأساليب الكتّاب العرب في الفترة الوسطى . ويستشهد بزرجان بكتابه **مصير** لسركيس وكتاب **عبد الله** لكرم كأمثلة لهذا التيار . كذلك يقول بزرجان بأنه رغم التغييرات التي اعتـــرت العربية الحديثة في نحوها واسلوبها فهي استمرار للفصحى؛ ولذلك فانهـــا « تشهد بانتصار دعاة الفصحى على خصوم ابطال العامية في المعركة التي استعرت في نهاية القرن التاسع عشر، واستمرت للعقود الثلاثة الأولـــى من القرن الحالي » . (٣٣)

ان الجانب التاريخي لقضية الازدواجية يقدم بعض العمق لتفهـــم تلك المشكلة وجوانبها المختلفة . كذلك فان هذا الجانب يقدم تفسيرا للكثير من الدوافع لبعض الدعوات في العالم العربي . وفيما يلي سأعرض لمـــا اسميته مراحل **ثلاثـــا** لهذا التطور التاريخي .

١ ــ مرحلة الاهتمام الغربي

كان أول من ابرز الفصل بين العاميـــة والفصحى بعض المدارس الأوروبية التي اسست برامج لتدريس العامية فيها .

لقد بدات تلك البرامج في ايطالياعام ١٧٢٧ ــ مدرســـة نابولي للدراسات الشرقية ــ وفي النمسا عام ١٧٥٤، وفي فرنسا عام ١٧٩٥، وفـــي روسيا عام ١٨١٤، وفي بريطانيا عام ١٨٥٦. وقد استخدمت تلـــك المدارس عربا لتدريس العامية وكتابة قواعدها . اما الأوروبيون الذين عاشوا فـــي العالم العربي، وهم موظفو الاستعمار البريطاني والفرنسي في البلاد العربية، فلم يخفوا كيدهم للفصحى ابدا ؛ وقد أبدوا اعجابهم بالعامية، وقاموا بحملات صليبية لاظهارها واحلالها محل الفصحى . من اشهر هؤلاء مهندس الري البريطاني وليم ولكوكس . في سلسلة من المحاضرات والمقالات نُشر بعض منها في مجلة الازهر ، شنّ ولكوكس هجوما لا مثيل له على الفصحى في

اشهر اثنتين من محاضراته : واحدة بالعربية « لماذا لم يكن للمصريين قوة الاختراع »،والثانية بالانجليزية وعنوانها « سوريا ومصر وشمال افريقيا ومالطا يتكلمون القرطاجية لا العربية »،عزا فيهما ولكوكس اسباب تاخر المصريين،ونقص الاختراعات عندهم،وقلة الأصالة في تفكيرهم،الى استعمال الفصحى التي نعتها بانها لغة ميتة .

اما القاضي ويلمور فقد جدد الدعوة لتبنّي العامية وكتابتها بالحروف اللاتينية . وتعاقب كثيرون بعد هؤلاء . (٣٤)

٢ — مرحلة الاقليمية ردا على القومية العربية

بعد ثورة عام ١٩١٩ في مصر ، برزت مجموعة من الكتّاب يدعون لما نسميه الفرعونية المصرية،او الاقليمية الضيقة،ولم يكن الاستعمار البريطاني مشجعا للفكرة وحسب،بل متبنيا لها . وقد علق محمد حسين على هذه الحركة بأنها حركة استعمارية انفصالية كان وراءها الانجليز (٣٥) .

وقد دعت هذه الحركة الى «مصرنة» اللغة والفن والأدب،واستعمال العامية المصرية كوسط لهذه الاشكال الأدبية . في هذه الفترة دعا احمدلطفي السيد الى ما أسماه « التسامح اللغوي »،وما قصده بذلك هو اصلاح الفصحى باستعمال الفاظ من العامية،بالاضافة الى الألفاظ المستعارة الأخرى في الكتابة (٣٦) . اما محمد تيمور وسلامة موسى فقد دَعَوْا الى النهوض بالعامية لتكون لغة قومية . وفي تلك الاثناء وفي عام ١٩٤٣ فاجأ عبد العزيز فهمي مجمع اللغة العربية بالقاهرة باقتراحه ان تكتب العربية بأحرف لاتينية ؛ لكن هذه الدعوة التي سبقه اليها سلامة موسى ماتت بموته .

ومما يثير الاهتمام هنا هو أن اي دعوة انفصالية اقليمية تتسلح

بسلاح تجزئة اللغة العربية بالدعوة الى استعمال العامية . وعكس ذلك، اي الدعوات الاتحادية التي يهمها أن تبقى على وفاق تام مع العروبة والاسلام، فاننا دائما نجد الدعوة الى وحدة اللغة احد اهم اركان الدعوة . ويصدق ذلك على اجزاء كبيرة حاول الاستعمار أن يقتطعها كليا من الوطن الأم، اذ تعرضت لجميع صنوف الاضطهاد الفكري واللغوي والحضاري بقصد الضم الى الدول الاستعمارية ، الا وهي اقطار شمال افريقيا . وهذا تأييد مطلق للفرضية القائلة إن اولئك الذين يطمحون للانفصال يدعون للتجزئة، واولئك الذين يدعون للوحدة والتماسك يتمسكون بالعربية ووحدتها . يقول شحنه في بحث الوضع اللغوي في شمال افريقيا (٣٧) :

كان الاهتمام الشمال افريقي بالعربية يتركز على الاعتراف بها كلغة للشعب والدولة، ودون تأكيد على عمليتها كأداة للاتصال ؟ اذ أن عددا من قواد الحركات الاستقلالية كان اكثر طلاقة وقدرة في التعبير في الفرنسية لا بالعربية — وهذا الوضع كان محرجا لبعضهم — وقد قام احمد بن بلا، رئيس الوزراء السابق للجزائر، بتأمين مدرس خصوصي في العربية حتى يستطيع استعمالها في جزائر مستقلة » .

لقد توقعت دول شمال افريقيا العربية ان تواجه صعوبات جمة في التعريب، وخاصة الجزائر وتونس ومراكش، لكن الجهود تظافرت وما زالت تتظافر بكل حيوية واندفاع نحو التعريب الشامل . يقول شحنه (٣٨) في هذا الصدد :

« لم تضعف جهود الشمال افريقيين في سبيل تحصيل تعريب تام وكامل . فحال حصول تلك الدول على الاستقلال اعيد تأسيس العربية كلغة رسمية وشعبية، واتّبعت جميع الطرق لاعادة حيوية اللغة، بتأسيس مدارس متعددة، وبنشر الدوريات والكتب . وفي السنوات القليلة الماضية أصبح

الشمال افريقيون واعين للمشكلة اللغوية، ودابوا في المحاولة لايجاد الطرق لحلها، كما يثبت ذلك المؤتمر العربي المنعقد في الرباط عام ١٩٦١ » .

وعلى النقيض من ذلك فان الطريق الى « غربنة » العرب تبدأ بكتابة لهجاتهم وتطويرها، أو ما يسمى « النهوض بها » الى لغات قومية . ومن أروع الأمثلة لمثل هذا التحول هو مثال الجماعات الناطقة بالعربية في الاتحاد السوفيتي : فباسم جعل العربية لغة ديمقراطية كتبها السوفييت بأحرف سيرلية (العامية طبعا) وبهذا انجز السوفييت، كما تقول باتيسون في كتابها « تشعيب هذه المجموعات، وقطعها تماما عن القومية العربية، وعن نصيب من الثراء الثقافي القديم والجديد » (٣٩) .

٣ ـ **مرحلة الوعي العربي :**

تبدأ هذه المرحلة بفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية؛ إذ بدات الدول العربية تأخذ استقلالها ولو شكليا من الدول المستعمرة. لقد واجهت تلك الدول مشكلات جمة، منها مشكلة ازدواجية اللغة لعلاقتها المباشرة في التعليم . وفي هذه الفترة اعيد طرح بعض المقترحات القديمة بالدعوة الى العامية ؛ ثم لبست هذه الدعوة ثيابا جديدة ، فطرح انيس (٤٠) في عام ١٩٦٠ تعميم احدى اللهجات العربية ـ المصرية ـ كلغة قومية ، وكذلك طرح فريحة (٤١) عام ١٩٥٥ نمطا عاما يتكلمه المثقفون العرب . لكن الاهتمام بدأ ينصب على ما يسمى اصلاح اللغة وتيسير قواعدها . وفي هذه الفترة أيضا نشطت المجامع اللغوية العربية، واجتمعت في دمشق عام ١٩٥٧؛ وكان هناك شبه اجماع على رفض الدعوة الى العامية رفضا باتا، واتخذت التوصيات لتسهيل العربية والرقي بها، ونشرت تلك التوصيات في حينه في مجلة مجمع اللغة العربي السوري (٤٢)

أستطيع القول وبكل ثقة ان الدعوة الى العامية الآن لا تقابل بأكثر

من الاستهزاء في الوسط الثقافي العربي ، ولا اظن أن هناك عربيا يمتلك شيئا من الولاء للعروبة أو الاسلام، أو كليهما، يتنوه بتلك الدعوة، وذلك لخطرها على الأمة العربية ووحدتها ووحدة تراثها واستمرارية تأثير ذلك التراث . وان كانت الدعوة قد تلبس أثوابا جديدة، كثوب اللغة الوسطى، او عربية المثقفين، فان عمقها معروف، وبالتالي لا تختلف عن العامية شيئا، وقد ايقن المثقف العربي من ذلك .

والمبدأ العام هو ان كل ما يعارض لغة القرآن وتراث العرب فهو موجه لضرب وحدتهم والتشكيك في هويتهم. ولو نظرنا في الدوافع النفسية للدعاة الى العامية والكتابة باللاتينية لايتنّا اي غيرة تدفعهم للسير في هذا الاتجاه . دعنا ننظر لبعض ما كتب سلامة موسى مثلا تبريرا للدعوة للكتابة بالأحرف اللاتينية ؛ وهذا مقتطف قصير من مقالة نشرتها مجلة شؤون الشرق الأوسط بالانجليزية، يقول سلامة :

« لن يفاجأ الكاتب إن طالب العرب في يوم من الايام بالأحرف اللاتينية لكتابة لغتهم . هذا الانتقال ، ان تحقق، فلن يؤثر بحياتنا الثقافية والادبية وحسب، ولكنه سيكون علامة لتغيُّر في اتجاهاتنا النفسية . سنرحب بالحضارة الصناعية الحديثة بقيمها الاخلاقية والثقافية والروحية . والمشاكل التي تبدو الآن صعبة الحل ستكون اسهل .لن نرفض استعمال الكلمات الاوروبية، لن نتعلق حينها بتراثنا الماضي وكأنه الدعم الوحيد لحياتنا ... » (٤٣)

هل نحن بحاجة لقيم واخلاق وثقافة وروح الحضارة الصناعية الحديثة ؟ هل غيّر اليابانيون لغتهم أو دينهم او مُثل اخلاقهم عندما اصبحوا ينافسون اميركا صناعيا ؟ حتى لو كنا بحاجة لذلك، فهل يتم ذلك إن غيّرنا الطريقة التي تكتب بها لغتنا ؟ انه تفكير لا ينقصه شيء من مهارة اخفاء

دوافع أخرى لا يجوز المجاهرة بها .

ان هناك مما اثبتته النظرية اللغوية الحديثة ما يجعلنا نتمسك بفصيح لغتنا،بتضييق الشقة بينها وبين عامياتنا ؛ كذلك هناك في الدراسات اللغوية التاريخية المقارنة ما يحتم علينا أن نتمسك بالفصيح،والا كُتب لنا التفرق والضياع ، وذلك كله بجانب العوامل الدينية والقومية . وفي هذا الجزء من هذا البحث سأبحث العاملين السابقين وانعكاساتهما على الوضع اللغوي العربي .

لا شك في أن اللغة الواحدة،إن أمكن ايجاد مثلتلك اللغة للكتابة والحديث في البيت والشارع والمدرسة والمكتب،لهو وضع مثالي . لكن هل يمكن ذلك ؟ ان ذلك شبه مستحيل ، اذ ان كل لغة في العالم تواجه وضعا ازدواجيا بشكل أو بآخر . لنضرب مثلا في الانجليزية : هل يتكلم الاميركي في تكساس بالطريقة نفسها التي يتكلم بها الاميركي في مساشوستس مثلا ؟ أو الطريقة التي يتكلم بها الأميركي في اوهايو او شيكاغو ؟ ماذا نسمي كلام السود في أميركا مقارنة بالمستوى الكلامي العام للرجل الأبيض الحاكم ؟ ماذا نسمي كلام الكوكني والسكوتلانديين مقارنة بكلام الملكة في بريطانيا ؟ اليس ذلك اشبه بالفصحى والعامية ؟ الا يستطيع الأميركي معرفة مواطنه من اي بقعة في اميركا عندما يتكلم ؟ ان ذلك يحصل في أميركا،البلد الذي تستطيع فيه أن تتكلم من الساحل الشرقي الى الساحل الغربي ببضع ثوان ، وان تراقب نفس البرنامج التلفزيوني الذي يُبث للشعب الأميركي كاملا،وتنتقل أينماشئت دون سؤال او جواب او هوية او جواز سفر او تأشيرة أو تصريح . هل يستطيع الأبيض من الطبقة الوسطى في اميركا ان يفهم مواطنه الأسود اكثر مما يستطيع العربي من اليمن أن يفهم العربي في تونس ؟ ان كلام الملكة في بريطانيا،وكلام الرجل الابيض البروتستانتي

الانجلوسكسوني في امريكا ليسا سوى مثيل للفصحى في لغتنا مع فـــارق العاملين الديني والقومي . وما اللغة الفرنسية التي ينطق بها التلفـــاز والمدرس في الجامعة والنخبة المثقفة من الفرنسيين الا اللهجة الباريسية التي فرضتها الثورة الفرنسية اثر بيان ثوري، واتخذت قرارا باستعمالهـــا والقضاء على العاميات التي كانت تسمى « الباتواز » . لكن هل انتهـــت « الباتواز » ؟ لا ، لقد بقيت وستبقى، لكن المثقف الفرنسي يأبى التحدث بها ليتحدث باللهجة الباريسية عنوان الثقافة الفرنسية .

فالجانب الازدواجي طبيعي اذن وبأية لغة ؛ لئن كان هناك أي فرق بين ازدواجية اللغة العربية واللغات العلمية الاخـــرى كالانجليزيـــة والفرنسية ، فانه فرق كمّي، اذ ربما كانت الفجوة وما زالت اضيق بـــين الفصحى والعامية في تلك اللغات مما هي في العربية . وما ذلك الا بسبب عمل القوانين الطبيعية للتغير اللغوي .

من طبيعة اللغة أن تتغير إن تُركت دون ضوابط . وهذا التغير قـــد يؤدي بفعل عوامل متعددة الى خلق لغة جديدة . وهذا كان من الممكن أن يحصل للعربية لولا العوامل الدينية والقومية السالفة الذكر، التي احتفظت بالفصحى وبوحدة اللغة . وهذا الاحتفاظ قد زاد اثراءها وسعة ثقافتهـــا ودوام عطائها للوحدة،وهذا جانب تحسدنا عليـــه الشعوب الاخرى . ولأوضح هذه النقطة دعني اسأل هذا السؤال :

تخيَّلْ ماذا كان يمكن ان يحصل لو رفعنا اللهجات لمستوى اللغـــات القومية وكتبناها ؟ وللاجابة عن هذا السؤال اود ان أستشهد بعبـــــرة تاريخية يجب أن تبقى في أذهاننا كلما طلع صوت ناشز ينادي بالعامية فـــي وطننا العربي .

* ومثالي هو اللغة اللاتينية واللغات الرومانية Romance Languages

وكانت اللاتينية هي لغة الأدب والعلم والثقافة والدين في أوروبا في اول الامبراطورية الرومانية ؛ ومن لم يلق نصيبا من العلم في هذه اللغة يبقى علمه ناقصا، بالتغاضي عن حقل تخصصه أو وظيفته او مكانته الاجتماعية. وبمرور الزمن تطور نمط اخر من اللاتينية يتكلمه العامة وعساكر الرومان، فأصبح الوضع موازيا للعربية، اذ كان هناك اللاتينية الفصحى Classical Latin والعامية المسماة Vulgar Latin ، (والاسم لا يعني العامية فقط بل يتضمن معنى السوقية وعدم الصقل) . وبالرغم من ان اللاتينية ذات اثر كبير دينيا، الا انها لا تملك قدسية العربية في نفوس الناطقين بها ؛ كما لا تلعب دور العربية بوحدة متكلميها ؛ لذا ترك الأمر لتطورها الطبيعي . وباختلاط جنود الرومان ، متكلمي العامية، بالشعوب الأخرى الذين يتحدثون لغات مختلفة ، أو لهجات من لغات مختلفة، تطور من العامية — وهذا نسق طبيعي — لغات جديدة تعتمد على الجذور اللاتينية كأساس، والمؤثرات اللغوية الاخرى كعوامل مكونة . وهكذا كانت ولادة الفرنسية والاسبانية والبرتغالية والطليانية والرومانية . وان قَلّ الضبط عن اي من تلك اللغات فلا يستبعد ، بل من الطبيعي ان ينشأ عنها لغات جديدة . وهذا حتما ما كان سيحصل لأي لهجة عربية لو كُتبت او اصبحت لغة قومية .

في الحقيقة لقد حصل ذلك التحول باحدى اللهجات العربية، وهو مثال حي أمام أعيننا وقلما نفكر بجدّيته وعقبى نتائجه ؛ وهو مثال مالطا : فقد كان أهل مالطا يتكلمون العربية، ونظرا لانسلاخها دينيا وقوميا عن جسم العالم العربي، فقد كتبت هذه اللغة بالأحرف اللاتينية، وفتح باب الاقتراض على مصراعيه من اللغات الاوروبية، وخاصة الطليانية والانجليزية، وتطورت هذه اللهجة العربية الى ما يسمى اليوم اللغة المالطية ، التي تتحدى اي عربي أن يفهمها، رغم ان جل الكلام فيها عربي الجذور . كيف نتعامى عن مثل

هذه النتائج الحتمية ؟ هل يعرف دعاة العامية أمثلة من هذا النوع ؟ هل درسوا أو اطلعوا على النظرية اللغوية والتغير اللغوي قبل أن ينصبوا أنفسهم مصلحين ؟اني استبعد ذلك .

اذا كان وضع الازدواجية طبيعيا في معظم لغات العالم ، فلماذا يكون هذا الوضع «غيرطبيعي» أو عائقا للتقدم في بلادنا العربية؟باعتقادي أن ذلك يعود لسببين رئيسيين : أولهما ازدياد الفجوة بين الفصحى واللهجات نتيجة العوامل التاريخية السالفة الذكر،حتى أصبحتا وكأنهما لغتان مختلفتان في أعين كثير من الباحثين ؛ ومع المبالغة بذلك الاختلاف أصبح الكثير يعتقد أنهما مختلفتان فعلا . وثانيهما أنه رغم استقلالنا كدول وتبني اللغة العربية رسميا وشعبيا ، الا أن اعتمادنا على اللغات الأجنبية،وفي القطاعات المختلفة، ما زال واسعا . وسأعرض لهذين السببين بمزيد من التفصيل .

لقد بالغ كثيرون من الذين كتبوا عن العربية في الغرب بالاختلافات بين الفصحى والعامية،حتى أن كثيرا من التعميمات التي نشرها بعض باحثيهم المحترمين علميا تثير الاستغراب،بل تشكك بنوايا ومقدرة هؤلاء الباحثين.

فاللغوي الاجتماعي چمبيرز (٤٤) على سبيل المثال يساوي بين دور العربية الفصحى في المجتمع العربي ودور اللاتينية في أوروبا العصور الوسطى،والسينسكريتية في جنوب آسيا،ويعطي اللغات الثلاث — بما فيها العربية — « كمثال للغات مميزة ليس لها علاقة بالكلام الشعبي (اللهجات) ... وان الطقوس المفصلة والمراسيم التي تحيط استعمالها لا تُكتَسَب الا بعد سنين عديدة من التدريب الخاص . التعليم بها متوفر فقط بواسطة المدرسين الخاصين،ومحدود لأصحاب الامتيازات القلائل الذين يملكون الجاه الاجتماعي والموارد المالية . نتيجة ذلك ، فمعرفة تلك اللغات في المجتمعات التقليدية حصر لجماعة مختارة محدودة نسبيا » .

هل يصدق هذا التعميم على العربية كما يصدق على اللاتينية والسينسكريتية ؟ هل يدلّ هذا التعميم على اي اطلاع على العربية ؟ دعنا نقارنه بما يقول اللغوي الاميركي مايكل بريم (٤٥) الذي درس العربية واجادها وكتب اطروحته عن صوتياتها كما سجلته أمهات الكتب العربية. يقول بريم :

« ان المدعي بأن الفصحى نمط اصطناعي (بمعنى انه غير طبيعي من ناحية أن الطفل لا يتعلمه كلغة أولى) فانما يكشف عن جهله . ان الاختلافات التي تفرق بين الفصحى والعاميات المختلفة قد بولغ فيها . في الحقيقة ،ان المشكلة الحقيقية الصعبة الوحيدة التي يواجهها العربي في الفصحى هي مشكلة تزويد الحركات في أواخر الكلمات للأسماء ونهايات الأفعال، لانه من المفهوم ان ليس من تلك الحركات شيء في لهجته » .

كيف بنا أن نرد الاعتبار الى فصيح لغتنا ؟ وكيف بنا ان نضيّق الفجوة بين فصيحنا وعامياتنا، وبذلك تقترب عامياتنا من بعضها البعض ومن الفصحى ؟ في الجزء التالي من هذا البحث سأجيب ولو جزئيا عن هذين السؤالين، واتركهما مفتوحين للاجتهاد لكل من دعاه واجبه للنهوض بالعربية.

لا ريب في أن أهم مسببات اتساع الفجوة بين العامية والفصحى، بل من اهم أسباب ازدهار العامية، هو ارتفاع نسبة الأمية في مجتمع ما . والرقم في مجتمعنا العربي معيب اذ يقارب ، ان لم يتجاوز، ٧٠٪ . وبعكس ما اشار اليه بعض الباحثين امثال الن كي (٤٦) ووكسلر (٤٧) : لا نستطيع أن نعزو ارتفاع نسبة الأمية في الوطن العربي الى الازدواجية ، بل نستطيع ان نستنتج أن ارتفاع نسبة الامية زاد الفجوة اتساعا بين الفصحى والعامية، وليس بأي حال نتيجة له . ان هذه النسبة العالية في عالمنا العربي هي نتيجة مباشرة لخمسة قرون من الاهمال تبعها فترة من

الاستغلال الاستعماري البشع، كان هم المستعمر فيه تجهيل الشعـوب العربية . لكنه بعد الاستقلال ، وبهذه الواردات المادية التي تفوق تخيل الانسان، فانه لم يعد هناك مبرر لمثل هذا الرقم المعيب من الأميين في العالم العربي . وعلى حكوماتنا العربية ان تبدأ بحملات واسعة النطاق لازالة الأمية في وطننا من شرقه الى غربه . وجدير بالذكر أن من أنجح الحملات التي بدات فعلا هي تلك التي تقوم بها الحكومة العراقية حاليا، والتي يظن انها ستقارب أنجح الحملات العالمية لازالة الأمية، كالحملة في كوبا وتركيا . ومن المنتظر ان يكون عطاء الدول المنتجة للنفط اكبر مماهو عليه الآن في هذا السبيل . وجميع الدول العربية بأمسّ الحاجة لتلك الحملات ، لكن أحوج تلك البلاد الآن هي السعودية ، واليمن ، وعمان ودول الخليج ، والسودان والمغرب .

منطلقنا الثاني يجب ان يكون المدرسة العربية . لن نحقق اي تحسن في هذا السبيل الا اذا التزم المدرس العربي بلغته ؛ والتزامه يحتم عليه ان يستعمل الفصحى في محاضراته ، وان يشجع تلاميذه للسؤال والمناقشة بالفصحى ان كان الدرس دينا أو فيزياء أو رياضيات أو جغرافيا ؛ كذلك يجب التركيز على المراحل الأولى من تدريس الفصحى وآدابها، وذلك بتدريب معلمين اكفياء لتدريس مختلف المهارات اللغوية، من استماع وكلام وقراءة وكتابة . ولا يتسنى ذلك الا اذا تعاون البيت مع المدرسة ، والمؤلف مع المدرسة والمجمع اللغوي مع المدرسة .

كما انه لا يكفي لعمل ذلك ان تصدر القرارات ، بل يجب أن تراقب الهيئات المعنية مختلف مراحل تطبيقها وتنفيذها .

ولا يقلّ عمل اجهزة الاعلام اهمية عن المدرسة والبيت . لا نريد أن نحرم قطاع عامة الناس من فهم تلك الأجهزة ، ولكننا نطالب بأن يقل

استعمال العامية في الصحف والمجلات، وان توجه لعامة الناس برامج بالاذاعة ، والتلفاز بلغة فصيحة سليمة سهلة . وكلما قل استعمال الكلمة العامية في تلك الاجهزة ، وكثر استعمال الفصيح، اعطينا مجالا اوسع لانتشار الفصيح واضمحلال العامية على المدى البعيد .

اما المجامع اللغوية العربية فعليها، بالاضافة الى نشاطها في التعريب، وخاصة تعريب المصطلحات، ان تراقب استعمالها في اجهزة الاعلام والمدارس والجامعات ، وان تستمر بتفاعلها المباشر مع المجتمع ومع المؤسسات التعليمية في البلاد العربية، لتكون مراكز تخطيط لغوي لمجتمعنا ومؤسساتنا، وان تستمر بتقديم يد العون، وتقديم المشورة الى وزارات التعليم ومختلف الهيئات التي تطلبها .

ان ما قدمته تلك المجامع يستحق التقدير ، لكن المزيد من العمل مطلوب . نقطة اخيرة ؛ فان زيادة التنسيق بين هذه المجامع يجعلنا نتجنب اعادة بعض الابحاث، ويزيد من فعاليتها بشكل عام .

اما تسهيل الاتصال ، وبمعناه المطلق، في العالم العربي فليس مدعاة لوحدتنا العربية وحسب، بل مدعاة لتماسكنا السياسي والاجتماعي . وتسهيل الاتصال يتم بتطوير اجهزة الاتصال الحديثة، من الشبكات التلفزيونية، الى البث التلفازي والاذاعي الموجه للعالم العربي باسره ؛ كذلك بتسهيل تنقل المواطن العربي من بلد لآخر، وفتح ابواب التبادل ثقافيا واقتصاديا على مصراعيها . هدف اللغة هو الاتصال، ووحدة متكلميها تتم بتسهيل اتصالهم بعضهم ببعض .

من اهم الاسباب التي ادت الى ازدهار تعلم اللغات الاجنبية في العالم العربي، وبشكل خاص الانجليزيّة والفرنسية، لا شك اسباب تتعلق بفرص العمل . اذ انه لسوء حظ المواطن العربي ، يصعب عليه حتى في عقر داره ان يجد

عملا جيدا، خاصة في القطاع الخاص، اذا لم يكن يجيد الانجليزية أو الفرنسية. لماذا نجعل لتلك اللغات تلك القيمة على لغتنا طيعين مختارين ؟ لماذا نجعل تلك اللغات علامة الرفعة الاقتصادية والاجتماعية، وتؤثر بذلك باتجاهات ابنائنا النفسية لتلك اللغات وللغتنا بالمقارنة بها ؟ فجعل العربية عاملا اساسيا في التوظيف والترقية يولّد دوافع جديدة للاقبال على تعلمها واجادتها، ويخلق تاثيرات نفسية جديدة نحن احوج الناس اليها . لا اقصد ان اقلل التشجيع على تعلم اللغات الأجنبية ، لكن يجب أن نخفف اعتمادنا عليها ونجعل نظرتنا لها متواضعة بعض الشيء .

يرتبط هذا العامل بعامل آخر وهو ما اسميته « الغربة الحضارية » عند المواطن العربي ؟ فبالرغم من الأحداث الجسام التي تعيشها أمتنا العربية، وبالرغم مما قاست وتقاسي من الغرب ودوله وثقافته و«حضارته»، الا أننا ان أردنا أن نصارح انفسنا وجدنا أن قطاعا كبيرا من شبابنا يقاسي من غربة حضارية مريرة، تتجلى بتهافت شبابنا على « الغربنة » المتمثلة بالنظر للغرب على انه النموذج الذي يحتذى . كذلك تتجلى هذه الغربة بنظرة مجتمعنا العالية لمن يجيد احدى اللغات الغربية، وبتهافتنا على استعمال الاصطلاح الأجنبي في حديثنا العادي وفي صحفنا واجهزة اعلامنا، ان ذلك ما اسماه ابن خلدون في مقدمته تقليد المغلوب للغالب . لكن اما آن الأوان لأن تتوقف هذه الظاهرة، ونبدأ كشعوب نعتز بلغتنا وحضارتنا ! .

العربية تستصرخ ابناءها لمزيد من البحث والتاليف والنشر، وخاصة في حقل المعاجم ؟ اذ يأسف المثقف العربي أن لا يكون في العربية حتى الآن قاموس واحد بجودة وشمول ووضوح وسهولة استعمال «وبستر» في الانكليزية مثلا . كذلك حتى هذه اللحظة لا توجد دائرة معارف واحدة بمستوى دائرة المعارف البريطانية أو الأميركية. لذلك تحتاج العربية

الى مجموعة شاملة واضحة حسنة التصنيف من معاجـم المترادفـــات والمتناقضات والمكنزات والمواد المرجعية الاخرى . وقد قام سلفنا بالبحث وحصر المعلومات، وما علينا الا أن نصنف تلك المعلومات ونطبعها . انه وضع مؤسف .

اما تعريب التعليم الجامعي ، فليس ضرورة ومطلبا قوميا فحسب ، انما هو خدمة نزجيها للعربية، بل لأبنائنا الواقعين الآن بين نارين : نـار جهلهم بلغتهم، ونار صراعهم مع اللغة الاجنبية التي لا يجيدونها، ومع ذلك عليهم أن يتعلموا بها . ليس هناك على وجه الأرض دولة ذات قيمة تدرّس أبناءها بلغة غير لغتهم . فمن البديهيات في التعليم أن الطالب يستوعـب بشكل أفضل، ويفكر بشكل أسلم في لغته الأم لا بلغة فرضت عليه، ولا يتـم ذلك الا اذا بدأنا به وبالحال ؛ اذ سيبقى دعاة استعمال الاجنبية يبرزون الحجة تلو الحجة لتأخير التعريب، وسيجدون دائما حججا مقنعة ما لم نبدأ بالتعريب . كيف يمكن ان يكون هناك مصادر علمية بالعربية ما لم نخْرج جيلا عربيا تَعلّم بالعربية كي يبحث وينشر بها ؟ لماذا لم نبدأ بحملة ترجمة شاملة للكتب المدرسية العلمية، وهي بالواقع محصورة العدد وليسـت بذلك الحجم البالغ الذي يصوره بها اعداء التعريب ؟ اذا اخذنا الكيمياء مثلا ، فانك تجد كتابا واحدا مشهورا عالميا ككتاب مدرسي، ويستعمل في مستوى معين ــ كالسنة الأولى أو الثانية مثلا ــ وفي كثير من الاحيان نجد ان هذا الكتاب قد أعيدت طباعته مرات ومرات، وبتعديلات طفيفة تستطيع اضافتها لترجمتها سنويا. ان الكلام سيطول عن التعريب، وسنبقى نعاني نفس المشاكل التي نتحدث عنها ما لم نبدأ وبالحال بتحضير جيل يتعلم في الجامعة وفي أعقد العلوم بالعربية . والتجربة السورية ، وكذلك التجربة العراقية الجديدة جديرتان بالاعجاب والتقدير .

في ختام هذا البحث ، أود ان اوجه الدعوة الى المثقفين العرب ، والمختصين منهم أو العاملين في حقل اللغويات وتدريس اللغات بشكل خاص، لابداء آرائهم وتوجيه بحوثهم نحو مزيد من الاقتراحات العملية الممكنة التنفيذ، التي تهدف الى اعادة الاعتبار للغتنا العربية لغة رسمية وشعبية للعالم العربي، لا بالاسم بل بالفعل .

يقول العقاد (٤٨) في مقالة له عن الفصحى والعامية ، وفي ما يقول عمق بالتفكير، وملخص لكثير مما قيل ويقال عن هذا الموضوع، لولا بعض كلام عن العامية تنقصه العلمية (كقلة القواعد) :

« ان في كل امة لغة كتابة ولغة حديث، وفي كل امة لهجة تهذيب ولهجة ابتذال، وفي كل امة كلام له قواعد واصول ، وكلام لا قواعد له ولا اصول. وسيظل الحال على هذا ما بقيت لغة، وما بقي ناس يتمايزون في المدارك والأذواق . فلن يأتي اليوم الذي يكتب فيه فردوس ملتون بلغة العامل الانجليزي ، وفلسفة كانت بلغة الزارع الألماني، ولن يأتي اليوم الذي تستوعب فيه قوالب السوق كل ما يخطر على قرائح العبقريين، ويختلج في ضمائر النفوس، ويتردد في نوابغ الأذهان، فالفصيحة باقية والعامية باقية مدى الزمان !

الدكتور محمد راجي زغول

المصـــادر العربيــة

المصادر الاجنبيــة

1 - Karl Krumbachen. **Das Problem der modern griechischen Schriftsprache.** Munich, 1902.

2 - William Marçais "La diglossie arabe" **L'enseignement Public,** Vol. 97, 1930.

3 - C. Ferguson. "Diglossia."

٤ ــ المصدر نفسه ، ٩. ٣٢٨

٥ ــ المصــدر نفسه .

6 - D. Hymes. "Introduction to Social Structure and Speech Community." In D. Hymes (ed.), **Language in Culture and Society**.New York: Harper and Row Publishers, 1964, 385-390.

7 - J. Gumperz. " Types of Linguistic Communities"

أخص بالذكر منها :

------- "Linguistic and Social Interaction in. Two Communities"

------- "On the Ethnology of Linguistic Change"

------- "The Speech Community"

بحث نشمان ظاهرة الازدواجية في مؤلفات كثيرة أخص بالذكر منها :

8- a - J. Fishman etal (eds.) **Language Problems in Developing Nations**

b - -------**The Sociology of Language**

c - -------**Language and Nationalism**

d - ------- **Readings on the Sociology of Language**

9- A. Kaye. "Remarks on Diglossia : Well - defined Vs. Ill - defined"

وله مقالة اخرى جديرة بالدراسة هي :

------- **"Modern Standard Arabic and the Colloquials."**

10- Sotiropoulos. "Diglossia and the National Language Question in Modern Greece", **Liguistics,** 197 (1977) pp-5-31.

11- Inayatullah "Arabic as the Religious Language of the Moslems."

12- A. Chejne. **The Arabic Language** : Its Role in History p.9

13- P. Cachia "The Use of the Colloquial in Modern Arabic Literature.", p.12

١٤ ـــ ذكر الحصري وركز على هذه الناحية في معظم مؤلفاته واخص بالذكر منها **آراء واحاديث في اللغة والادب وابحاث مختارة في القومية العربية .**

15- R. Yorkey. "Practical EFL Techniques for Teaching Arabic Speaking Students" p. 59.

16- C. Ferguson "Myths About Arabic" p.377

١٧ ـــ د. محمود فهمي حجازي . **اللغة العربية عبر القرون** ، ص ٤٣ ـــ ٤٤

١٨ ـــ صبحي الصالح ، **دراسات في فقه اللغة** ص ١٠٩ ـــ ١١٦

١٩ ـــ ابن جني ، **الخصائص** ج ١ ص ٤١١

٢٠ ـــ السيوطي ، **المزهر** ج ١ ص ٢٢٢ ـــ ٢٢٤

21- Z. Abdel-Malek. "The Influence Diglossia on the Novels of Yusif Al-Sibai" p. 132

٢٢ ـــ مازن مبارك ، **نحو وعي لغوي** ص ٤١ ـــ ٤٤

٢٣ ـــ علي ناصيف ، **من قضايا اللغة والنحو** ص ٤٩

٢٤ ـــ طه حسين ، **مستقبل الثقافة في مصر** ص ٢٣٦

٢٥ ـــ مصطفى فهمي ، **النظرية العامة للقومية العربية** ص ١٥٠

26- S. Al-Toma. **A Comparative Study of Classical and Iraqi Arabic,** p. 114.

27- H. Blank. "Stylistic Variation in Spoken Arabic: a Sample of Interdialected Conversation," 1960

28- K. Shaaban. "Code Switching in the Speech of Educated Arabs,: 1978.

29- M. Zughoul "Diglossia in Arabic: Investigating Solutions", 1979.

30- J. Stetke cych. **The Modern Arabic Literary Language : Lexical and Stylistic Development,** 1970.

٣١ — نفس المصدر ص. ١١٤

٣٢ — المصدر نفسه ، ص ١١٩ — ١٢٠

33- N. Bezirgan "Language and Reality in The Arab World" p.24

٣٤ — لمزيد من التفصيلات راجع كتاب نفوسة سعيد ، **تاريخ الدعوة الى العامية وآثارها في مصر** ، فهو كتاب شامل وموثق في هذا المجال .

٣٥ — محمد حسين ، **الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر** ص ١٢٤ — ١٤٤

٣٦ — احمد لطفي السيد ، **المنتخبات** ص. ٢٤٦ — ٢٥٠

37- A. Shej ne **The Arabic Language : Its Role in History,** p. 109

٣٨ — نفس المصدر ص. ١٠٩

39- M. Bateson. **Arabic Language Handbook**

٤١ — ابراهيم انيس ، **مستقبل اللغة العربية** ، ١٩٦٠.

٤١ — انيس فريحة ، **نحو عربية ميسرة** ، ١٩٥٥

٤٢ — مجلة المجمع العربي مجلد ٣٢ ، عددا ، ١٩٥٧

43- S. Moussa. "Arabic Language Problems" p. 44

44- J. Gumperz "The Speech Community", p. 222

45- M. Brame, "**Arabic Phonology**" p. 1

46- A. Kaye. "Modern Standard Arabic and the Colloquials".

47- Wexler. "**Diglossia, Language Standardization and Purism**".

٤٨ — العقاد ، ساعات بين الكتب ص. ١٤٥ — ١٤٦

وقائع مؤتمر مجمع اللغة العربية في القاهرة

للدكتور عدنان الخطيب

انعقد مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورته السادسة والاربعين،في المدة الواقعة من الثلاثين من ربيع الآخر ، الموافق ١٧ من آذار (مايس) ، حتى الرابع عشر من جمادى الأولى سنة ١٤٠٠ هـ ، الموافق ٣١ من آذار (مايس) سنة ١٩٨٠ م ؛ وعقد خلالها ثلاث عشرة جلسة ، منها جلستا الافتتاح والختام .

وفي ما يلي عَرضٌ موجز لاهم ما دار في المؤتمر من ابحاث واتُّخذ من مقررات :

اولا : جلسة الافتتاح

كانت جلسة افتتاح المؤتمر علنية ، حضرها جمع من رجال الفكر والأدب ومحبي العربية ، والقيت فيها كلمات ترحيبية ، كما عُرضت اعمال المؤتمر في الدورة السابقة ، وتطلعاته في هذه الدورة .

وتضمنت كلمة رئيس المؤتمر الدكتور ابراهيم مدكور ، رئيس المجمع، الخطوط العريضة لمنهج المؤتمر . وكان مما قاله : « **لقد قيل من قديم أن المجمعيين حماة اللغة، وظُنَّ خطا أن هذه الحماية تقضي بان يقفوا عند القديم وحده** ، ولا يفسحوا المجال لشيء سواه . وهذا دون نزاع زعم باطل ؛ ذلك لان للغات حياة تسير بسير الزمن ، وتسد حاجات العصر .

ونحن نتحدث عن أدب معاصر ، وهذا التعبير نفسه خير شاهد على هـذه الحياة .. »

وتحدّث الأستاذ الرئيس عن الادب المعاصر ، مبّينا السِمات التـي تميّزه عن ادب العصور الخالية، ثم قال : « **يتابع مجمع اللغة العربية سير أدبنا المعاصر** ، ويرقب حركاته ، وييسّر له وسائل النهوض والتقـدم ، ويشجّع الشباب على الاقبال عليه والعناية به ، بما يقترح من موضوعات بحث ، وما يُمنَح عليها من جوائز ؛ ويُعنى عناية خاصة **بلغةالعلموالحضارة،** لانها لغة الحاضر والمستقبل . ويسهم اسهاما واضحا في تعريب التعليم العالي والجامعي . وفي وسعنا أن نقرّر ان ليس ثمة هيأة علمية أخـرى عنيت بالمصطلح العلمي العربي عنايته . وهو يقدم منها كلّ عام في مؤتمره زادا يفيد منه الدارسون والباحثون ؛ **وليست عنايته بمستحدثات الحضارة باقلّ من عنايته باللغة العلمية ..**» .

ثم تحدّث الدكتور مهدي علام ، الأمين العام للمجمع ، عارضا صورة عامة عن النشاط المجمعي منذ انتهاء المؤتمر السابق ، ومعددا ما تمكّن المجمع من اصداره من معجمات ومجموعات مصطلحات ومطبوعات أخرى ، مؤكدا على « أن لغتناالعربية الخالدة لغة علم وحضارة ، بل في طليعـة اللغات العالمية القادرة على استيعاب الحضارة المعاصرة،والتعبير عنها في مختلف المجالات . ولا عجب في ذلك ، فالتاريخ نفسه خير شاهد على ان لغتنا ظلّت لها السيادة والريادة ، بوصفها لغة علم وادب وفن ، عدة قرون » .

ثم قال: « فلغتنا — في هذا العصر — لا تبدأ من فراغ ،**وانما تستعيد حيويتها ، وتستردّ مكانتها ، وتستانف مسيرتها الحضارية** ، فجدها الحاضر المعاصر يضرب بجذوره في اعماق ماض مجيد عريق . انها اطول لغة ظلّت

حيّة على مدى حقبة متواصلة، لم تعش مثلها اية لغة اخرى مهما كانت قديمة » .

ثانيا ـ المصطلحات العلمية

درس المؤتمرون وناقشوا ، خلال جلساتهم اليومية ، المصطلحات العلمية والفنية التي رفعتهاالى المؤتمر اللجان المختصة عن طريق مجلس المجمع ، فأقرّ المؤتمرون غالبيتها مجمعين ، وبعضا منها بأكثريتهم ، كما اقروا بعضا آخر بعد تعديله .

وبلغ عدد المصطلحات التي عرضت على المؤتمرين (١٢١٧) مصطلحا ، موزعة بين العلوم والفنون كما يلي :

١٤٠ مصطلحا في الفيزياء (الفيزيقا)
٩٥ مصطلحا في المياهيات (الهيدرولوجيا)
٩٤ مصطلحا في القانون التجاري
١٢٨ مصطلحا في الكيمياء والصيدلة
٦٦ مصطلحافي علم الرياضة
١٥٠ . مصطلحا في علم التربية
٤٢ مصطلحا من الفاظ الحضارة الحديثة
١١٣ مصطلحا في فلسفة التاريخ
١٠٢ مصطلح في النفط
١٣٦ مصطلحا في علم الحيوان
١٥١ مصطلحا في فني السينما والتمثيل .

ثالثا ـ البحوث والدراسات

استمع المؤتمرون ، خلال مدة انعقاد المؤتمر ، الى عدد من البحوث والدراسات المتخصصة، القاها بعض الاعضاء . وفي ما يلي عرض موجز

لها، مع أهم ما دار حولها من مناقشات او تعليقات :

١ ــ الأدب العربي المعاصر

بحث للأستاذ محمد خلف الله احمد (١) . وقد حُدَّد للمعاصرة مدة قرن من سنة ١٩٥١ حتى ٢٠٥٠ م ، عرض فيه واقع الأمة العربية من خلال ادبها الحديث ناقدا محلّلا ؛ ثم تطلع الباحث الى المستقبل والآمال المرجوّة له ، وما يجب ان يكون عليه الأدب العربي ، موجها ، باذلا جهده وما لديه من نظرات عميقة وخبرات طويلة .

وشكر المؤتمرون للباحث دراسته القيمة وتطلعاته المستفيضة . وتوجيهاته النافعة . وكان من اهم التعليقات على البحث تعقيب الأستاذ اسحٰق موسى الحسيني ؛ وقد ايد **ضرورة العناية بدراسة النصوص** ، وكان مما قاله : « وبحسب تجربة لي خاصة ؛اذ كنا نحمل الطلاب على قراءة كتب اضافية على البرنامج المقرر ، وندعو الطلاب الى ان يشترك كلّ واحد منهم سنويا بتقديم كتاب يختاره ، وتكون حصيلة هذا « **مكتبة خاصة بالصف** » يقراها الطلاب في تلك السنة . **والنصوص ليست مصدرا للغة فحسب ، بل للقواعد أيضا ، كما قرر ذلك ابن خلدون** » .

٢ ــ اللغة الصامتة

بحث الدكتور اسحٰق موسى الحسيني ، وكان ممتعا طريفا، تناول الأدب العربي والتراث الشعري بخاصة ، وما تَضَمَّنه من رموز واشارات ذات دلالة معينة، كالتحيّة، او التذكير بوعد حينا ، او تدلّ على الموافقة او الرفض حينا آخر ، وعلى الحب او الكره تارة ، وعلى الرغبة في شيء، او الاشمئزاز من شيء تارة أخرى .

وأثارت شواهد البحث واطرافه، تعليقات طريفة من قبل الزملاء

الأساتذة : الدكتور ابرهيم مدكور ، ومهدي علام ، وعبد السلام هارون ، ومحمد عبد الغني حسن ، وعز الدين عبد الله ، وتمام حسان ؛ **وقد تداعت على السنتهم شواهد مماثلة فيها كل الطرافة والجمال في التعبير .**

٣ ــ بين « مرضعة » و « منفطر » في القرآن الكريم

بحث القاه الاستاذ علي النجدي ناصف ، في تعليل المسألتين التاليتين:

١ ــ ورود علامة التانيث في كلمة « مرضعة » في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ (٢) ﴾ **والقاعدة النحوية لا توجبها في الأوصاف الخاصة بالنساء .**

٢ ــ ورود كلمة « مُنْفَطِر » بصيغة التذكير في قوله عز وجل : ﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ (٣) ﴾ **خلافا للقاعدة التي توجب مطابقة الوصف للموصوف** ، والسماء اسم مؤنث (٤) .

وعرض الباحث اقوال مختلف العلماء والمفسرين في تعليل هاتين المسألتين ، رافضا ذُهاب بعضهم الى التعلل بالرخصة المتضمّنة في القواعد النحوية واللغوية ، أو القول بأن التذكير محمول على تأويل أن السماء بمعنى السقف . وأكد الباحث بأن القرآن الكريم حين يقول : ﴿ وإِنْ طائِفَتَانِ مِنَ المؤمِنِيْنَ أقْتَتَلوا (٥) ﴾ فانه لا يقوله ترخّصا ؛ والتعليل الصحيح للأمر ، **يحتاج الى بحث دقيق وعميق في التفسير** : فالمرأة التي تباشر الرضاعة **لا توصف الا بكلمة « مرضعة »** (٦) ، والوصف بمنفطر من باب الوصف باسم الفاعل من فعل مطاوعة يحمل كل معاني الانفال والتصدع ، **والتذكير فيه اولى .**

وجرت تعليقات موسّعة ومهمّة حول هذا البحث ، اشترك فيها الأساتذة : تمام حسان ، ومهدي علام ، وشوقي ضيف ، ومحمد عبد الغني

حسن ، مجمعين على شكر الباحث وتقدير دقته وتعمقه في البحث .

٤ ــ من كناشة النوادر (٧)

بحث ألقاه الأستاذ عبد السلام هارون ، ويتضمن نظرات مستأنية وطرفا مستملحة، جمعها خلال مطالعاته الطويلة في كتب اللغة والادب ، وفي ما يلي نماذج منها :

أ ــ **الإمّعة** : كلمة اصلها جاهلي ، وكانت تطلق على من كان يتبع الناس الى طعام لم يُدْعَ اليه ، وهو الطُفَيْلي ؛ وهذه كلمة اسلامية (٨) ، أما اليوم **فهي لا تطلق الا على من لا راي له** ، ويقول لكل واحد : انا معك .

ب ــ في حاشية الدمنهوري ورد ان **لسيبويه كتابا باسم (القوافي)** ولم يذكر هذا الكتاب في المصادر التي اوردت ثبتا بمؤلفات سيبويه .

ج ــ « ايوه » في عامية اهل مصر (٩) **لها جذر فصيح هو : اي والله .**

د ــ في وفيات الأعيان لابن خلكان خبر طريف يدل على مبلغ العناية بعلوم اللغة العربية في دمشق ؛ فقد الزم احد الذين تَرْجَم لهم ابن خلكان نفسه **بدفع مئة دينار لكل من يستظهر كتاب « المفصل »** للزمخشري .

هـ ــ **سورية** : في معجم البلدان لياقوت ما صورته : « سورية ، موضع بالشام بين خناصرة وسلمية ، والعامة تسميه سورية » . هذا ما كان في القرن السابع ، ولكن المسعودي ، المتوفى سنة ٣٤٥ ، يذكر في « التنبيه والاشراف » ص ١٥٠ ما نصه : « والروم يسمون بلادهم ارمانيا ، ويسمون البلاد التي سكانها المسلمون في هذا الوقت من الشام والعراق سوريا ، والفرس الى هذا الوقت تقارب الروم في هذه التسمية ، فيسمون العراق والجزيرة والشام سورستان » .

وفي معجم البلدان في رسم (سورستان) يقول ياقوت : « وقال ابـــو الريحان : والسريانيون منسوبون الى سورستان ، وهي أرض العـــراق وبلاد الشام .. غير أن هرقل ملك الروم ، حين هرب من انطاكية ايام الفتوح الى القسطنطينية ، التفت الى الشام وقال : **« عليك السلام يـــا سورية** ، سلام مودع لا يرجو أن يرجع اليها ابدا » . وهذا دليل على ان سورستان هي بلاد الشام » .

ويقول صاحب القاموس ، المتوفى سنة ٨١٧ : ان **« سوريـــة ، مضمومة مخففة ، اسم للشام** (١٠) » فيعقب عليه الزبيدي ، المتوفى بعده باربعة قرون ، أي في سنة ١٢٠٥ ، بقوله : « في القديم » ثم يقول:«والكلمة رومية (١١) » .

وانهى الباحث عرضه قائلا: « وهكذا لا نجد في القديم الا اضطرابا في دلالة هذه التسمية ، التي استقرت الآن في **أحد اقاليم الشام بوضع جغرافي وسياسي معين** ، بعد ان ظلت ردحا من الزمان كورة من كور الشام ، التي تشمل أجناد قنسرين ، ودمشق ، والاردن ، وفلسطين ، وحمص ، بخلاف الثغور ، وهي المصيصة ، وطرسوس وأذنة وانطاكية،وجميع العواصـــم . **ثم صارت الى لبنان وفلسطين والأردن وسوريا (١٢) »** .

وشكر المؤتمرون للباحث امتاعهم بنوادره المنتقاة من مختلف كتـــب التراث ، وافادتهم بنظراته الثاقبة فيما وراء السطور • وعلق الأستاذ محمد عبد الغني حسن قائلا : « عرفنافي الزميل **المحقق البارع** وكشف لنا اليوم في كناشته عن شخصية **المنقّر الرائع** » .

٥ ـــ وقفة امام قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم)

قصيدة القاها الدكتور حسن علي ابرٰهيم،استاذ الجراحة في كليـــة

الطب،بمناسبة عودته من زيارة الروضة الشريفة في المدينة المنورة ، وهي في ثلاثة وستين بيتا ، وهذه مقاطع منها :

مَشيتُ وفي قلبي وجيبٌ ورهبةٌ … الى خير قبر ضَمَّ خير رُفاتِ
وحولي من الاقوام حشدٌ ميمِّم … الى حيث يثوي منبع البركاتِ
وفي النفس ما فيها من الحب والتقى … وفي النفس ما فيها من الحسراتِ
وعادت بي الذكرى دهورا سحيقة … الى فجر دينٍ عاطر النفحاتِ
هنا أكمَلَ الروح الأمين رسالة … اضاءت فلاةَ البدو والعَرَصاتِ
وشعَّت وراء الافق حبًّا ورحمةً … لتغشى بلاد الارض والجَنَباتِ
اذا امتُحِن الاسلام حينا بشدّة … فقد عَمَّ بالايمان والعَزَماتِ
وقد سار من نصرٍ لنصر مؤزَّر … فأحيا نفوسا في عميق سباتِ
هنا شَرَعَ الإسلام فرضا وسنَّةً … بما انزل الرحمٰن من كلماتِ
وقدقام بالتفصيل والشرح احمدٌ … بفعلٍ وقولٍ ضمَّ جمَّ عظاتِ
ولما دنا وقتُ الرحيل وأزْلَفَت … لعينيه انوارٌ من الجَنَّاتِ
دعا ربَّه همسا ليأوي بمنزل … رفيقا لعالٍ مانح الخيْراتِ
بحبّك يا خير الانام جميعِهم … وهَدْيك إني قد ملأتُ حياتي
ويا رَبِّ عفوًا من لدنك ورحمةً … لعبدٍ دعا في اقدس الحرماتِ
لجأتُ الى الرحمٰن اطلب عفوه … وربي غفور واسع الرَّحماتِ
فيا رَبِّ ألِّفْ بين عُربٍ تَفرَّقوا … ووَحِّدْ خُطاهم بعد طول شتاتِ
مشيتُ ثقيلَ الخَطو في القلب حسرةٌ … لِتَرْكي مقامُ الاعظم العطراتِ
عليكَ سلامُ الله ما أشْرَقَ الضحى … وما لاح نور البدر في الظلماتِ

وهنأ المؤتمرون زميلهم الطبيب الشاعر بعودته الحميدة،مشيدين بشاعريته وبقصيدته الرائعة .

٦ ـ كلمة (أريسيين) في كتاب النبي (صلى الله عليه وسلم) الى هرقل ـ

ما الصواب في نطقها وفي معناها ؟

بَحْثٌ القاه الدكتور احمد الحوفي، عرض فيه لما هو ثابت في كتب الحديث والسيرة واللغة من ان النبي (صلى الله عليه وسلم) ، بعث الى هرقل ملك الروم ، بكتاب يدعوه فيه الى الاسلام قائلا له : (.. **وان توليت فان عليك اثم الأريسيِّين (١٣)**) .

وفَصَّلَ الباحث اقوال رواة الحديث في ضبط كلمة « **أريسيّين** » ؛ فقد اختلفوا ان كانت بياء واحدة أو بياءين بعد السين ، وقال بعضهم بكسر همزتها بينما نطقها آخرون ياء ؛ كما اختلفوا حول تشديد الراء وحول حركتها . وقد تداخلت الروايات وتعدد بعضها (١٤) ، **مما كان له أثر كبير فيما اثبته علماء اللغةفي المعجمات (١٥)** .

وعرج الباحث على المراد من كلمة « الأريسيِّين »، فقد اختلف العلماء حوله على اقوال ، اشهرها: انها تعني : « الاكاريين »، أي الفلاحين والزارعين ؛ وقد جاءت كلمة « الأكاريين » في بعض روايات النص نفسه (١٦) ، كما وردت كلمة « الفلاحين » في رواية أَثْبَتَها صاحب كتاب الأموال (١٧) » .

ثم ذكر صاحب البحث قول بعضهم : ان المراد بالأريسيين هم : اتباع عبد الله بن اريس، الذي تنسب اليه فرقة الأروسية من النصارى ، ويقال لهم « الأروسيون (١٨) » .

وانتهى الباحث الى ان المراد بكلمة « الأريسيين » هم أتباع أسقف اسكندري يدعى « آريوس arius (١٩) » كان ينكر الوهية السيد المسيح، فتبعه خلق كثير من النصارى، وانتشر اتباعه في بقاع كثيرة، كانت منها بلاد الشام ؛ وعرفوا بالأرسيين وعقيدتهم بالأروسية

. (٢٠) ARIANISME

وشكر المؤتمرون للباحث طرافة موضوعه وجهوده في استقصائه، وعلّق بعضهم مؤيدا أو مستفهما أو مشيرا الى بعض ما جاء في كتب التاريخ (٢١) .

٧ ـ توحيد المصطلح العلمي في التعريب

بحث للدكتور شوقي ضيف ، ضمّنه عرضا **للموضوع القديم الذي لا تُبْلى جِدّته** ؛ مبيّنا تاريخ المصطلح العربي عند العلماء المسلمين والعرب ، وواقعه اليوم في مختلف الأقطار العربية ، متطلعا الى الغد المأمول يوم تصبح اللغة العلمية فيه واحدة في العالم العربي ، مشيرا الى **أن المصطلح العلمي لا يوحده مثل وحدة السلطة التي تشرف على وضع المصطلحات** ، ومدى نفوذها في مختلف المؤسسات والادارات ذوات العلاقة بهذا الموضوع .

ولم يخل البحث من نقاط جديدة استثارت تعليقات قيّمة من الأساتذة ابرٰهيم الدمرداش،وعز الدين عبدالله،وتمام حسان ؛ وقد عرض كل منهم خبرته في الموضوع مؤيدا الباحث في تطلعاته وآماله .

وشكر الرئيس الدكتور ابرٰهيم مدكور للمحاضر آراءه المفيدة ، وطمأنه بأن البلاد العربية في طريقها الى الهدف الذي ينشد ، **معتمدة على المعلم المُحْسن تأهيله** ، مشيرا الى واجبات كل من اتحاد مجامع اللغة العربية،واتحاد الجامعات العربية،ومؤتمرات التعريب التي تُعِدُّها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

٨ ـ تأصيل بعض الدخيل من اسماء الملابس والأطعمة في كتاب الجبرتي

بحث ألقاه الدكتور أحمد السعيد سليمان ، مقدّما له بالكلام على

اثر الوضع السياسي في بلد ما على الفاظ الحضارة فيه ، وكيف تتأثر هذه الالفاظ بتبدل الدول ؛ مبيّنا كيف ازاحت المصطلحات التركية في يوم من الايام في مصر المصطلحات المملوكية وحاولت طردها نهائيا ؛ ثم أوضح كيف وجدفي تاريخ الجبرتي مصدرا من اهم المصادر في دراسة أسماء الملابس والأطعمة وما تدلّ عليه ، وان هذا البحث استهواه،وهو في سبيله الى وضع معجم لالفاظ الحضارة في عهد الجبرتي .

وعلّق بعض الأعضاء على طرافة الموضوع شاكرين للباحث جهوده فيه .

٩ ــ يزيد بن محمد المهلبي

بحث للشيخ محمد رفعة فتح الله،عرض فيه لسيرة شاعر عربي كبير من بني المهلب بن أبي صفرة، **عاش في القرن الثالث الهجري** ، واتصل بالمتوكل العباسي،ونادمه حتى اذا مات رثاه بقصيدة من عيون الشعر، اوردها المبرد في الكامل .

لقد اغفل مؤرخو الأدب العربي سيرة هذا الشاعر الكبير (٢٢) ، حتى لم يبق منها الا متفرقات في مختلف الكتب،جمعها الباحث فكانت طريفة حلوة ممتعة .

رابعا : المحاضرات

تتضمن جدول اعمال المؤتمر في هذه الدورة محاضرتين عامّتين عن الأدب العربي المعاصر ، فَتَحَ المؤتمر فيهما امام جمهرة الحضور من رجال الفكر والبحث والتعليم باب الحوار والنقاش العلني .

وكان الموضوع في المحاضرتين هو :

الأولى : لغةالمسرح بين العامية والفصحى

القاها الدكتور شوقي ضيف،عارضافيهاتاريخ المسرح في مصر فـــي النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي ، يوم كان مسرحا للدمـــى المتحركة (خيال الظلّ) . وكان هذا المسرح قد عُرِف في مطلع القرن الثالث الهجري ، ونال بعض عنايةالدولة الفاطمية،ثم استمر في عصر المماليك الى العهد العثماني بعدئذ ، **وكانت العامية لغته ولغة الأغاني فيه .**

وبدأ المسرح في مصر يحاكي المسرح الاوروبي في النصف الثاني من القرن الماضي ، على يد بعض السوريين واللبنانيين ، **وكانت لغته تتفاوت بين العامية والفصحى،تبعا لموضوع التمثيل،واختلاف الفِرَق التي تقوم به.**

وبيَّن المحاضر اثر اشتراك أعلام الادب العربي في العصر الحديث ، أمثال شوقي وتيمور واباظة ، فيتزويد المسرح بمؤلفاتهم على لغته ، ثم خصّ اثر توفيق الحكيم على هذه اللغة،راسما الخط البياني لِلُّغة التي كتب بها مسرحياته ، **بدءا من لغته في مسرحياته الذهنية،وهبوطا الى لغتـــه في مسرحياته الاجتماعية ؛** وشرح المحاضر الأسباب التي تؤدي الى توســـــع انتشار الكتابة باللغة العامية بين مؤلفي المسرحيات ، تَقَرُّبا من أهلهـــا وَمَلَقًا لهم .

ثم أفاض المحاضر في الحديث عن **اللغة الثالثة** التي دعا اليها توفيق الحكيم في تقديمه مسرحية الصفقة سنة ١٩٥٦ ، ناقدا لغة هذه المسرحية ، **مؤيدا الكتابةبلغة ثالثة،شريطة الارتفاع بها لتصبح فصحى مبسطـــــة بمستوى مقبول عربيًّا .**

واعقبت المحاضرة مناقشات حامية بين الأساتذة المهتمين بلغـــــة المسرح ، وكان اغلبهم **من انصار الفصحى .**

الثانية : قضايا حول الشعر العربي

القاها الشاعر الأستاذ محمد عبد الغني حسن، عرض فيها المشاكل التي يثيرها الشعراء ، **مذ كان الشعر وكان للشعراء خصوم وأعـــداء يتتبعون زلّاتهم وسقطاتهم** ، او يهاجمون تحلّلهم من قيود الشعر، او مخالفتهم القواعد المتعارف عليها جهلا او اهمالا .

وعرض المحاضر **للشعر المنسوب لغير قائله** ، والى طرائف ناجمة عن اوهام بعض المؤلفين او المحققين .

واعقب المحاضرة حوار وتساؤل حول بعض القضايا التي اثارهـــا المحاضر .

خامسا : المعجم الكبير

عُرِضت على المؤتمرين الموادّ التي انهى مجلس المجمع دراستها مـــن المعجم الكبير، وهي **المواد المبتدئة من اول حرف الجيم والراء وما يثلثهمـــا الى نهاية حرف الجيم والزاي مع الراء .**

واستمع المؤتمرون الى الملاحظات التي قدمها الزملاء الأساتذة : علي النجدي ناصف، وعبدالسلام هارون، وعدنان الخطيب ، وقرروا احالتها الى اللجنة المختصة لاعادة النظر في مواد المعجم في ضوئها .

سادسا : اعمال لجنة الأصول

نظر المؤتمرون في ثماني موضوعات اقترتها لجنة الاصول، ورفعت اليهم بموافقة مجلس المجمع . وفيما يلي موجز عن تلك الموضوعات، وما انتهـــى اليه المؤتمر بشأنها :

الموضوع الأول : جواز مجيء المصدر الميمي واسمي الزمان والمكـــان

من الفعل الثلاثي المعتل بالياء على (مُفعل) بالفتح

كانت لجنة الأصول بعد مناقشة الموضوع اتخذت القرار الآتي :

« يجوز أن يجيء اسماالزمان والمكان — كالمصدر الميمي — من الفعل الثلاثي الأجوف اليائي على المَفْعَل بالفتح ، **فيقال مثلا المسار لمعنى السير أو مكانهأو زمانه ،** وكذلك يقال طار مطارا والآن مطاره وهنالك المطار » .

وشرح مقرر اللجنة الأستاذ شوقي امين الدافع الى القرار بقوله : لو جرينا وراء القاعدة الصرفية المألوفة لكانت كلمة المطار وكلمة المسار في استعمالهما بمعنى المكان وخطة السير خطأ لا يغتفر ؛ ولما كان بعض العلماء قال : **ان شِئتَ فَتحتَ وان شِئْتَ كَسَرتَ في الاسم والمصدر ،** وفي هذا رخصة وتيسير للمصدر الميمي واسمي الزمان والمكان ؛ مما دفع اللجنة الى اتخاذ هذاالقرار .

وبعد مناقشة قصيرة **وافق المؤتمرون على قرار اللجنة بالاجماع .**

الموضوع الثاني : الحاق تاء التانيث بمِفْعِيل ومِفْعال ومِفْعَل صفة المؤنث

كانت لجنة الأصول،بعد دراسة هذا الموضوع،انتهت الى القرار التالي : « يجوز أن تلحق تاء التانيث صفة مِفْعِيل ومِفْعَال ومِفْعَل، **سواءأُذكِر الموصوف أم لم يُذكَر ؛** مثل : مسكين ومسكينة ، ومعطار ومعطارة » .

وشرح مقرر اللجنة الأستاذ شوقي امين الدافع الى هذا القرار فقال : ان هذا الموضوع يتعلق بعقبات في اللغة والاستعمال ؛ فقد كان نقاد اللغة يُخَطّئون قولهمفخورة وغيورة ، وعالج المجمع مثل هذه العقبات وحلّ منهاالكثير؛ وقد وجدت اللجنة من كلام العلماء **ما يؤيد دخول التاء دلالة على التانيث** في هذه الصيغ .

وبعد مناقشة الموضوع **وافق المؤتمرون على قرار اللجنة بالاجماع .**

الموضوع الثالث : جواز المطابقة في توكيد المثنى بالنفس والعين

بعد مناقشة الموضوع انتهت لجنة الاصول الى القرار الآتي :

« يجوز الافراد والمطابقة والجمع على أفعل في توكيد المثنى بالنفس والعين، فيقال : **جاء الرجلان نفسهما ونفساهما وأنفسهما » .**

وشرح مقرر اللجنة الاستاذ شوقي أمين الدافع الى اتخاذ هذا القرار ، فقال: جميع كتب النحو التعليمي تقول في توكيد المثنى بالجمع على أَفْعُل : جاء الرجلان انفسهما؛ وهذا يخالف طبيعة الكلام ، اذ أنه يجب ان يؤكد المثنى بصيغة المثنى والجمع بصيغة الجمع ; عندما درست اللجنة هذا **وجدت في آراء ائمة اللغة سندا لجواز المطابقة في التوكيد بالنفس والعين للمفرد والمثنى والجمع** ; وهذا ابو حيان قد نص على أن المطابقة هي الاصل ; ونحن نقول بمجرد الاجازة .

ولم يعترض أحد على ما انتهت اليه اللجنة فاجيز .

الموضوع الرابع : ضوابط رسم الهمزة

اولا : تقوم هذه الضوابط على الدعائم التالية :

١ ــ **تَتَجنَّب الكتابة العربية توالي الأمثال** ، فيُكتَب الحرف المضَعَّف حرفا واحدا في « **قَدَّم** ».وكتب الحجازيون قديما : (داوود) و (رووس) و (شوون) بواو واحدة هكذا (داود) و (روس) و (شون) .

٢ ــ **تُعَدّ من الكلمة اللواصق التي تتصل بآخرها**،مثل الضمائر،وعلامات التثنية والجمع،والف المنصوب ; ولا يُعَدّ منها ما دخل عليها من حروف الجر، والعطف،واداة التعريف،والسين،وهمزة الاستفهام،ولام القسم .

٣ ــ الحركات والسكون في الكلمة ترتب من ناحية الأولوية ترتيبا تنازليا على النحو التالي : **الكسرة،فالضمة،فالفتحة،فالسكون** .

ثانيا : تتلخص قواعد كتابة الهمزة بعد ذلك في القاعدة التالية : تُكتَب الهمزة في أول الكلمة **بالف مطلقا** ؛ اما في الوسط فانه يُنْظَر فيها **الى حركتها، وحركة ما قبلها** ، وتكتب على ما يوافق أَوْلَى الحركتين من الحروف .

فتكتب الهمزة على ياء في مثل : المستهزئين ، والمنشئين، وتطمئن، وافئدة، وفئة ، وجئتنا؛ لأن الكسرة أولى من كل الحركات والسكون .

وتُكتَب على واو مثل: يؤز ، ويؤدي ، وسؤل ، واولياؤهم ؛ لأن الضمة أولى من الفتحة والسكون .

وتكتَب على الف في مثل :سال ، ويسال ، وكاس ؛ لأن الفتحة اولى من السكون .

اما في الآخر **فتكتب بحسب ما قبلها** ؛ فان كان ما قبلها مكسورا فتكتب على ياء مثل : برىء وقارىء ؛ وان كان مضموما كُتِبَت على واو مثل : جرؤ وتكافؤ ؛ وان كان مفتوحا كُتِبَت على الف مثل : بدأ وملجأ ؛ وان كان ما قبلها ساكنا تُكتب مفردة مثل : بطيء وملء وشيء وجزاء وضوء وبطىء ومضيء .

ملحوظة : اذا تَرَتَّب على كتابة الهمزة على الف او واو توالي الأمثال في الخط ، كُتبت الهمزة على السطر مثل : يتساءلون ورءوس ؛ الا اذا **كان ما قبلها من الحروف مما يوصل بما بعده،فانها تُكتَب على نبرة** مثل : بطئنا وشئون ومسئول) .

استثناء من القاعدة :

١ ــ اذا اجتمعت الهمزة والف المد في أول الكلمة او في وسطها **اكتُفِيَ بعلامة**

المد فوق الألف مثل : آدم،وآكل،وآخر،والآن ، ومثل مرآة،وقرآن .

٢ ــ تعدالفتحة بعد الواو الساكنة في وسط الكلمة بمنزلة السكون ؛ **ولذلك تُكتب الهمزة مفردة** في مثل : مروءة،وشنوءة،ولن يسوءك،وإن ضوءك .

كما تعد ياء المد قبل الهمزة المتوسطة بمنزلة الكسرة ، ولذلك **تكتب الهمزة على نبرة** في مثل : خطيئة وبريئة ومشيئة .

وتولى الأستاذ شوقي أمين مقرر اللجنة شرح أسباب تدوين هذه الضوابط فقال : ليس موضوع الهمزةجديدا على المجمع ، ولا على لجنة الاصول ؛فقد عني المجمع بموضوع الهمزة ومشكلاتها حقبة طويلة ، وانتهى المجمع الى قرارات منذ ثمانية عشر عاما تقريبافي تيسير رسم الهمزة ؛ لكنجاءت قراراتها كثيرة الفروع والشعب،ولوحظ فيها التداخل؛ورغم ابلاغ وزارة التربية والتعليم بما انتهى اليه المجمع في هذا الشأن فانها لم توضع موضع التنفيذ ، وكان قولهم : ان تعليم هذه القواعد الكثيرة شُقّة لا تتسع لها خطة التعليم . وقدم الدكتور رمضان عبدالتواب مشروعا **جعل لقوة الحركات الاعتبار الأول في رسم الهمزة .**

وتبين للجنة الاصول عند دراسة مشروع الدكتور رمضان انه منذ خمس وعشرين سنة قُدِم الى المجمع استاذ في المعاهد الازهرية يُسَمّى الأستاذ الشيخ بشير سلمو ، ومعه مشروع لرسم الهمزة بعنوان : « **قاعدة الأقوى** » . وطوى الزمن هذا المشروع منذ ذلك الوقت،حتى عاد الحديث حول كتابةالهمزة ، وعُثِرتُ انا عليها بعد جهد في البحث عنها،ثم جئت بقرارات المجمع القديمة وعُنيت بعقد المقارنة بينها وبين ما تقدم به كل من الدكتور رمضان والاستاذ بشير سلمو ؛ وفي أثناء البحث هدى الدكتور مهدي علام الى **طريقة الأقوى** هذه،وكان يعلّمها بعض طلابه،وكان يجد تيسيرا كبيرا .

وطَبَّق المجمع القواعد التي وضعها متفقا مع ما جرى به العرف في الكتابة،الا في ضابطين اثنين هما : « بيئة وشئون » اذ كان يكتب الأولى همزة على الف ، والثانية همزة على واو ، الا ان هذا لم يجد قبولا ؛ وفي هذه الضوابط الجديدة نعود الى سيرة كتابة « بيئة وشئون » **فتكتب الهمزة على نبرة كما هو المألوف** (٢٣) .

وجرت مناقشات حول بعض الضوابط ، واختُلِف على ضابط الثلاثي، وانتهى الامر **بالموافقة على تقرير اللجنة بالاكثرية .**

الموضوع الخامس : الالف اللينة

بعد مناقشة الموضوع وما قُدِّم فيه من مذكرات،انتهت لجنة الأصول الى القرار الآتي :

« تُرسَم الالف اللينة بصورة الياء (غير منقوطة) اما الياء فتنقط للفرق .
وترسم الالف اللينة في آخر الفعل على صورة الياء نحو : رمى وسعى وادعى واستوفى ؛ فان سُبِقَت بياء رُسِمَت بالألف نحو : أحيا واستحيا ؛ اما اذا كان الفعل ثلاثيا مضارعُهُ بالواو فتُرسَم ألِفًا نحو : غزا ودعا .

وتكتب في آخر الاسم بصورة الياء اذا كانت رابعة فصاعدا،نحو : بُشرى ومنتدى ومصطفى ؛ فان سُبِقت بياء رُسِمَت ألِفًا نحو : دنيا وخطايا؛ وان كانت الألف ثالثة جازت كتابتها بالألف مطلقا نحو : عصا ورحا وخطا ؛ ويجوز كتابتها بصورة الياء لمن يعرف الفرق بين موقعيهما نحو: رضا وهدى . وتُرسَم الفا في آخر الاسم الأعجمي مطلقا مثل : تسلا وسخا وشبرا، الا ما اشتهر بغير ذلك نحو : موسى وعيسى وكسرى وبخارى ومتّى (مشددة) ، وتُكْتَب في آخر الحروف بصورة الألف،ما عدا : الى وعلى وبلى وحتى ومتى » .

وجرت مناقشات حادة حول بعض الضوابط اشترك فيها الاساتذة: شوقي أمين، وتمام حسان، وعبد السلام هارون، ومحمد رفعت فتح الله، واحمد الحوفي، واسحق موسى الحسيني، ومهدي علام. وخص الدكتور عدنان الخطيب اللجنة بالشكر **لتفريقها بين الألف اللينة والياء باقرارها نقط الياء في آخر الكلمة**، ورجا ان يأخذ بذلك المسؤولون عن الطباعة في مصر، ليزول كل اختلاف املائي بين ما يُنشَر في مصر وفي غيرها من الأقطار العربية

وانتهى الأمر بالمؤتمرين الى الموافقة على قرار اللجنة بالاكثرية .

الموضوع السادس : اقتران اسمين في تعبيرات محدثة

كانت لجنة الأصول اتخذت **بالأغلبية** القرار الآتي :

« اتفاقية سايكس — بيكو ؛ طيران مصر — السودان ؛ قطار دمشق — عمان »

درست اللجنة هذه التعبيرات ، ورأت أن النمط الأول منها فيه المفاعلة لا يحتاج الى تأويل ، لأنه مكون من جملة فيها عامل ومعمولين .

اما النمط الثاني والثالث ففي تخريجهما وجهان :

الوجه الأول : **انها على تقديرحذف حرف العطف .**

الوجه الثاني : ان الاسمين المقترنين متضايفان »

وجرت مناقشة حادة من اجل اجازة **أمثال هذه التعبيرات المستعارة من غير العربية** ، اعيدت خلالها المناقشات التي جرت في اللجنة المختصة ، وقد لخصها الاستاذ علي النجدي ناصف فقال : ذهبت اللجنة في تخريج اقتران اسمين في بعض هذه الاساليب ثلاثة مذاهب : أحدها اضافة الاسم الأول الى الثاني ؛ والآخر تسكين أواخر كل من الاسمين اعتمادا على قرار للمجمع في هذا ؛ والثالث جعل الاسمين معطوفين بلا عاطف مذكور . ثم

اردف يقول : والاحظ أن القول باضافة الأول الى الثاني لا يمكن حين يكون الاسم الأول مقرونا بالالف واللام ؛ والاحظ على التخريج الثاني ان التسكين يمكن أن يؤخذ به حين تُكثُر فيه الاسماء فحسب ، ويكون التسكين حينئذ للتخفيف . اما القول بالعطف مع حذف العاطف فهو الرأي الاشبه باللغة ؛ وقد احتج له الدكتور شوقي ضيف بنصوص تجيز ذلك؛وأُزيدُ على احتجاجه ، **الاحتجاج بأسلوب واو الثمانية** (٢٤) ، وهي واو يتقدمها سبعة معطوفات ويجيء الثامن مقرونا بالواو ، وله ثلاثة أمثلة في القرآن الكريم : الأول في سورة التوبة،والثاني في سورة الكهف،والثالث في سورة التحريم.

وسكنت المناقشات،وكاد المؤتمرون يُجمِعون على أن أمثال هذه التعبيرات العصرية المترجمة عن الاعجميات ، **تخرج على سنن العربية** ، ولكن شيوعها أوجب البحث عن تخريج لها ؛ والقول بالعطف مع حذف العاطف اشبهها بالعربية . **وأعتُبِر قرار اللجنة مجازا .**

الموضوع السابع : جواز جمع فعل على افعال من كل اسم ثلاثي

انتهت لجنة الأصول بعد مناقشة هذاالموضوع الى القرار الآتي : « يجوز **اذا لم يسعف السماع** ان يجيء جمع التكسير على افعال من كل اسم ثلاثي؛بناء على ما قرره جمهور النحاة من أن (افعالا) يطرد في اسم ثلاثي لم يطرد فيه (**أفعُل**) ، وعلى ما قرره المجمع من **اباحة جمع (فَعل اسما صحيح العين) على افعال** ، وهو ما استثناه النحاة من اطراد مجيء (افعال) في الثلاثي » .

ووافق المؤتمرون **على اجازة القرار .**

الموضوع الثامن : وزن فُعالة للدلالة على نفاية الأشياء ومتناثراتها وبقاياها

انتهت لجنة الأصول بعد مناقشة الموضوع الى القرار الآتي :

« درست اللجنة صيغة فُعالة للدلالة على نفاية الشيء وبقاياه وما تناثر منه ، وتأسيسا على ما سجلته المعاجم وكتب اللغة الأخـــرى من عشرات الألفاظ على هذه الصيغة بهذه المعاني ، وعلى ما ذكره اللغويون مـــن ان **فُعالة يدل على فضالة الشيء وما تحاتَّ منه وبقي بعد الفعل** ـ كما في ديوان الأدب وغيره ـ يجيز المجمع ما ينشأ من كلمات على صيغة فُعالة بهذه المعاني ، سواء ما كان منها في **مصطلحات العلوم أم في ألفـــاظ الحضارة** (٢٥) .

واجمع المؤتمرون على اجازة هذا القرار .

الموضوع التاسع : تعليق على تيسير دراسة النحو في التعليم العام

احيل الى لجنة الأصول تقرير عن دراسة النحو العربي في التعليـم العام ، فوكلت اللجنة الى الدكتور شوقي ضيف كتابة تعليق عليه ؛ فكتب تعليقا اجازته اللجنة ، وهو الآتي :

« من الواضح الجلي في التقرير ان ـ ما ادخلته مناهج اللغة العربية لتيسير النحو ـ **أُخِذَت فيه بطائفة من قرارات المجمع اللغوي في الـدورة الخامسة والأربعين وما قبلها** ؛ وهذا احصاء بها :

١ ـ اذا تَقَدَّم المعدود على العدد جاز تذكير العدد وتأنيثه .

٢ ـ اذا جُرّ المعدود بمِن جاز تأنيث ادنى العدد (٣ـ١٠) .

٣ ـ اذا كان العدد مضافا جاز تعريفه مع بقاء المضاف اليه منكَّرًا (الألف كتاب) .

٤ ـ المستثنى بإلاّ وخلا وعدا وحاشا منصوب دائما .

٥ ـ المستثنى بغير وسوى يُجَرّ بالاضافة وهما منصوبان .

٦ ـ الاستثناء المفرغ قَصْر لا استثناء .

٧ ـ لا يُقَدَّر العامل في أساليب الاغراء والتحذير والاختصاص ، ويُكْتَفَى بعرض صورها .

٨ ـ يقال في « لا سيما » انها للترجيح وما بعدها يُرْفَع او يُنْصَب او يُجَرّ. ولا يتعرض لتوجيه الاعراب في هذه الاحوال .

٩ ـ يُكْتَفَى في تعريف المفعول معه انه اسم منصوب تالٍ لواو بمعنى مع، لا يشترك مع ما قَبْلَه في الفعل » .

وأضافت اللجنة الى هذه البنود البند العاشر التالي :

« ١٠ ـ في مصدر الفعل الأجوف واسمي الزمان والمكان منه ، يقال فيه بجواز الفتح والكسر ، مثل مسار ومسير ومطار ومطير ـ للمصدر الميمي واسم الزمان واسم المكان » .

وهذا البند من قرارات لجنة الأصول في الدورة السادسة والأربعين ؛ أما البنود التسعة السابقة فتلتقي مع قرارات المجمع في دورته الخامسة والأربعين وما قبل ذلك ، وهناك بنود صرفية أُخِذَ فيها بقرارات سابقة للمجمع .

وشكر المؤتمرون بعد اطلاعهم على هذا التعليق للجنة الاصول جهودها الكبيرة .

سابعا : أعمال لجنة الالفاظ والأساليب

نظر المؤتمر في اعمال لجنة الالفاظ والأساليب المحالة اليه عن طريق مجلس المجمع ؛ وفيما يلي عرض موجز لمناقشاته وما اتخذه من مقررات :

اولا : الالفاظ

١ ــ المعلن اليــه

قررت اللجنة ، بعد مناقشة الموضـوع ، ما يأتي :

« مما يشيع في لغة اهل القضاء قولهم : المعلن اليه، اي الشخص الذي يصل اليه اعلان بالحكم أو بالقضية .

ويؤخذ على هذا التعبير أن لفظ المعلن مُعَدّى بالى مع أن فعله (اعلن) مُعَدّى بنفسه ، يقال : اعلن رايه ، واعلن امره .

ولكن تعدية اعلن بالى امر جُرت به اقلام بعض اللغويين منذ وقــت طويل ، اذ فسر صاحبا القاموس واللسان : عالنه بقولهما : **اعلن اليه** . هذا مع امكان ان يكون الكلام **من باب التطمين** ؛ واذاً يكون أعلن قد عُدّي بالى لأنه بمعنى أوصل .

وعلى ذلك يكون التعبير القضائي صحيحا يجري على سنن العربية وضوابطها » .

وبعد مناقشة قصيرة **وافق المؤتمرون على القرار بالاجماع** ، مــع اضافة الجملة التالية الى التعليل : « **فضلا عن ازالة الالتباس بين المعلن والمعلن** » .

٢ ــ التطويــع

ناقشت لجنة الالفاظ والأساليب الموضوع المعروض عليها وانتهـت الى القرار التالي :

« يشيع بين المعاصرين استعمال (التطويع) بمعنى **الاخضــاع والتذليل** في نحو قولهم : تطويع التلاميذ،او تطويع القاعدة ، او تطويــع

اللغة ؛ وقد يؤخذ على هذا الاستعمال أن المعجمات لم تثبت هذا المعنى لكلمة تطويع ، وانما اثبتت لها معاني أخرى كالتزيين والمطاوعة ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ ﴾ .

وفي اللغة طاع يطوع ، وطاع يطاع بمعنى : انقاد ؛ ويجوز **أن يُضَعَّف هذا الفعل الثلاثي اللازم — للتعدية** — فيصير : طَوَّعَ بمعنى : أخضع .

وإذاً يكون المصدر وهو التطويع من الفعل طَوَّع المتعدّي مؤديا لمعنى الاخضاع والتذليل والتيسير ؛ ولا اعتراض على هذا لأن الفعل الثلاثي اللازم مُتَعَدٍّ بتضعيف عينه .

ولهذا ترى اللجنة ان لفظ التطويع صحيح في المعنى الذي يستعمله المعاصرون فيه » .

وبعد مناقشة سريعة **وافق المؤتمرون على القرار بالاجماع .**

٢ — الانضباط

انتهت لجنة الألفاظ والأساليب الى القرار التالي :

« **يشيع** في اللغة المعاصرة استعمال لفظ الانضباط مرادًا به **حدوث الضبط والتزام القواعد او النظام العام ؛** ويؤخذ على هذا الاستعمال ان أمهات المعجمات العربية لم تثبته ، وانما اثبتت ضَبَطَه ضَبْطا وضَبَاطة. واذ كان الانضباط يمكن أن يكون مصدرا للفعل انضبط الذي هو مطاوع للفعل ضبط الثلاثي المتعدي — **والمطاوعة هنا تنطبق عليها الضوابط التي أقرّها المجمع في قياسية المطاوعة** — فان اللجنة تجيز لفظ الانضباط في المعنى الذي يستعمله المعاصرون » .

وقبل المؤتمرون هذا القرار بالاجماع ، بعد مناقشات حول طبيعة المطاوعة والتعدية والقياسية فيهما .

٤ ــ التصويب

انتهت اللجنة الى ما يلي :

« جاء في المعجم الوسيط : **صَوَّب الشيء : صَحَّحه** ، على معنى انه عالجه بما يجعله صحيحا .

وهناك مَنْ تَوَقَّف في هذا ، بدعوى ان تلك الدلالة ليست في مسموع اللغة ، وانما المسموع : صَوَّب الشيء : رآه أو عَدَّه صوابا (٢٦) .

وترى اللجنة ان ما سجله المعجم الوسيط من هذا الاستعمال ، لـه سنده في فقه العربية ؛ **فان التعدية تحمل معنى الجعل والصيرورة** ، كما تقول : حَقَّقْتُ الكتاب ، وصَحَّحْتُ الحديث ، وذَهَّبْتُ الاناء ؛ وعلى هذا تصويب الكلمة جَعْلُهاصوابا ؛ وذلك بادخال عنصر تصحيح عليها أو بديل يجعلها جديرة بالحكم لهابالصواب ، وهذا تَصَرُّف مجازي سائغ » .

وبعد المناقشة اجاز المؤتمرون القرار بالاجماع .

٥ ــ تصويب كلمات مزيدة بالهمز

انتهت اللجنة الى ما يلي :

« يجري في استعمال الكُتّاب قولهم : عَمَلٌ مُرْبِك ؛ وقولهم: اشهار المزاد او البيع ؛ وقولهم : هذا التصرف يُضيره بضم الياء ، وقد أُضِرَّ في هذا الحادث .

وللناقد ان يتوقف في اجازة هذه الاستعمالات لأن المسموع في افعالها **انها ثلاثية متعدية بنفسها الى المفعول** ؛ واللجنة لا ترى مانعا من اجازتها على اساس ان **افعَلَهُ بمعنى فَعَلَه** وَرَدَ منه في اللغة عشرات من الكلمات . وان صيغة المزيد انما عُدِل اليها لما فيها من الاسراع الى افادة

التعدية ، ومن قياسية مصادرها ، ويسر الضبط لماضيها ومضارعها » .

ووافق المؤتمرون على اجازة القرار بالاجماع .

٦ ــ التصفيــة

انتهت اللجنة الى القرار التالي :

« يشيع في اللغة المعاصرة قولهم : تصفية المشكلات ، وتصفية الخلاف ، وتصفية البضائع ، وتصفية الحساب، مرادا بها **الانهاء والحلّ والازالة .**

وقد يبدو للناقد المتعجل ان استعمال هذا المصدر بهذا المعنى غير جارٍ على سنن العربية؛ لأن معنى الصفاء في اللغة هو الخلوص من الكدرة والخلاء مما يشوب ، فيقال : أَصْفَى الشاعر : انقطع شعره ، واصفت الدجاجة : انقطع بيضها ، واصفى الأمير الدار : اخلاها .

ولما كان الاصفاء والتصفية تجمعهما مادة واحدةهي (صفا)،فانه **يجوز قياس صفى على أصفى بمعنى ما تؤول اليه التصفية ،** وهو الانهاء والاخلاء والازالة .

ولهذا ترى اللجنة أن التصفية في معناها العصري بمعنى الازالة والحلّ والانهاء صحيحة ، ولا مانع من تداولها في اساليب الكلام » .

وبعد مناقشة وجيزة اجاز المؤتمرون الكلمة .

٧ ــ الانشطة

انتهت اللجنة الى القرار الآتي :

« يشيع في اللغة المعاصرة استعمال « الأنشطة » مرادا بها **الدلالة على جملة الاعمال المتنوعة التي يمارسها المرء او الجماعة في الحياة العامة**

من رياضية واجتماعية وثقافية .

وقد يؤخذ على هذا الاستعمال أن الأنشطة جمع نشاط ، وهو مصدر، والأصل في المصدر الا يثنى ولا يجمع ، لأنه يدل على القليل والكثير ، ثم ان جمعه في حالة جوازه على صيغة افعلة غير مسموع .

واللجنة ترى اجازة التعبير على اساسين :

الاول : ان جمهرة علماء اللغة **يجيزون جمع المصدر اذا تعـــددت انواعه ؛** والنشاط متعدد الانواع .

والآخر : ان جمهرة علماء التصريف **يجيزون فعالا على افعلة جمع قِلّة،** هذا وقد سبق للمجمع ان اصدر قرارا يجوِّز فُعالا على أَفعِلة جمع قلة » .

ودارت مناقشات انتهت باجازة القرار بالاجماع .

٨ ــ هذا عامل كسول

ناقشت اللجنة الموضوع واتخذت القرار التالي :

« يُخَطِّىء بعض الباحثين مثل هذا التعبير ، ويقولون ان الصواب فيه كَسِلٌ او كَسْلان ، لأن المعجمات اثبتت لفظ الكسول بين اوصاف المؤنـــث دون المذكر .

درست اللجنة هذا ثم انتهت الى ان التعبير صحيح بدليلين :

(١) ان صيغة فعول **جاءت كثيرا مشتركة بين المذكر والمؤنث** مثل : غَيور وكَنود وعَضوب ؛ ولا مانع ان يكون « الكسول » مثلها، اذ الكَسَل في اصله من المعاني المشتركة بين الجنسين .

(٢) **أنه قد ثبت** ورود لفظ الكَسول عينه **وصفا للمذكر في بيتين مـــن الشعر** وهما : قول الشاعر الجاهلي أُحَيْحَة بن الجُلاح (كما فـــي

الصحاح مادة زمل) :

لا وابيك ، ما يغني غنائـــي　　　من الفتيان زُمَّيْلٌ كسولُ

وقول الراعي في ملحمته :

طال التقلب والزمان ورابه　　　كسل ويكره أن يكون كسولا

وعلى هذا يكون مثل قولهم : عامل كسول ، صحيحا لا مانع مـــن استعماله » .

وبعد المناقشة **وافق المؤتمرون بالاجماع على اجازة القرار .**

ثانيا : الاساليب

١ ــ ما هي الاسباب ــ ما هو رايك ــ من هو مؤسس الدولة ؟

انتهت اللجنة الى القرار التالي :

« يخطّىء بعض نقاد اللغة ما تجري به الاقلام في اللغة المعاصرة من امثال هذه التعبيرات التي يُستَعمل فيها الضمير بعد (مـــــا) أو (مـــن) الاستفهاميتين ؛ وحجّتهم في ذلك　ان الضمير لا مرجع له هنا بحســـب الظاهر .

وقد انتهت اللجنة بعد دراسة المسألة الى انه يمكن تخريج هـــذه التعبيرات ونحوها بأحد الأوجه الآتية :

١ ــ ان يكون **الضمير ضمير فصل** ليدل على ان ما بعده خبر عما قبله .

٢ ــ أن يكون الاسم الظاهر **بدلا من الضمير** قبله .

٣ ــ أن يكون الضمير **مبتدأ ثانيا** وما بعده خبر والجملة خبر المبتدأ الأول.

ولهذا ترى اللجنة أن هذه التعبيرات المذكورة فيما يستعملـــه المعاصرون **صحيحة** » .

ووافق المؤتمرون على **اجازة القرار بالاجماع** .

٢ ـ دلالة الحرف (عن) في محدث الاستعمال

انتهت اللجنة الى القرار التالي :

« يجري في الاستعمال مثل قولهم : تقرير عن مشكلة التعليم الأساسي ، ومحاضرة عن تربية الأسماك ، وحلقة اذاعية عن النقد الأدبي .

ويلاحظ أن (عن) في هذه التعبيرات غير دالّة على **(المجاوزة) التي هي المعنى الأصلي للحرف** في ظاهره .

وقد استبان للجنة أن (عن) في هذه الاستعمالات ونحوها تدلّ على **معنى الاتصال والتعلق والارتباط**، وقد نُبِّه فقهاء اللغة الى أن دلالة (عن) الأصلية على (المجاوزة) تتضمن معنى : (الالصاق) أو (السببية) أو (الظرفية) بمعنى (في) وقد فُسّرت بذلك شواهد من المنثور والمنظوم في فصيح الكلام .

فلهذا ترى اللجنة اجازة أمثال تلك الاستعمالات » .

وبعد مناقشات حول هذا القرار **أعلنت موافقة المؤتمرين على اجازته بالاجماع** .

٣ ـ تظريف كلمات في محدث الاستعمال

انتهت اللجنة بالمناقشة الى القرار التالي :

« يشيع في اللغة العصرية ايقاع كلمات موقع الظرفية المكانية ، **على حين أنها ظروف مختصة غير مبهمة** ، وذلك مثل : طيّ ، ضِمن ، باطن ، أدناه ، رَفق (بفتح الراء) ، وسَط (بفتح السين) فيقولون : **أرسلته طيّ**

كتابي ، **قدّمته** ضِمنَ اوراقي ، رفق هذا مذكرة ، جلس وَسُط الدار .

ويرى بعض الباحثين ان هذه الاستعمالات لا توافق اللغة ، **لانهــا** ظروف مختصة ، **لا بد ان تُسْبَق بحرف الجر ؛** وقد بحثتها اللجنة وانتهت الى اجازتها بناء على أن النحاة قد أجازوا من قبل كلمات منها : جهة ، ووجه ، وناحية ، وداخل ، وخارج ، **على اساس انها شبيهة بالجهات في الشيوع،** وأنها لا تخلو من الابهام وعدم الاختصاص ، على الاتساع ، سواء اكانت الاسماء مصادر ام كُنَّ غير مصادر » .

واجاز المؤتمرون هذا القرار بعد مناقشته ، وشكر الرئيس للّجنــة ولمقرّرها جهدهم الطويل .

ثامنا : اعمال لجنة اللهجات

عُرضت اعمال لجنة اللهجات على المؤتمر ، وكان مجلس المجمـع احالها اليه ، بعد تعديله بعض ما فيها وموافقته عليها .

وكانت لجنة اللهجات درست جملة من المسائل ، وانتهت الى قرارات؛ وفيما يأتي موجز لما تم فيها :

١ ــ الظواهر اللغوية للهجات العربية القديمة

كانت اللجنة قد عُرضت على مجلس المجمع ومؤتمره في الدورات:٤٢، ٤٤ ، ٤٥ مجموعات من المصطلحات اللغوية في اللهجات العربية القديمة ، فووفق على طائفة منها ، **كالتَلْتَلة والشُنْشُنة والقُطْعة** . ورات اللجنــة الانتقال من مرحلة رصد الظواهر الجزئية ، الى مرحلة رصد الظواهــر الكلية لقبيلة بعينها ...

وقد قامت اللجنة **بجمع ما يتعلق باللهجات القديمة في لسان العــرب** ونقل نصوصه في جزازات ، وصُنّفت المادة المجموعة بطريقة تُيسّر الانتفاع

بها في البحث ؛ وكان التصنيف وفقا لمستويات اللغة بالترتيب الآتي :

ما يتصل بعلم الاصوات ، وما يتصل بعلم الصرف ، ثم ما يتصل بعلم النحو. وفي هذا العام رجعت الى ما وجدته من تلك الجزازات . وشرعت في استخلاص **الخصائص** مستأنسة بما كُتِب من دراسات وبحوث في القديم والحديث ...

وقد انتهت اللجنة الى قرارين في **لهجتي طيء وهذيل** ، مصحوبين بالمذكرات المقدمة من الدكتور رمضان عبدالتواب في خصائص لهجة طيء،والدكتور احمد علم الجندي في خصائص لهجة هذيل .

اما القرارات فهي :

أ ــ الظواهر الصوتية في لهجة طيء هي :

١ ــ **الميل الى التخلص من صوت الهمزة** ، فتُبْدَل حرفا من جنس حركة ما قبلها مثل : يؤاخي ، ويؤاكل ، ويؤاسي،فتصير : يواخي ، ويواكل،ويواسي ؛ أو يبدلونها هاء في بعض المواضع، يقولون : هِنْ فَعَلْتَ ، يريدون إِن فعلت .

٢ ــ **جهر السين والصاد** ، بقلبهما زايا ، فيقولون في سَقَر وصَقْر : زَقَر وزَقْر .

٣ ــ **قلب الياء والواو الفا** ولو لم يكن ما قبلهما مفتوحا فيقولون : بَقَى وبَقَيْت مكان : بَقِيَ وبَقِيْت .

٤ ــ **قلب الف المقصور ياء** فيقولون : افعي وحبلي مكان : افعى وحبلى .

ب ــ الظواهر الصوتية في لهجة هذيل اهمها :

قلب الف المقصور ياء **عند اضافته الى ياء المتكلم** ، ثم تدغم الياء في الياء مثل : فتيَّ وهويَّ.وبعد قراءة المذكرات المشار اليها جـــرت بعض المناقشات حولها،ثم أعلن الرئيس الشكر للجنة على جهودها .

ب ــ ما بين الفصحى والعامية من الوحدة في الألفاظ

تُعنَى لجنة اللهجات بالحديث منها كما تُعنَى بالقديم ؛ وقَدَّمت هذه السنة الى المؤتمر طائفة من الالفاظ العامية التي تجري في البيت والمصنع والسوق والحقل ، مستهدفة توثيق علاقتها بالفصحى ، والتنبيه الى انه لا وجه لاغفالها او الترفع عنها في لغة الكتابة، وهي تُعايِش الحياة اليوميـة في التفاهم والتحادث والخطاب .

وتأمل اللجنة أن تواصل دراستها لمجموعات متتابعة من الالفاظ،وَصْلاً لجهود الباحثين في مختلف البلاد العربية خلال قرن مضى في ابراز العروة الوثقى بين الفصحى والعاميات في أوطان العروبة .

وَقَدَّمت اللجنة قائمة بمئة كلمة عامية ، سجلتها معجمات الفصحى في مفرداتها ؛ وفيما يلي بعض منها :

العَيِّل : الولد
الشَّجِيْع : الشُجاع
الشبّ والشبّة : الشابّ والشابّة
السُّبوع : الاسبوع
الرِّيحـــة : الرائحة
حَرَّج : حَرَّم وضَيَّق
زَوَّق : زيَّن
المراجيح : الاراجيح

محصور : حابس البول

السُّفرة : المائدة

الزُّور : القوة والشدة

الجُرْسَة : الفضيحة وسوء السمعة

الأطرش : الأصم

حَوَّش : جمع

الشطّ : الشاطىء

بَيَّاع : بائع

حُوَّد : مالُ

الصيغة : المصوغات

الضّنا : الولد والنسل

هَجَّ : شرد ونفر

وجرت مناقشات طريفة حول بعض الألفاظ ودورها في الشعر القديم؛ وشكر الرئيس للجنة جهودها آملا مواصلتهافي سبيل التقريب بين لغة الناشئين التي تمرسوا بها وما يُعْرَض عليهم في الكتب المدرسية في مرحلة التعليم الأساسي .

تاسعا : جلسة الختام

عقد المؤتمرون جلستهم الختامية صباح يوم الاثنين في الرابع عشر من جمادى الأولى ١٤٠٠ هـ وفق الحادي والثلاثين من آذار (مارس) ١٩٨٠م، عُرِضَ فيها الدكتور مهدي علاّم،أمين المجمع،ما انجزه المؤتمر خلال هذه الدورة ؛ثم تليت اقتراحات الأعضاء وملاحظاتهم حول الجهود المبذولة في سبيل تعريب التعليم الجامعي،وتوحيد المصطلح العلمي ، وحول مؤتمرات التعريب التي تدعو اليها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ؛ وتساءل

بعض الاعضاء عمـــا تم بالتوصيات الســابقة للمؤتمر ، من اجل اعـــداد العاملين بالاذاعة المسموعة والمرئية ، وما يتعلق منها بلغة المسرحيات والتمثيليات والصحف ، والدعوة الى الاقتصار على **استخدام لغة فصحى** يسهل فهمها على العربي من مختلف المستويات وفي جميع اقطار العروبة .

وطالب بعض الاعضـاء **ببذل جهود لتكوين هيأة ذات سلطات نافـــذة** تقوم بالتنسيق مع اتحاد المجامع العربية بتوحيد المصطلح العلمي ونشره في انحاء العالم العربي .

وبعداقرار التوصيات النهائية للمؤتمر ، تقرَّر تبليغها الى ســائـــــر المجامع العربية،والى كل من اتحاد المجامع،والجامعات،وجامعة الـــــدول العربية،والمنظمات الاخرى،ووزارات التربية والتعليم،والثقافة والاعلام في جميع البلاد العربية .

ثم تبادل عدد من الاعضاء كلمات وداعية ، مبدين أسفهم لافتقادهم وجوها كريمة من اعضاء المؤتمر غابت عنهم في هذه السنة .

والقى الدكتور عز الدين عبد الله كلمة واعية،ضَمَّنها الأسى لعـــدم التئام شمل جميع العاملين في خدمة العربية ، تبعا للظروف السياسية المؤلمة التي فَرَّقت كلمة العرب وشتّتت صفّهم ؛ ورجا أن تتبدل هذه الظـــــروف لتساعد جميع اعضاء المؤتمر على حضور المؤتمر القادم .

ووقف الدكتور اسحٰق موسى الحسيني ليشكر للقائمين على المؤتمـــر بالغ حفاوتهم ، وليشاطرهم الاماني في مستقبل مضيء،عسى أن يكـــون قريبا ؛ فاذا بأبيات من الشعر تنثال عليه فيقول :

في كل عام لنا في مصرَ مادبـــــــةٌ
غنيـــةٌ بغــذاء الـــروح والجسدِ

فلتبــقَ مصرُ على الأيــام شامخةً
تزداد خيرا بــلا حــدّ ولا عــددِ
وليَبْــقَ مجمعنــا للعُــرب مئذنةً
تُذاع من فوقها الفصحى الى الأبدِ

وقبل أن تلتهب الأكف بالتصفيق استحسانا ، لاحظ المؤتمرون دمعتين تتلألآن في عيني الدكتور الحسيني ، وهو يتطلع الى مقاعد ابناء الأقطــار العربية التي شغرت بغيابهم ؛ فكانت الدمعتان أبلغ من اي كلمة قيلت في حال الأمه العربية وما آل اليه من تشتت وفرقة في السياسة ؛ حال على بالغ سوئه ما كان ينبغي أن يبدو في مؤتمر لا هدف له الا خدمة لغة الذكــر الحكيم .

ثم اعلن الدكتور ابرٰهيم مدكور، رئيس المؤتمر، ختام الدورة السادسة والأربعين ، متمنيا للأعضاء كل خير، آملا اللقاء بهم في الدورة القادمة التي ستعقد ان شاء الله في الأسبوع الثاني من شباط (فبراير) سنة ١٩٨١ .

عدنان الخطيب

●**●

(١) القى البحث الدكتور مهدي علام نيابة عن صاحبه ، وقد عاقته ظروف صحية عن متابعة اعمال المؤتمر .

(٢) الاية ٢ من سورة الحج ٢٢ .

(٣) الاية ١٨ من سورة المزمل ٧٣ .

(٤) وردت لفظة السماء في القرآن الكريم عشرات المرات ، وصفت كلها بمؤنث ، الا في موضعين ، احدهما المسألة المبحوث فيها .

(٥) الاية ٩ من سورة الحجرات ٤٩ .

(٦) جاء في تفسير الامام النسفي في هذه المسألة : « وقيل (مرضعة) ليدل على ان ذلك الهول اذا حدث وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته من فيه لما يلحقها من الدهشة . اذ المرضعة هي التي في حال الارضاع ملقمة ثديها الصبي ، والمرضع التي شانهـا ان ترضع وان لم تباشر الارضاع في حال وصفها به » انظر ص ٤٢٤ ، ج ٣ من مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، القاهرة ١٩٦٧ .

(٧) انظر القسم الاول من هذا البحث الممتع في أبحاث مؤتمر الدورة الخامسة والاربعين ؛ وسبق للمجلة أن نشرت وقائع هذا المؤتمر في العدد المزدوج(٣ — ٤).

(٨) طُفَيل ، وزن زُبير ، اسم ابن زلال الكوفي ؛ كان يدعى طفيل الاعراس ، لانه يأتي الولائم من دون دعوة (القاموس المحيط) .

(٩) ليست الكلمة في عامية اهل مصر فحسب ، فهي وأمثال لها في عاميات بلاد الشام واقطار أخرى ؛ وهي وان بدا انها مولّدة ، فقد جرت منذ القديم على السنة الفصحاء وعلى اقلام كبار الكتاب .

(١٠) من هذه النصوص يبين ان الرسم الصحيح لكلمة (سورية) الاسم الذي عرفت به بلاد الشام ، يكون بالتاء المربوطة ، وهي مضمومة السين مخففة الياء ، وهو الرسم الشائع بين الكتاب في سورية نفسها . كما أن الحكومة السورية تلزم به دوائرها (بلاغ ٢١/٥/١٩٥٥ وتعميم ٦/١/١٩٦٢) ، خلافا لما جرى عليه الكتاب في مصر . وقد اشار المرحوم عبد القادر المغربي الى خطأ رسم سورية بالالف (انظر كتابه عثرات

اللسان ، دمشق ١٩٤٩) وكان الامير مصطفى الشهابي من المتعصبين الى كتابة سورية بالتاء المربوطة ، تبعا للسليقة العربية ، وتقيدا بقرار مؤتمر المجمع الذي يرجع الرسم الصحيح (انظر كتابه المصطلحات العلمية ، دمشق ١٩٦٥ — ومحاضر المؤتمر في دورته ٢٨) .

(١١) يقول فيليب حتي أن اسم سورية يوناني (أنظر تاريخ سورية ص ٦٢ ج ١ بيروت ١٩٥٠) ويربط هرتزفلد اسم سورية بكلمة آشور ، أو اثورا (انظر مجلة مجمع دمشق مج ٢٢ ص ١٧٨) والمؤرخون السريانيون ينسبون سورية الى سورس ، أو كورش ، ملك فارس ومادي (انظر كنيسة انطاكية للبطريرك يعقوب . دمشق ١٩٧١) .

(١٢) ورد اسم سورية في بحث الاستاذ هارون بلالف تبعا للرسم الشائع في مصر.ومما هو جدير بالتنويه أن الاستاذ وهيب دياب كان اشار في نقده معجم تهذيب اللغة للازهري، الذي حققه الاستاذ هارون ، الى هذا الامر (انظر « المجلة العربية » السعودية ، عدد ٥ سنة ٢ / ١٩٧٧) .

(١٣) هذا هو رسم الكلمة في النص الاكثر شهرة والاصح ، وهو المعتمد في كتاب «مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة » ، لمحمد حميد الله، تحت رقم ٢٦ — القاهرة ١٩٥٦ . ومما هو جدير بالتنويه أن الحسين ملك الاردن أعلن في نيسان (ابريل) سنة ١٩٧٧ أن أصل كتاب النبي (ص) دخل في حوزته بعد أن عرضه على خبراء الاثار والمخطوطات العالميين وأقرّوا بصحته . وفي رسمه اختلاف بيّن (انظر مجلة اكتوبر القاهرية عدد ٢٥ الصادر في ١٧ ابريل ١٩٧٧) .

(١٤) أنظر جماع ذلك كله في شرح الامام النووي لصحيح مسلم ص ١٠٩ ج ١٢ القاهرة ١٩٣٠ — وجميع المصادر التي تضمّنت النص على اختلاف الروايات مشار اليها في كتاب حميد الله السابق ذكره .

(١٥) أنظر ما جاء في اللسان وما جمعه الزبيدي في التاج،بينما قال ابن فارس « الهمزة والراء والسين ليست عربية . ويقال أن الاراريس : الزارعون،وهي شامية ! » وأتى المعجم الكبير على ما ذكره ابن فارس،وعلى ما ورد في المعجمات الاخرى ، وكثير

منها شـطلت صحته النظر !

(١٦) اورد الطبري في تاريخه خبر كتاب النبي الى هرقل،واثبت نصه بصيغة : « وان تتول فان اثم الأكارين عليك » أنظر ص ٦٤٩ ج ٢ من طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦١ .

(١٧) جاء في الرواية التي اثبتها القاسم بن سلام : « .. وإلاّ فلا تُحُلْ بين الفلاحين وبـين الاسلام » ثم قال : « لم يرد الفلاحين خاصة ولكنه اراد اهل مملكته جميعا »، أنظـر ص ٢٢ ج ١ من كتاب الاموال . القاهرة ١٣٥٣ .

(١٨) انظر شرح الامام النووي السابق ذكره آنفا — وقارن مع ما اورده ابن منظور فـي اللسان من الاروسية. وكان أبو الفتح الشهرستاني ذكر أن النصارى افترقوا اثنتين وسبعين فرقة،وذكر أهم الفرق وما انشعب منها دون أي اشارة الى الاروسية ! غـير انه نقل بعض اقوال آريوس قائلا: « وهذا اريوس قبل الفرق الثلاث ، فتبرأوا منه لمخالفتهم اياه في المذهب »،انظر كتاب الملل والنحل ص ٢٠٨ ج ١ القاهرة ١٩٥٦ .

والمّ محمد أبو زهرة بمختلف الفرق والمذاهب النصرانية،وبراي آريوس، مشيرا الى انتشار هذا الراي في مصر والشام ومقدونية . انظر « محاضرات في النصرانية » القاهرة ١٩٦١ .

(١٩) عاش القس آريوس في الاسكندرية في اوائل القرن الرابع بعد الميلاد ، وأعلن اراءه في طبيعة المسيح حوالي سنة (٣١٨) ، فعارضه فيها كبير الاساقفة،ودعا الـى حرمه ؛ غير أن اعوانه اختلفوا فيه ، وعرض الامر على الامبراطور قسطنطين بعـد تنصّره،فدعا الى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ، وانتهى المجمع الى حرم آريوس واتباعه ؛ فنفاه الامبراطور ثم عفا عنه ؛ ويقال انه مات مسموما سنة ٣٣٦ (أنظر ول ديورانت في « قصة الحضارة » ج ٣ مج ٣ القاهرة ١٩٥٥) .

ولما مات قسطنطين سنة ٣٣٧ خلفه على العرش في الشرق ابنه قسطنس ، وكان متعاطفا مع الاروسيين ، فازداد انتشار المذهب ورسوخه ؛ ولم يقتصر انتشاره على المشرق فحسب بل انتشرفي الغرب أيضا ، وكان الخلاف حول الاروسية شديدا في اسبانيا،قبيل فتح العرب لها (أنظر قصة الحضارة المرجع السابق ذكره ج ١ مج ٤)

(٢٠) حدث من عهد قريب أن أعلن رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) في وصية طريفة له أتّباعه آراء اريوس . انظر مجلة الحوادث البيروتية العدد ١٠٨٤ الصادر بتاريخ ١٩ اغسطس ١٩٧٧ . وانظر ماأعقب اعلان هذه الوصية من ردود وبحوث حول الاروسية في مختلف المجلات العربية — وانظر ما علق به على هذاالموضوع أنـــور الجندي في كتابه « صفحات مضيئة من تراث الاسلام » ص ٣٧١ القاهرة ١٩٧٩ .

(٢١) مؤرخو النصرانية في غالبيتهم يوجزون البحث في العقيدة الاروسيةومدى انتشارهـــا باعتبارها بدعة تناقض الايمان الكنسي لسنة ٣٢٥ م ؛ غير أن واحدا من كبار الاحبار المعاصرين اعترف في تاريخه بأن (الاريوسية التي نفذت الى الغرب باستيـــــلاء البرابرة ، لم تكن راسخة شأنها في الشرق).انظر « الدرر النفيسة في مختصر تاريخ الكنيسة » للبطريرك برصوم ج ١ ص ٥٤٦ حمص ١٩٤٠ . وفي كتاب « تاريـــــخ العالم » الذي نشره جون ا. هامرتن بالانكليزية،واشرفت على ترجمته الى العربيـــة وزارة التربية بمصر بدءا من سنة ١٩٤٨،تجد تفصيلات هامة في هذا الموضوع ، كما تجد في كتاب « روما وامبراطوريتها »،لاندريه ايمار وجانين اوبويه،الذي ترجمه يوسف اسعد داغر وفريد داغر،تحليلات قيمة ، وهما يطلقان لفظة الآريّة على الاريوسية . بيروت ١٩٦٤.

(٢٢) ترجم الزركلي للشاعر في اعلامه وقال فيه : « كان فيه اهتزاز وترفع ، قال من أبيات يمدح بها اسحٰق بن ابرٰهيم :

ان أكن مهديا لك الشعر اني لأبنُ بيت تُهدى له الاشعارُ

واشار الزركلي الى المصادر التي اعتمدها في الترجمة للمهلبي،وذكر الموشح للمرزباني وتاريخ بغداد للخطيب،وسمط اللآلىء،ورغبة الآمل،ويتيمة الدهر (الاعلام ج ١٠ ص ٢٤٢) .

(٢٣) تكاد تكون غالبية الضوابط المذكورة هي المعتمدة في سائر الاقطار العربية ، اما مثـا (شؤون ومسؤولية) فما زالت في اقطار كثيرة تكتب الهمزة فيها على واو علي الاصل

(٢٤) اشارة الى (الواو) التي سبقت كلمة ثامنهم في الآية ٢٢ من سورة الكهف .

(٢٥) من الكلمات التي يجيزها هذا القرار ، الاكالة والجرادة والجراشة والجزارة والحلاقة والخياطة والرصافة والقلافة والكسارة .

(٢٦) أنظر مقال الاستاذ صبحي البصام في الجزء الاول من المجلد الرابع والخمسين من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٧٩ .

مع كتاب "الفرج بعد الشدة" للتنوخي

للدكتور ابرهيم السامرائي

مصنف الكتاب هو التنوخي ابو علي الحسن بن علي القاضي المتوفى سنة ٣٨٤ هـ ، صاحب « نشوار المحاضرة » . وكتاب « الفرج بعد الشدة » نشر غير مرة نشرات لم تنل شيئا من الضبط والعناية ، شأنه شأن « النشوار » .

غير ان الاستاذ عبود الشالجي المحامي قد اضطلع بنشر « النشوار » بادىء ذي بدء ، ثم اعقبه بنشر « الفرج بعد الشدة » . وليست بي حاجة الى بيان فضل هذه النشرة المحققة ، فقد اغناها الاستاذ الشالجي بفوائد سنية ، واخرج الكتاب بهيأة حظيت بالاحسان التام والعناية الفائقة .

وكتاب « الفرج بعد الشدة » من كتب الادب العامة لما فيها من أدب كثير ، فقد اشتملت على طائفة من الشعر ، ومثلها من عيون النثر والمُلَح والنوادر . ثم ان الكتاب مما لا يستغني عنه المؤرخ لعلاقة الاخبار والقصص المذكورة بأحداث تاريخية معروفة مشهورة . وهذا الضرب من التصنيف كثير في المكتبة العربية التي تتصل بالتراث المشترك بين الأدب والتاريخ . ولعل هذا النمط غير بعيد مما عرفناه في كتابه (نشوار المحاضرة) من حيث الجمع بين فوائد عدة .

ان موضوع « الفرج بعد الشدة » معروف من اسمه ، فهو عرض

لأحداث واخبار وقصص عرضت فيها الشدة والكرب لجماعة من الناس، ثم هيأ الله لهم فرجا قريبا خَفّف عنهم الكرب فقرّت نفوسهم .

قلت: ان الأستاذ الشالجي المحقق قد أعان الدارسين فهيأ لهم كتبا فيها جهد كبير وفوائد سنية . ولكني وددت أن اقف على اشياء يسيرة فاقول فيها ما اقول :

الجزء الأول :

١ ــ جاء في الصفحة ٦٨ قول المصنف :

« عُلِمَ ان البُشرى الأَوَّلة تمنع من ذبح اسحاق » .

عَلّق الاستاذ المحقق على قول المصنف « الأَوَّلة » فقال :

« تعبير بغدادي بمعنى الاولى ، اما التعبير البغدادي الآن فهو « الاولية او الأولانية » .

اقول : لقد وجدتُ الاستاذ المحقق يفزع كثيرا الى وصف طائفة من المواد اللغوية بقوله : « تعبير بغدادي » ؛ ولا أدري كيف استطاع ان يتوثق من عامية بغدادية في القرن الرابع الهجري ، وابن لنا من المظان التي نعرف فيها هذه الشوارد العامية التي وصفت بـ « التعابير البغدادية » ؟

اقول : كأن دليل الاستاذ ما ذكره من التعبير البغدادي المعاصر « الأولية أو الأولانية » ؛ ولا ارى ان في ذلك ما يعين على معرفة لسان دارج قديم ، فان لم يكن هذا فما الحاجة الى الاكثار من الوان العامية البغدادية المعاصرة في هذا الكتاب؛ ايكون ذلك من باب الموازنة ام يكون للفائدة التاريخية ؟

وقد وجدت ان كثيرا مما وصفه الأستاذ المحقق بقوله : « تعبير بغدادي » هو من الكلم العام الشائع الذي نجده في مصنفات شامية او مصرية أو غيرها كما سنرى .

اقول : ليس من الصحيح أن ننزع الى القول بالعامية قبل أن نتوثق مما في عربيتنا الفصيحة . جاء في ترجمة « وأل » في « لسان العرب » :

وحكى ثعلب : هن الأُوَّلات دخولاً والآخرات خروجا ؛ واحدتها الأُوَّلة والآخرة . ثم قال : ليس هذا اصل الباب، وانما أصل الباب الأول والاولى كالأطول والطولى .

وجاء في ترجمة « صَمَحْمَح » في « لسان العرب » :

قال ابن جني : الحاء الأولى من « صَمَحْمَح » زائدة ، وذلك انها فاصلة بين العينين ؛ والعينان متى اجتمعتا في كلمة واحدة مفصولا بينهما ، فلا يكون الحرف الفاصل بينهما الا زائدا،نحو عَثَوْثَل وعَقَنْقَل وسُلالِم وخَفَيْفَد ، وقد ثبت ان العين الاولى هي الزائدة ، فثبت أن الميم والحاء الأوليتين في « صَمَحْمَح » هما الزائدتان ، والميم والحاء الاخيرتين هما الأصليتان ؛ فاعرف ذلك .

اقول : وهذا يعني ان « الأُوَّلة » لغة فصيحة وليس تعبيرا بغداديا .

٢ ــ وجاء في الصفحة ٨٠ من قول المصنف ذكر « بختنصر » فعلق المحقق بقوله : بخت نَصَّر او نبوخذ نُصَّر ٦٠٤ ــ ٥٦١ ق.م ، ملك بابل، اغار

على مصر ، وفتح اورشليم . . . . . . (أنظر المنجد) .

اقول: ليس من الأصالة العلمية ان يُوَثَّق العَلَم التاريخي ، وهو مشهور في مظانه الموثقة ، بكتاب « المنجد » !

٣ ــ وجاء في الصفحة نفسها قول المصنف :

« وجا بدانيال » ، فعلق الأستاذ المحقق بقوله :

« جا » أصلها « جاء » ، حذفت الهمزة على طريقة البغداديين في حذف الهمزة في آخر الكلمة ، قال الشاعر :

عُشِيَّةَ جا أهلُ العراق كأنهم سحابُ خريف صَفَّقَتْهُ الجنائبُ

(العقد الفريد ٤ / ٣٤٤)

اقول : الم يكن من الاجود والأولى ان تعاد الهمزة الى الفعل « جا » فيكون « جاء » ؟ وذلك لعلمنا الاكيد ان جمهرة النساخ في المخطوطات كلها تتخفف من رسم الهمزة في اواخر الكلمات . رايناهم يكتبون « الادبا » و « الالبّا » و « السما » و « البيغا » وكثيرا غير هذا بحذف الهمزة . ومن المعروف ان هذه من الأسماء الممدودة، ومَدّها اكثر من قصرها ، وان كان القصر جائزا وواردا ولا سيما في الشعر ، فأعيدت الهمزة الى هذه الكلمات عند نشر الكتب .

ثم ان حذف الهمزة الاخيرة غير خاص بالبغداديين ، فهو أمر شائع في بلاد العرب عامة، في العربية الفصيحة والالسن الدارجة قديما وحديثا ؛ وكتب القراءات وكتب الادب خير شاهد على هذا .

ثم ان استشهاد الأستاذ المحقق بالبيت دليل ضعيف؟ذلك ان الشاعر ممتحن بالوزن،وحذف الهمزة يفي بالوزن وابقاؤها يُخِلّ به .

ولا ادري كيف جاز للمحقق ان يُعُدّ قول « الشاعر » على طريقة البغداديين وهو مجهول ؟ اليس من الجائز ان يكون اندلسيًّا او مصريًّا او شاميًّا ؟

٣ — وجاء في الصفحة ٨٣ قول الأستاذ المحقق في التعليق على كلمة « الفرث » :

« الفرث السرجين ما دام في داخل الكرش » .

اقول توخى الأستاذ المحقق ان يكون عمله مفيدا غنيا بما يحتاج اليه القارىء وما قد يكون فيه غنى عنه . وما اظن ان هذه الفائدة تدخل في جملة اضافاته الممتعة .

٤ — وجاء في الصفحة ٨٣ حاشية طويلة استهلكت صفحة وشيئا من صفحة عن « أبي سفيان » .

اقول : « الأصل في التعليق والحواشي ان تكون مما يفيد، كأن يكون التعريف برجل غير معروف لدى جمهرة القراء ، او أن اسمه من باب المشتبه، او انه عرض له تصحيف فأفسده ؛ وفي هذه الأحوال يكون عمل المحقق من الاعمال الجليلة . اما ان يكون تعريفا بعَلَم من المشاهير، كأبي سفيان، فليس هذا مما يفتقر اليه الدارس الطالب للفوائد . واذا كان من تعريف لهذا المشهور، افلا كان من الحق ان يُكتَفَى بالقليل، مع ذكر المصادر الضرورية المتقدمة لا المتأخرة ؟ ثم ان الأستاذ المحقق بعد هذه البسطة الطويلة عن « أبي سفيان » ترك المادة غفلا من المصادر .

٥ — وجاء في الصفحة ٨٥ حاشية للمحقق عن كلمة « المنافق » ذكر فيها علاقة الاسم بالنافقاء، وهي جحر اليربوع ... ...

ثم اعتمد في قوله هذا على « المنجد » ؛ الم يكن من المفيد ان يرجع الى « لسان العرب » فيجد فيه « اليربوع » و « نافقاءه » ، ثم يجد فيه معنى « المنافق » في القرآن والحديث ، كما يجد فيه انه من المصطلح الاسلامي ؟ وفي مجموع هذا فوائد لغوية وتاريخية .

٦ ــ وجاء في الصفحة ٩٢ في تعليق المحقق على « اليقطين » قوله :

اليقطين واحدته يقطينة وهو كل ما لا ساق له من النبات كالقثّاء . . . . . .

اقول : اليس من العلم ان يرجع الى « المنجد » في مادة قديمة هي « اليقطين » . ومن فوائد المحقق في هذه الكلمة اشارته الى ان القرع المستطيل يسمى في بغداد الآن : « الشجر » ، وفي لبنان نوعان هما الكوسة والقرع .

اقول : وفاته ان يشير الى ان « اليقطين » بهذا اللفظ ما زال معروفا لدى القرويين في جنوب العراق،ولا يعرفون غيره من الاسماء.

٧ ــ وجاء في الصفحة ٩٣ قول المصنف :

« كهيأة الفرخ الممعوط الذي ليس له ريش » .

فعلق المحقق بقوله :

الممعوط الذي سقط شعره ؛ وعامة بغداد يكنون عمن اوغَلَ في الشر والحيلة بقولهم : « ذيب امعط » .

اقول : لا ارى مناسبة كبيرة تستدعي ان يشار الى قولة البغداديين ، وان كان غير البغداديين من العراقيين وغيرهم يعرف « الامعط » .

٨ ـ وجاء في الصفحة ٩٨ قول المصنف :

ولكن أُطْلِهِ بِغِرا ...

وعلق الأستاذ المحقق على كلمة « الغرا » فقال : مادة لاصقة، ما زال هذا اسمها في بغداد .

اقول : ان « الغرا » أو « الغراء » معروف، والاسم نفسه في كثير من بلاد العرب في عصرنا هذا .

٩ ـ وجاء في الصفحة ٩٩ قول المصنف :

قال : حدثنا أبو عبد الله احمد بن ابي دؤاد ....

اقول : ليس في العربية مادة « داد » ؛ وعلى هذا ليس فيها « دؤاد »، بالهمز، من الاعلام ، والصواب : « دُواد » بالواو . وعرض هذا الوهم لكثير من المحققين والناشرين .

جاء في « الاشتقاق » لابن دريد ص ١٦٨ قوله في الكلام على ابي دواد الشاعر :

واشتقاق « دواد » من الدود ؟ والدوادة والدودة واحد .

اقول : ولم يرد هذا الاشتقاق في « اللسان »، فقد جاء فيه في ترجمه « دود » :

قال ابن الاعرابي : الدوادي مأخوذ من الدواد، وهو الخُضَف الذي يخرج من الانسان ، وبه كني أبو دواد الايادي .

وليس شيئا اختلاف الاشتقاق بين ما ورد في كتاب الاشتقاق لابن دريد . وبين ما ورد في « اللسان » ، ذلك أن الذي يهمنا هـــو

الأصل الواويّ لا المهموز .

١٠ ـــ وجاء في الصفحة ١٠٠ قول المصنف :

« ان قوما ركبوا البحر . . . . . . فقام رجل من أهل المركب » .
فعلّق المحقق الفاضل على كلمة « المركب » فقال :

المركب واحد المراكب البحرية والبرية . وفي بغداد تعني الكلمة المركب البحري اي السفينة .

اقول : والذي وعيته من أيام الصبا أن « المركب » في العراق للسفينة النهرية كثيرا ، كما هي للسفينة البحرية .

١١ ـــ وجاء في الصفحة ١٠٣ قول المصنف :
فجعلت بين يدي نُفّاطة . . .
فعلق الأستاذ المحقق على « النفاطة » فقال :
النفط دهن معدني سريع الاحتراق توقد به النار ويُتَداوى به . .

اقول : ما اغنانا عن هذه الحاشية المستقاة من « المنجد » الذي ما اظنه « منجدا » في هذه الكلمة .

ثم تحدث الأستاذ المحقق عن التداوي بالنفط، وكيف تُطلَى به الإبل الجُرْب، مستفيدا ذلك من « لسان العرب » . ولم يكتف بهذا بل رجع الى « قانون » ابن سينا ، و « مفردات » ابن البيطار في هـــذا الموضـوع .

وما اظن ان الامر محتاج الى هذا، لا سيما اذا عرفنا ان « النفط » لم يرد في النص، بل وردت « النفّاطة » وهي سراج يستضاء به .

اقول : كان على الأستاذ المحقق ان يشرح « النفاطة » ويشير

كعادته الى « النفطية »وهي الاسم المتداول في عصرنا ببغداد وغيرها من الحواضر :

ولم يكتف الأستاذ المحقق بهذا بل عرض للنَفَّاطة وهي من ادوات الحرب؛واشار الى استعمال الرشيد للنفاطة في حربه مع الروم . وزاد فذكر أن « النفاطة »:الموضع الذي يُسْتَخْرَج منه النفط .

اقول : لقد اشرت في « المقدمة » الى جهد المحقق باغناء الكتاب بالفوائد الكثيرة .

١٢ ـ وجاء في الصفحة ١٠٤ قول المصنف :

« ثم انتبهت فاذا أنا بمشعل قد اقبل من بعيد » .

فعلق الأستاذ المحقق تعليقا طويلا على كلمة « المشعل »، واستعمال البغداديين للمشاعل،وهيأته وما يوضع فيه من المواد للاشتعال في رءوسه .

اقول : وما اظن هذا الوصف مفيدا لغير العراقي ولا اخص « البغدادي » وحده ؛ وذلك لأنه لا يعرفه ولا يستطيع تصوره . والمشاعل اعمدة يمتد على احد راسيها اعمدة اخرى بهيأة عمودية، فيها رءوس تحشى بالخيش وتشعل بعد غطسها بالنفط،وتستعمل في مواكب التأبين بذكرى مقتل الامام الحسين،عليه السلام،في ايام المحرم العشرة الأولى .

وافاد الأستاذ المحقق أن « المشعل » من أعلام الذكور ؛ ويصفون الجميل الوجه بأنه « مشعل » .

وقد أفاض في هذا التعليق فذكر زجلا عاميا فيه كلمة المشاعل،

وهذا كثير لَعَلَّه يفتقر الى المناسبة وقيمتها . وفي الزجل كلمـــة « اللالات » ، وهي عامية عراقية لنوع من المصابيح شرحها المحقق شرحا تاما .

١٣ ــ وجاء في الصفحة ١١١ ذِكْرُ ابي الحجاج مجاهد بن جبر، فعلق الاستاذ المحقق بقوله :

ترجم له صاحب « الخلاصة » ص ٣١٥ ، وصاحب ميـــزان الاعتدال ٤٣٩/٣ .

اقول : وكان من المفيد ان يشار الى المصادر الاخرى ؛ أما كان من المفيد ان يستأنس بالمصادر التي اثبتها الزركلي في « الاعلام »، وفيها سِيَر « اعلام النبلاء » و « غاية النهايـــــة » و « الارشاد » وغيرها ؟

١٤ ــ وجاء في الصفحة ١١٠ تعليق للمحقق على ابي الاحوص عوف بن مالك بن نضلة الجشمي، قال فيه :

تُرجِم له صاحب الخلاصة وقال : انه قُتِل ايام الحجاج .

اقول : وفي تاريخ بغداد ١٢ / ٢٩٠ ترجمة مفيدة لابي الأحوص هذا .

١٥ ــ وجاء في الصفحة ١٦٩ تعليق طويل على « عبد الله بن الزبير » من دون ذكر اي مصدر .

اقول : ولا اريد هذا وحده، ولكني اقول اننا في غنى عن التعليق على الاعلام المشهورة كابن الزبير هذا . ومثل هذا ما ورد مـــن ترجمة معز الدولة بن بويه صاحب العراق، في الصفحة ٩٤ ، ومثل

هذه التراجم للأعلام المشهور قدر عظيم في « الفرج بعد الشدة » .

١٦ ـ وجاء في الصفحة ١٧٦ تعليق الاستاذ المحقق على قوله تعـــالى « فان مع العُسر يُسرًا » .

قال الأستاذ المحقق : اليُسر اللين والانقياد ؛ واستشهد بقول الشاعر :

قوم اذا شوّسوا جَدَّ الشماس بهم ذاتِ العناد وان ياسرتهم يَسروا

ثم قال :

والعسر الضيق والشدة ؛ قال الشاعر :

... ...

اقول : ما أظن ان اليسر والعسر من الكلم اللغوي الـــذي لا يعرفه القارىء العام بله الخاص . ان الآية الكريمة من الآيات التي يستشهد بها ، وقد ترد في كلام العامة،فهي مما يعرفون ويرددون .

١٧ ـ ومثل هذا الشرح للكلم المعروف تعليق المحقق على « البَرَد » وشرحه في الصفحة ١٨٠،وهو مما يعرفه عامة القراء .

اقول : كأن الأستاذ المحقق حين شرح « البَرَد » اراد أن يقول لنا ان « البغداديين يسمونه الحالوب » فاذا اصيب الزرع بالبرد قالوا : تحولب فهو محولب .

وهذه اضافة مفيدة لولا تخصيصها بالبغداديين ، وذلك لأن عامة العراقيين يعرفون هذا .

١٨ ـ وعلق المحقق في الصفحة ١٨٣ على « الجبل » فقال :

اسم شامل لاقليم عراق العجم ... ... (المشترك صقعا

لياقوت ص ٩٥) .

وأضاف : ادركت الناس ببغداد وهم اذا ذكروا الجبل فهم يريدون جبل بشت كوه في بلاد ايران ... ...

اقول : وليس من صلة بين اقليم الجبل في كتب البلدان القديمة وبين المتعارف في العراق عن « الجبل » الا من باب « الشيء بالشيء يذكر » !

١٩ — وجاء في الصفحة ١٩٠ كلام على الحجاج من زيادات الأستاذ المحقق استوفت ثلاث صفحات،وقد ضُمّت الى مادة الكتاب دون الاشارة الى انها تعليق المحقق .

اقول : وليس هذا مقبولا ؛ والصحيح أن يشار الى ان هذا من كلام الأستاذ المحقق،وهو حاشية وتعليق،لا ان يُضَمّ الى مادة الكتاب .

ثم ان ثلاث الصفحات كثير في حاشية او تعليق ، وهي تشتمل على اخبار الحجاج وظلمه بداها بقوله :

وبلغ من شنيع سمعة الحجاج وشهرته بالظلم ... ...

اقول : وستأتي حواشٍ اخرى تعليقا على الحجاج يؤلف مجموعها صفحات عدة،وكلها مُقحَم على نص الكتاب من غير اشارة الى انها تعليقات .

٢٠ — وجاء في الصفحة ٢٠٣ قول المصنف :

« اتعلّمتَ السِحر ؟ »

فراح الأستاذ المحقق يتحدث عن « السحر » في « لسان

العرب » وفي آي القرآن الكريم ، وما ورد في « الفهرست » لابن النديم في المقالة الثامنة عن المعزمين والمشعبذين والسحرة . . . . . .
ثم قال : انظر دائرة المعارف الاسلامية .

اقول : ما اظن ان كلام المصنف محتاج الى هذا العرض الوافي عن « السحر » .

٢١ ــ وجاء في الصفحة ٢٠٤ كلام طويل مُتَحَصِّم على نص الكتاب على « عبد الملك بن مروان » دون اشارة الى أن ذلك تعليق . ثم ان عبد الملك بن مروان من المشاهير الكبار ؛ فهل من حاجة الى هذا التعليق الطويل ؟

٢٢ ــ وجاء في الصفحة ٢٠٥ قول المصنف :
وقد رايته نُقُشَ ذلك على خاتمه . . . . . .
فعلق المحقق فقال : الختم في اللغة السد والاغلاق ، وقوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم »
ثم صرفت الى نهاية الشيء . وكقولنا خاتم النبيين .
ثم تكلم المحقق على الطين الذي يُسَدّ به المزود او الكتاب عند الانتهاء منه ، ثم صرفت الى الطبعة . . . . ثم الى النص الذي يطبع به الطين ، ثم . . . ثم . . .

اقول : ان هذه من الفوائد،وفيها لون حضاري؛ولكن هذا كله يتجاوز التحقيق لنص من النصوص .

٢٣ ــ وجاء في الصفحة ٢١٠ تعليق المحقق على « بنت وردان » فذكر انها دويبّة كريهة الرائحة . . . . . .

ثم قال : تسمى الآن ببغداد « مردانة » وجمعها « مردان » ثم استشهد ببيت شعر .

اقول : وليس هذا كله من هَمّ المحقق فهو معروف .

٢٤ ــ وجاء في الصفحة ٢١٣ قول المصنف :

« ورجوت ان نعاونه بأموالنا وجاهنا ليُمَشّي أمْرَه » .

اقول : ومن المفيد ان نعلق على قول المصنف « يمشّي أمره » ، وهو من الأساليب العامية التي ما زلنا نتداولها في لغتنا الدارجة في العراق في الأقل . ولم يشر المحقق الفاضل الى ذلك على شدة اهتمامه بالكلم العامي الذي وصفه بـ « البغدادي » .

٢٥ ــ وجاء في الصفحة نفسها قول المصنف :

« واخذ خطيّ بالمال على نجومه » .

وقد علق الاستاذ المحقق بقوله : « نجم الدين : اداه نجوما أي اقساطا في أوقات معينة » .

اقول : ومن المفيد ان يشار الى ان هذا من المولّدات العباسية في الأقل ؛ وفي ذلك فائدة تاريخية .

٢٦ ــ وجاء في الصفحة ٢١٥ قول المصنف :

« ورد كتاب عامل مصر » .

وعلق المحقق بقوله : « العامل:الموظف المالي الذي يناط به جمع الارتفاعات وما يقتضي صرفه . »

اقول : وليس في النص ما يدعو الى أن يكون « العامل » بهذه الحدود وهذا الاستعمال،وذلك لان « العامل » بمعناه المشهور كما

يبدو لي هو الوالي او الحاكم او الأمير القائم في البلد .

٢٧ ــ وجاء في الصفحة ٢١٥ قول المصنف :

« ورد كتاب عامل مصر بمبلغ مال مصر لهذه السنة مجملا في مبلغ الحمل والنفقات » .

وقد علق الأستاذ المحقق بقوله :

اي المال الذي يحمله العامل الى الحضرة خالصا بعد سداد النفقات .

اقول : وهذا من فوائد الأستاذ المحقق السنية في عمله المفيد .

٢٨ ــ وجاء في الصفحة نفسها قول المصنف :

« فوقّع الى ديواني باخراج العبرة لمصر » .

قال المحقق : العِبرة : ثبت ارتفاعات الكورة « أي الواردات». وعبرة سائر الارتفاعات :المعدل الوسط بين اعلى الارتفاعات وادناها .

اقول : وهذا من الفوائد الكبيرة في شرح هذه الكلمات الاصطلاحية من الألفاظ العباسية الخاصة . ولكني اتساءل : لِمَ لَمْ يوثّق الاستاذ المحقق هذه الفوائد بعض التوثيق ؟

٢٩ ــ وجاء في الصفحة ٢١٧ تعليق المصنف على « المتوكل » الخليفة العباسي .

اقول : و « المتوكل » غني عن التعليق،شأنه شأن المشاهير؛ واذا كان من تعليق فهو شيء موجز كل الايجاز،لا ثلاث صفحات كاملة من غير مصدر ؛ ثم تضاف الى مادة الكتاب ولا يشعر القارىء

أن الكلام مقحم على النص ، وهو من اضافات المحقق .

٣٠ — وجاء في الصفحة ٢٢٠ حاشية المحقق على كلمة « الديوان » ، وانه في الأصل جريدة الحساب ، ثم ...

والكلام مقتبس من « المنجد » وزاد عليه بما يقرب من صفحتين .

قلت غير مرة ان هذه الاضافة غير ذات قيمة كبيرة لتجاوزها المظان المعتمدة .

٣١ — وجاء في الصفحة ٢٢٩ تعليق على كلمة « الدهليز » فقال :

الممر الذي بين باب الدار ووسطها ، ويسمى ببغداد الآن المجاز .

أقول : كان الأستاذ المحقق اراد أن يعرف بالكلمة العراقية المعاصرة .

٣٢ — وجاء في الصفحة ٢٤٥ تعليق طويل على « الحُرّ » و « الحُرّة »، ودلالة الحرية وشرح الأَمَة والهجين ونحوهما . وهذا التعليق مضاف الى مادة الكتاب من غير اشارة الى أنه من اضافات المحقق .

٣٣ — وجاء في الصفحة ٢٥٢ شرح لكلمة « الطغيان » بانه الاسراف في الظلم .

أقول : وهل من حاجة الى هذا الشرح ؟

٣٤ — وجاء في الصفحة ٢٦٩ حاشية استغرقت صفحة كامل عن « زياد بن أبيه »، وقد أضيفت الى مادة الكتاب من غير اشارة الى انها من صنيع المحقق واضافاته .

٣٥ ــ وجاء في الصفحة ٢٨٠ قول المصنف :

« محمد بن القاسم ظلمني » .

وقد علق الاستاذ المحقق على ذلك بكلام على «الظلم» استوفى صفحة كاملة ، واضيف الى مادة الكتاب من غير اشعار بأنه من كلام المحقق .

اقول : كان المحقق الفاضل يتصيَّد اقل صلة ليتكلم في مسائل كثيرة تتجاوز العلاقة أو المناسبة،فيذهب بعيدا كل البعد عن الموضوع .

٣٦ ــ وجاء في الصفحة ٢٨١ قول المصنف :

« لما خرج طاهر بن الحسين الى محاربة علي عيسى بن ماهان، جعل ذات يوم في كُمّه دراهم » . فعلق المحقق الفاضل على « الكُمّ » تعليقا طويلا ذكر فيه القميص والثوب والجيب و « العُبّ»من العامية العراقية » ، كما ذكر ترنيمة يُتَرَنَّم بها للأطفال لتنويمهم من الشعر العامي من جملة أبياتها :

هَسَّه يجينا بابَــــهْ   شايِل تمر بأُعبابَــهْ

وينصرف الاستاذ المحقق الى شرح كلمة « هَسَّه » العاميــة ، وشرح كلمة « شايِل » ؛ فأين هذا من النص ، وما علاقة « الكُــمّ » بكل هذا ؟

٣٧ ــ وجاء في الصفحة ٢٩٩ حواش لشرح كلمات هي:البرذون،والسرج، واللجام،والطيلسان،والقميص،والشاشية .

اقول : وليس في هذه المواد ما يدعو الى الشرح والتعليق،فأمرها

معروف للخاصة والعامة .

٣٨ — وجاءفي الصفحة ٣٠٢ تعليق الأستاذ المحقق على « صاحب البريد » استوفى صفحتين ضُمّتا الى النص دون أن يكون فيهما ما يشعر بانهما من كلام المحقق لا المصنف .

اقول : وهذا النمط من التعليقات يتجاوز حد التحقيق ؛ ولو رغب المحقق في ان ياتي بهذه الفوائد التي ادركها في قراءاته لكان اولى له أن يفرد لها مصنَّفا خاصا يُضّمّ فيه هذه النماذج الحضارية والتاريخية واللغوية وغيرها . وان شيئا منها ، من غير شك ، الصق بمادة « الكنايات الشعبية » التي افرد لها المحقق كتابا وُسِم بـ « الكنايات البغدادية » .

٣٩ — وجاء في الصفحة ٣٠٥ تعليق المحقق على كلمة « المال » التي وردت في كلام للمصنف .

لقد اتى المحقق بما ورد في « لسان العرب » عن « المال » ، وما جاء في كتاب « التلخيص » لأبي هلال العسكري عن المال ، ودلالته على الابل والغنم وغيرها من الماشية .

غير أن المحقق لم يكتف بهذا فقال :

اما في بغداد وما يجاورها فان كلمة « المال » تقوم مقام كلمة « الهن » ؛ اي انها كناية عن عضو التناسل سواء عند المراة والرجل أو الحيوان . ثم ذكر قول احد الشعراء العراقيين وزاد قول احد شعراء الحلّة .

اقول : ولا ارى فيّ حاجة ان اذكر قول احد الشعراء العراقيين ولا الشاعر الحلي فاسيء اليهما ، ولكني اقول : انهما كنيا عن

« المتاع » بشيء آخر هو « مال »وليس « المال »اجتنابا لذكر السوأة .

قلت : « مال » وليس « المال » واريد بذلك أن « مال » هذه بغير الألف واللام هي شيء ينطوي فيه قولنا : « ماله » و « مالنا » و « مالكم » و « ما لهن » الى آخره ثم اجتُزِئ من ذلك بلفظ « مال » على طريقة الضم او النحت والخرم للضمير فكانت الكلمة « مال » ؛ وهي غير « المال » المعرفة التي تعني ما تعنيه من الدلالة على الابل والغنم وسواهما .

٤٠ ــ وجاء في الصفحة ٣٥٦ قول المصنف :

« اخبرنا ابو الفرج الاصبهاني عن المدائني » .

فعلق المحقق على « المدائني » فقال : نسبة الى « المدائن » ؛ ورَحَل يتكلم على المدائن وفيها ايوان كسرى وقرب الايوان قبر سلمان الفارسي الملقب بـ « پاك » أي الطاهر ، ومن ذلك « پاكستان » البلاد المعروفة ؛ ثم ذكر كيف يجتمع العراقيون البغداديون في المدائن للنزهة .

اقول : اليس هذا كله من التجاوز على عمل المحقق !

٤١ ــ وجاء في ٣٦١ تعريف بالجاحظ ذَكَرَه المحقق ؟

اقول : ان ابا عثمان اشهر من أن يعرَّف به في حاشية من حواشي كتاب « الفرج بعد الشدة » .

٤٢ ــ وجاء في الصفحة ٣٦٦ كلام طويل اضيف الى النص دون اية اشارة، على جعفر البرمكي . وهذا على شاكلة ما صنع المحقق في جملة اعلام ومواد أخرى .

٤٣ ــ ونختتم الجزء الاول فنرى في الصفحة ٤٠٠ تعليقا طويلا في قسوة الحجاج وظلمه ضُمّ الى مادة الكتاب .

الجزء الثاني :

٤٤ ــ وجاء في الصفحة ٢٧ قول المصنف :

« فأحضِرتُ وشُلِّحْتُ للضرب » .

فعلق الاستاذ المحقق على « التشليح » وقال : انه التعرية ؛ ثم اتى كعادته فأشار الى دلالة التشليح عند البغداديين، وهو « انكشاف العورة » (كذا) ؛ والتعرية عندهم « التصليخ » وهو مصلّخ اي عارٍ .

اقول : ولا ارى من داع الى هذا الاسهاب في هذا الضرب من الادب العامي .

٤٥ ــ وجاء في الصفحة نفسها قول المصنف :

« فان كانت الرفيعة صحيحة فليس يفوتك عقابه » .

فعلق المحقق بقوله : « الرفيعة ما يُرْفَع على الانسان من التهم » .

اقول : وهذه فائدة جليلة تدخل في باب المُحْدَثات العباسية في اللغة .

٤٦ ــ وجاء في الصفحة٢٨ قول المصنف :

« وجدت المستحَمّ ضيقا غير نظيف » .

اقول : لقد اشار المحقق الى ان المراد بـ « المستحم » المرحاض،

وهذا نظير قولهم : بيت الادب، وبيت الراحة، والمستراح، كناية عن بيت « المرحاض » .

٤٧ ــ وجاء في الصفحة ٤٦ قول المصنف :

« والبسني جبة صوف قد نُقِعت بماء الاكارع » .

اقول : وقد علق الاستاذ المحقق في الصفحة ٥٠ تعليقا طويلا على « ماء الاكارع »، واضيف التعليق الى النص كانه جزء منه ، ذكر فيه شيئا عن « الكرع » وجمعه كوارع على لغة المصريين ، وتسمى « الأكلة » في الشام (كذا) وفي لبنان (كذا) وفي بغداد (كذا) وما يتصل بذلك في بغداد المعاصرة .

اقول : وفي هذا بعض الفائدة وان تجاوز حد التحقيق .

٤٨ ــ وجاء في الصفحة ٤٧ قول المصنف :

كتبت الى بعض عمال المشرق بمطالبته بأمواله وودائعه، فكتب الي بالطاطة، فكتبت اليه بأن يُغَلّ . . .

اقول : ولم يعلق المحقق على قوله : بالطاطة . والإلطاط الستر والاخفاء، فكأنه اراد ان يقول : انه انكر الاموال والودائع .

٤٩ ــ وجاء في الصفحة ٤٨ قول المصنف :

« ولم يبرح حتى امروا باخذ حديدي وادخالي الحمام واَخْذِ شعري » .

اقول : اردت ان انبه على قوله « اخذ شعري » وهذا من معاني الاخذ التي جُدَّت ، والمراد به قص الشعر .

٥٠ ــ وجاء في الصفحة ٥٣ « دار مؤنس »، وهو مؤنس المظفر، من القواد

الاتراك في الدولة العباسية .

لقد علق الاستاذ المحقق على « دار مؤنس » تعليقا استوفى صفحتين ضمهماالى نص الكتاب من غير اشارة الى صنيعه هذا . كما أشار الى موقع الدار المذكورة واين مكانها في بغداد الحديثة ، وهو سوق « اليمنجية » . ثم تكلم على ما يسمى في العراق الآن « يمني » وهو ضرب من الأحذية خاص لونه أحمر وله مقدم متجه الى الأعلى ؛ ولا ادري لم سمي « يمني »؟ذلك اننا لا نعرف انه مستورد من اليمن مثلا ، أو ان جِلْدَه من اليمن !

اقول : الا ترى معي،ايها القارىء ، أن المحقق قد ابتعد في هذا الاستطراد عن مادته ؟

٥١ — وجاء في الصفحة ٦٤ قول المصنف :

« فمن أين أنفق الأموال واقيم الأنزال » .

اقول : الأَنزال جمع « نَزَل » بفتحتين وهو الأرزاق والأعطية . وهذا من مولَّدات العصر العباسي .

٥٢ — وجاء في الصفحة ٨٠ قول المصنف :

« وخرج وصرف التوكيل عني » .

لقد أشار الاستاذ المحقق الى التوكيل وأفاد انه مصطلح عباسي يراد به حجز الحرية ؛ فيقال : وكِّل به اذا نصب عليه حارسا يحول بينه وبين الفرار .

٥٣ — وجاء في الصفحة ٨١ قول المصنف :

« .... الى ان ازيح علة قائد يصحبك الى الرملة » .

وقد علق الأستاذ المحقق على « ازاحة العلة » قائلا : انه مصطلح عباسي يعني القيام بجميع ما يحتاج اليه من يراد ازاحة علته ، فالجيش مثلا يعتبر « مُزَاحَ العلّة » اذا كان افراده قد أُعطُوا ارزاقهم وسُدَّت نفقاتهم ... ...

أقول : وهذا من المواد المفيدة،ذلك أنها تكشف عن العربية الخاصة وكيف جدّ فيها من مقتضيات العصر ما اضاف اليها كَلِماً فنيا .

٥٤ ــ وجاء في الصفحة نفسها قول المصنف :

« وقد حططت من الارتفاع وزدت في النفقات » .

« الارتفاع » كما يُستَقرَى من مادة الكتاب هو « الوارد » في لغتنا المعاصرة ؛ وقد اشار الأستاذ المحقق الى ذلك .

٥٥ ــ وجاء في الصفحة ٨٣ تعليق طويل على « الفرش » ، ذكر فيه الأستاذ المحقق انواع المفروشات قديما وحديثا،كالطنافس والزرابي وما هو معروف منه في العراق في عصرنا بأسمائه المحلية الدارجة .

٥٦ ــ وجاء في الصفحة ٨٦ قول الأستاذ المحقق على كلمة « ايش » فقال:

هي « اي شيء » اختصرها البغداديون الى « ايش » .

اقول : ان « ايش » بمعنى « اي شيء » قديمة،وقد وردت في تاريخ الطبري في اخبار قديمة تسبق تمصير بغداد . وقد اشار الحريري في « درة الغواص » الى أنها عامية ؛ وكذلك فعل الخفاجي في « شفاء الغليل »،ولم يخصص اي منهما انها بغدادية .

٥٧ ــ وجاء في الصفحة ٨٨ قول المصنف :

« ... فدَقَّ الباب فكلَّمه من خَوخة » .

وقد علق الأستاذ المحقق على كلمة « خوخة » فقال :

الخوخة الباب الصغير يفتح في الباب الكبير .

أقول : قد تكون « الخوخة » بهذا المعنى وان كان الدليل غير واضح من النص ؛ ولكني أعرف الخوخة في كتب اللغة : انها كوة في البيت تؤدي اليه الضوء .

٥٨ ــ وجاء في الصفحة ٩٠ قول المصنف :

« ... فارمي اليه من رُوْزَنة لي ... » .

وقد علق الأستاذ المحقق على كلمة « روزنة » فقال : هي الرازونة عند البغداديين ، وهي روشن ... يريدون به تجويفا غير نافذ توضع فيه الحاجيات .

اقول : والصواب توضع فيه الحاجات؛وليس في العربية الفصيحة « حاجيات »،على شيوعها في اللغة المعاصرة .

٥٩ ــ وجاء في الصفحة ٩٩ قول المصنف :

« ... وينشوان في دولتك ... » .

وقد علق الأستاذ المحقق على الفعل « ينشوان » فقال : انها لغة بغدادية،وقد درج البغداديون منذ القديم وما زالوا الى الآن على حذف الهمزة اذا كانت في آخر الكلمة ، وابدالها واوا أو ياء اذا كانت في وسطها ...

وقد مثل لذلك فجاء بـ : رياسة، وجيسة وصايم ... وحسن النشوة .

اقول : لقد قلت في حذف الهمزة الاخيرة وجوازها لغة وضرورة في العربية الفصيحة ، كما قلت في تسهيل الهمزة الى الواو والياء والالف .

ولكني اقول الآن واضيف : انه ربما كانت الكلمة « ينشوان » في نص الكتاب عامية بغدادية او غير بغدادية لأن ذلك أمر شائع ، بل اقول : أن في العربية الفصيحة « ينشوان » ايضا .

جاء في كتب اللغة :

نشوت في بني فلان : ربيت ، نادر ؛ وهو محوَّل من « نشأت »

وقال قطرب : نشا ينشو لغة في نشأ ينشأ ، وليس عنده على التحويل .

٦٠ ــ وجاء في ١٠٢ تعليق طويل استوفى صفحتين اضيف الى مادة الكتاب من غير اشارة ، على عبيد الله بن زياد .

٦١ ــ وجاء في الصفحة ١٤٦ كلام طويل على سياسة الحجاج المخربة ، استوفى ثلاث صفحات وضُمّ الى الكتاب .

٦٢ ــ وجاء في الصفحة ١٤٩ قول المصنف :

« ... حدثني ابو علي الوكيل على ابواب القضاة ببغداد » .

اشار المحقق الى ان الوكيل هو المحامي في مصطلح هذا العصر .

٦٣ ــ وجاء في الصفحة ١٦٠ قول المصنف :

« ... وقعت على سترة الحجاج ... » .

وقد علق الاستاذ المحقق على كلمة « سترة » وافاد انها ما استمر من الجدار الخارجي الى فوق سطح الدار ، وهو ما يسمى الآن « ستارة » في بغداد ؛ واشار الى حادثة معاصرة استُعمِل فيها طابوق الستار في خصومة بين طرفين ، سلاحا يتراشقون به .

٦٤ ــ وجاء في الصفحة ١٦٨ قول المصنف :

... وشاع في اليمن ... » .

وانطلق الاستاذ المحقق يتكلم على اليمن والشآم واليمين والشمال كلاما طويلا .

٦٥ ــ وجاء في الصفحة ١٨٣ ذكر « الكوز » ، فراح الاستاذ المحقق يشرح الكوز والكيزان وانواعها ، وما استجدّ من صناعتها ، وقد اضيف كلّه الى مادة الكتاب .

ومثل هذه التعليقات الطويلة تعليق على السُّكر ، وآخر على النبيذ ، وآخر عن يزيد بن معاوية .

٦٦ ــ وجاء في الصفحة ٣٢٣ ذكر « المسبحة » ، فأطال الأستاذ المحقق في الكلام عليها ، وان في مدينة الحلة في العراق تصنع «مسبحة الباقلاء» وليس هذا الا من باب ما يتندر به على اهل الحلة لشغفهم بالباقلاء زراعة وأكلاً لها .

الجزء الثالث :

٦٧ ــ وجاء في الصفحة١٠٧ تعليق على « الحمار » استوفى عشر صفحات . كما ورد تعليق طويل على البرامكة .

٦٨ ــ وجاء في الصفحة ٣٦٤ تعليق على مادة العذاب استوفى اربع

صفحات .

كلمة ختام :

لقد اشرت الى هذه المسائل،ولكني اعترف ان اخراج الكتاب وتحقيقه حظي بالعناية الكبيرة،فجاء مصدرا يُعْتَمد عليه في ضبط النص واحكامه مع الفوائد التي وشّي بها .

الدكتور ابرهيم السامرائي

●**●

تعليقـــات
و
مُناقشَـات

مناقشة رأي في علامة التأنيث

بقلم : محمد شيت صالح الحياوي

في مجلة (المورد) الشامخة ــ المجلد التاسع ، العدد الأول ــ مقال جليل جاء بالعنوان الآتي : ــ

ــ ديوان الادب لاسحاق بن ابرهيم الفارابي ــ الجزء الأول ، تحقيق د. احمد مختار عمر ، القاهرة ٧٤

ــ بقلم الدكتور ابراهيم السامرائي ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ــ

والحقيقة أن كاتب المقال تدحالفه التوفيق،واجاد في نقده وتعليقه ايما اجادة ؛ ولا عجب فهو بحاثة مشهور ومحقق بارع، ضرب بسهم وافر في مجالي الادب واللغة فيما قَدَّمَّ من بحوث ، وما أنتج من مؤلفات تشهدبطول باعه وسعة اطلاعه . ومع ذلك فالكمال لله ، ولن ينجو كاتب من زلل ، ولا سيما في معرض الاجتهاد ؛ وهذا ما حصل في المقال آنف الذكر ــ برايي الذي قد اكون مصيبا فيه وقد اكون مخطئا ، والقول الفصل أولا وآخرا للعلم والتفكير السليم ــ

يقول الكاتب ص ٤١٦ ما نصه:(وعندي أن علامة التأنيث واحدة في العربية، هي هاء التأنيث ،كما في (حجرة وفاطمة) التي تتحول تاء في درج الكلام . واذا عرفنا أن علامة التأنيث هذه ، اي الهاء ، تقتضي أن يكون قبلهافتح ، وعلى هذا يكون الفتح العلامة الأصيلة للتأنيث ، وهي نفسها

الف التانيث المقصورة في (ليلى وسلمى) وهي نفسها الالف المدودة فـــي (صحراء وحسناء) ؛ وما الفتح القصير كالفتحة ، والفتح المتوسط كالالف المقصورة ، والفتح الطويل كالالف المدودة ، الا صوت واحد يختلف في فسحة طوله).ويقول ايضا في الحاشية (وهذا الفتح هو علامة التأنيث ، ولان الفتحة لا ترسم في الخط العربي ، ذيّلت الكلمة بهاء لتقرأ مفتوحة الآخر قبل الهاء ، ثم رسم الفتح فكان الألف المقصورة والألف المدودة . ولـــو عرفت أن (ليلة وليلى وليلاء)مادة واحدة ، ادركت ان علامة التانيث واحدة فيها جميعا ، وهي الفتح بصورة الثلاثة) .

ففحوى اجتهاده ما هو آت : ـــ

اولا ـــ علامة التانيث واحدةفي العربية هي هاء التأنيث ، كما فـــي (حجرة وفاطمة) التي تتحول تاء في درج الكلام .

ثانيا ـــ هاء التأنيث لا تاتي الا بعد حرف مفتوح .

ثالثا ـــ الفتح هو العلامة الأصيلة للتانيث .

رابعا ـــ الفتحة لا ترسم في الخط العربي ، ولذلك ذيّلت الكلمة بهاء ليقرا ما قبلها مفتوحا .

خامساـــ حينما رسم الفتح استغنى عن الهاء،وتطورت الفتحـــة واستطالت فصارت الفا مقصورة،كما في (ليلى وسلمى) ثم الفا ممدودة كما في (صحراء وحسناء) .

سادسا ـــ بما أن فتحة الحرف الثالث مشتركة في الكلمات الثلاث (ليلة ، ليلى ، ليلاء) وهن مادة واحدة ، لذلك فالفتحة وحدها هي علامة التانيث لا غيرها .

لذلك كله نرجو أن يسمح لنا بمناقشة اقواله وآرائه،عسى أن نتوصل

الى نتيجة حاسمة .

أولا — سمى التاء المربوطة هاء التأنيث ، لاننا حين نقف عليها نلفظها هاء . وفاته أن الأصل هو الدرج لا الوقف ، كما أن من العرب من يقف عليها ويلفظها تاء. فهي تاء أقوى من هاء ، والتسمية للأقوى ، وشتان بين المَخْرَجَين ، فالهاء حلقية والتاء نطقية .

ثانيا — لا يُشْتَرَط ان يكون ما قبل التاء المربوطة حرفا مفتوحا، فقد يكون الفا ، والالف لا يكون الا ساكنا ، مثل (فتاة وقضاة) .

ثالثا — ذكر أن الفتح هو العلامة الأصلية للتأنيث ، كما ذكر ان الهاء وحدها هي علامة التأنيث . أفلا يتناقض القولان ؟ أم يريد أن يقول: ان للتأنيث علامتين اثنتين واحدة أساسية هي الفتحة، والأخرى فرعية هي الهاء . فلم يحسن التوضيح !

رابعا — التاء كما سميناها، أو الهاء كما سماها، زائدة على رأيه، جيء بها لاظهار الفتح الذي قبلها لأنه غير مرسوم، وليس لها غرض آخر او فائدة اخرى. وهو راي ضعيف على ما اظن لا يتناسب مع دقة ملاحظات الكاتب فيمايحلل ويدقق ؛ فقد شرح اللغويون هذه التاء وبيّنوا اغراضها المختلفة في مواضعهاالمتعددة ؛ ولا حاجة لتسطير ما وضحوا وبيان ما قرروا .

واني — بتواضع — اجازف ولا اسمي التاء المربوطة هاء كما سماها فحسب، بل لا اعتبرها علامة تأنيث ! . فبعد ان فحصتُ مواضعها وحلّلتُ اغراضها، تبيّن لي أنها تعطي معنى واحدا يشترك فيه جميع الأمثلة المختومة بها ، وهذا المعنى المشترك هو ما نسميه (الوحدة !).

ومعنى الوحدة هو الذي يجعلنا نعامل الكلمة معاملة المؤنث، سواء أكان مجازيا أم حقيقيا أو مذكرا أو جمعا كماسنرى . والوحدة جزيئة أو

نسخة او مجموعة قد تمثل عددا رقمه واحدا،كما قد تمثل عددا يزيد على اثنين . وهاكم أمثلتها مع الشرح : —

شَرْبَة : وحَدة من الشرب

شِرْبَة : وحدة لهيئة الشرب

تمرة : وحدة من ثمر التمر

صخرة : وحدة من جماد الصخر

بطّة : وحدة من الطير المسمى بَطاًّ

طلحة : وحدة من شجر الطلح

فارة : وحدة من الفئران ، اما الفار فليس بوحدة بل فردا من الفئران، وهكذا جاء تانيث فارة من الوحدة لا من الفار،الذي بدوره جاء تذكيره من الجمع ايضا !

حليمة : وحدة من الحلممتصفة به ؛ اما حليم فليس بوحدة بل فردا من الحلم متصفًا به .

رحالة : وحدة من الرحل متصفة به قوية .

قضاة : وحدة (مجموعة) من معنى القضاء .

عباقرة ، عبادلة ، مغاربة : وحدة (مجموعة) من العبقرية،وعبد الله، واهل المغرب على التوالي .

حُجرة : وحدة من معنى الحَجْر (بفتح الحاء وسكون الجيم)

تذكرة : وحدة من معنى التذكير

خِبرة : وحدة من معنى الخبر .

نُسخة : وحدة من معنى النسخ .

مسابقة : وحدة من معنى السباق .

هِبة : وحدة من معنى الوهب .

بِنية : وحدة من معنى البناء أو البنيان .

اعانة : وحدة من المعنى المستفاد من أعان — يعين .

استقامة : وحدة من المعنى المستفاد من استقام — يستقيم . فاذا اردناها لمرة واحدة،اي ليس وحدة او نسخة مكررة،قلنا استقامة واحدة !

لغة : وحدة من معنى اللغو . . . الخ التاءات المربوطات .

ونستفيد من هذه الأمثلة ما يأتي : —

ا — لو كانت الكلمة المختومة بالتاء المربوطة مؤنثة،وكانت التاء علامة التأنيث،لجاز حذف التاء وتحولت الكلمة الى مذكر.وهذا لم يحصل الا مصادفة في فأرة — فأر ، فتاة — فتى ، كلبة — كلب وامثالها،وقد شرحنا ذلك .

ب — لو كانت مؤنثة لما نُقل معناها الى مذكر،مثل طلحة حمزة معاوية . . . الخ

ج — لو كانت مؤنثة لما دلت على جمع مذكر مثل قضاة عباقرة . . . الخ

فالمؤنث إذًا ما دلَّ على التأنيث في الوضع والمعنى المعجمي،أو في الصيغة،سواءأكان مختوما بالتاء او بالالف او لم يكن مختوما بهما .

خامسا — اما الألف المقصورة والألف الممدودة فليستا وحدهما علامتي تأنيث،لان التأنيث سواء اكان حقيقيا أم اعتباريا مفهوم بالصيغة،ففي سلمى وعطشى وفضلى جاء التأنيث من وزني فَعْلى وفُعْلى بفتح الحرف الأول او ضمه وسكون ثانيهما ووقوع الألف في رابعهما .

وفي صحراء وحسناء وحمراء جاء التأنيث من وزن فَعْلاء بفتح فسكون

مع الألف والهمزة وفي كلا النوعين نجدالفتحة قبل الألف كما نجدها قبلـــه حيثما جاء . ولو حذفنا الالف،او الالف والهمزة،لم يكن لما تبقّى من الكلمـــة اي معنى ؛ ولذلك فالألف ليست وحدها علامة تأنيث لانها امتداد للفتحـــة ذو صيغة لا علاقة لها بصيغة المؤنث؛مثل افضل مذكر فُضلى واحمر مذكر حمراء .

ومن الظريف أن كلمة عطشى،مثلا،التي زعم الكاتب أن الفهاء دال على انوثتها،اذا أضيفت اليها نون فصارت (عطشان) تحولت الى مذكر؛ فكيف صارت الكلمة الجديدة مذكرا مع ان علامة التأنيث (الألف) على زعمه باقية ايضا ؟!

سادسا ــ بقي اشتراك الكلمات الثلاث (ليلة ليلى ليلاء) في المادة وفي فتحة الحرف الثالث ــ وقد تكلمنا عن الفتحة ما فيه الكفاية ــ . اما المادة فلو كانت علامة التأنيث واحدة في الكلمات الثلاث وهي الفتحة ــ على رايه ــ لكان المعنى واحدا لا ثلاثة معان .

فليلة ليست مؤنث ليل،لأن الليل نفسه جنسان:تارة يكون مذكـــرا وتارة يكون مؤنثا،ولذلك لا يحتاج الى مؤنث.بل معنى (ليلة) المختومة بالتاء وحدة من وحدات (الليل) كما مثّلنا وشرحنا .

واما ليلى ، وهي كوكب الزهرة عند العوام،لا الخمر ، فمعناها ــ على ما اتصور ــ ذات الليل او ربة الليل،لأنها اشد الكواكب السيارة ضياء.

واما ليلاء من الليالي فهي الفريدة اوالمتميزة في امر ما كالطـــول او الظلام او غيرهما .

وبعد فاني ارى التاء المبسوطة الزائدة التي تاتي مع الفعل او الاسم

هي علامة تانيث، كما في: ذهبت، ورجعت، والتلميذة تذهب وترجع، وكمـــــا في التلميذات مهذبات، حيث التاء تدل على التانيث، والالف يدل على الجمــــع، ولا يمكن فصلهما ولا بد ان ياتيا مجتمعين .

قضية اخيرة اذكرها لعلي أكون مصيبا فيها وهي على عكس مـــا ارتأى الكاتب ، فان كانت الفتحة عنده علامة تانيث — وقد فَنَّدنا رايـــه — فان الكسرة عندي قد تكون من علامات التانيث، والدليل ورودهـــا في كثير من مواضع التانيث مثل: انتِ، ذهبتِ، تذهبين، لن تذهبي، عندكِ، كتابكِ، هذي، هذِه، ذِه، هاتِه، تِه، تِلك، التي، اللاتي، حذامِ، قطامِ، يا لكاعِ، ويا خبـــاثِ . عالماتٍ كاتباتٍ (في حالتي الجر والنصب) ... الخ .

خلاصة بحثنا كما يلي : —

(١) التاء المربوطة لا الهاء تاتي لاغراض مختلفة، وتتفق معانيها جميعا في معنى واحد مشترك هو (الوحدة) فهي علامة على الوحدة أصلا لا على التانيث .

(٢) الالف المقصورة والالف الممدودة اذا وجدت احداهما في كلمــــة، وكانت تلك الكلمة مؤنثة، كان التانيث بالصيغة والوضع وليس بوجود الالف .

(٣) علامة التانيث هي التاء المبسوطة الزائدة مع الفعل أو الاسم .

(٤) قد تكون الكسرة علامة تانيث .

محمد شيت صالح الحياوي

حول كتاب مبادىء التحليل الرياضي

تاليف الدكتور عبد المجيد نصير ـــ جامعة اليرموك

بالأمس تلقيت نسخة من هذا الكتاب ؛ واشهد لقد غمرتني بفيض من مشاعر الرضى التي قلّما يجود بها الزمان في هذه الايام . ذلك أن الدكتور نصير يقدم لكتابه بقوله ان « المكتبة العربية بحاجة الى مثل هذا الكتاب ليساهم في تنفيذ عملية التعريب الجامعي التي نحرص جميعا عليها» .

ولقد بعث لي الزميل المؤلف بكلمة فحواها ان كتابه انما هو اول الغيث الذي سينهمر ، دفعا بعملية التعريب ، ولكن لا بالترجمة وحدها ، بل أيضا بالتاليف . ومثل هذا الاتجاه لمحته لدى اساتذة في كلية العلوم في الجامعة الأردنية .

وجوابا عن ذلك أقول ، من اعماق القلب : الحمد لله ، الحمد لله ان قد انضم الى العاملين في التعريب دم جديد . ان الكرة التي تقذف بها مجمع اللغة العربية في مضمار التعليم الجامعي لم تطوّحها الريح ، ولقد اعطتها جامعة اليرموك الفتية ، ممثّلة بالدكتور عبد المجيد نصير ، دفعة جديدة، وامدتها بدفق من الحيوية والطاقة ؛ فهي تدور وستدور ؛ والدعوة الصادقة لم تذهب كصيحة في واد .

الحمد لله ، واهلا بالأستاذ نصير وزملائه فتية مؤمنة واثقة تصنع الرجال .

ويقينًا ، مذ شرع مجمع اللغة العربية بترجمة الكتب العلمية

الجامعية ، كان نصب عينه أن هذا الذي يصنعه انما هو في اطار مشروع أوسع ؛ ذلك هو ترجمة الفكر العلمي العالمي الى العربية ، وهذا مسار طويل عريض ، بطول المستقبل وعرضه ، وهو دائم ما دام هنالك فكر ينتج ونتاج يُكْتَب . ولكنّا نرى ان الحاجة تفرض علينا ان نعطي الأولوية فيما نترجم الى ما يفيد الشباب في مرحلة تكوّنه ؛ اعني الكتب التدريسية الجامعية على الأخص ، لتكون نواة تعين الطالب والمدرس ،ولا سيما في المراحل الأولى من تعريب التعليم . ولم يغرب عن بالنا لحظة أن ترجمة هذه الكتب سيتلوها ، عاجلا أو آجلا ، تاليف كتب فيها من اصالتنا وابتكارنا ، ومن خبراتنا المتزايدة ما يجعلها تنبثق من واقعنا ، وتتلاءم مع طبيعتنا ، وترتفع بهذا الواقع والطبيعة الى رحاب حضارية اسمى ، اذ تعمل على مسايرة احدث الكتب التي تنتجها مطابع العالم وتمضي معها في مستوى واحد .

فعملية الترجمة وعملية التاليف ترفد احداهما الأخرى وتسندها ، وكلاهما جهد لا ينتهي ومعين لا ينضب . وهاهو الدكتور عبد المجيد نصير واخوانه يمضون في سبيل التاليف على بركة الله ، في حين يمضي المجمع في سبيل الترجمة ، ترجمة الفكر العلمي والكتب التعليمية ؛ وعلى الله التوفيق . على أنا جميعا مطالبون الآن بالتخطيط لرفع مستوى اللغة الانكليزية لدى طلبة العلوم كي نضمن الا يخسر الطلبة شيئا ، لا في حاضرهم ولا في مستقبلهم .

واذ يمضي الزملاء في سبيل التاليف ، بعد ان خاضوا تجربة بها تميزت كلياتنا العلمية ، هي تجربة تصيد أحدث ما تصدره المطابع وانسبها ، ليضعوه بين ايدي طلابهم ، كي يبقوا واياهم مسايرين للتطور العلمي السريع ، فلن يكونوا في عهد التاليف أقل مسايرة للتطور ، او اقل تفتحا

على كتب الغرب أو تصيدا لها . ان التطور العلمي ، من ناحية ، وتنافس دور النشر الاميركية ، من ناحية أخرى ، جعلت كل كتاب علمي جامعي قصير الأجل ، لا يعمر أكثر من خمس سنوات ، في غضونها يجدد ليلحق الركب ، أو يلقى في زاوية النسيان . وهذا ما ينبغي أن يكون عليه شأن الكتب التي نؤلفها . فلن يكون تأليف الكتب العلمية احتكارا يدعو الى التحجر ، بل سيكون تداعيا الى التطوير فيه يتنافس المتنافسون ، أما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .

يبقى الآن الحديث عن كتاب الدكتور نصير بالذات :

يقول الأستاذ في مقدمته انه اختار الأرقام المغربية « انسجاما مع توصيات لجنة خاصة من المجمع اللغوي في الاردن » . فاليه أقول مؤكدا أن المجمع لم يوص بشيء في هذا الصدد ، بل هو لم يتصد أصلا لدراسة أمر الأرقام ، لا على صعيد المجلس ، ولا على صعيد اللجان . وكل ما في الأمر مما يتعلق بموضوع الأرقام ، انني ، شخصيا ، نشرت في مجلة المجمع مقالة دعوت فيها الى استعمال المجموعتين الشرقية والمغربية ، كلا في ميدان تخصص له . واشهد أن من زملائي في عضوية المجمع من خالفني الراي .

ولقد دعوت ، وما زلت ادعو ، الى استعمال المجموعتين ، كلا في مجال ، لأني أرى أنها مجرد رموز معروفة لدى الكاتب والقراء ، وان للكاتب أن يستعملها بلا تحرج ، لأن الامتناع عن استعمال رمز يرى فيه مزايا تجعله ينقل افكاره الى قرائه على نحو أوضح ، انما هو خضوع لحساسيات أولى بالعالم أن يعلو فوقها .

وكل ما في الأمر مما يتعلق بالمجمع — من بعيد — أن لجنة الترجمة والتعريب والنشر ، التي عنها انبثق المجمع ، درست في الماضي أمر هاتين

المجموعتين دراسة لم تفض الى توصية . ثم ان الجامعة الاردنية انتدبت لجنة لدراسة الامر عينه، برئاسة الاستاذ الكبير الدكتور عبد العزيز الدوري ، وقد كنت من اعضاء هذه اللجنة ، ولقد حاولت ان احصل على توصية باباحة استعمال المجموعتين ، كلا في مجال ، فلم توافق اللجنة . ثم ان الأستاذ الدوري كتب بلباقته ودقته المعهودتين ، تقريرا لخص فيه الآراء ، ولم يوص بشيء .

واضيف انني التقيت في بغداد باخوان كرام عاتبوني ، بالأدب العراقي الجم ، والبيان العراقي المشهود ، اذ أدعو الى مثل هذا التغيير في وقت نحن نعاني فيه من عقدة الهزيمة . فليدع الأستاذ نصير ربه أن تزول هذه العقدة قبل ان يخرج كتابه خارج الأردن ، والا فليتحمل جمل المحامل ، وحده تبعة ما ضيع .

لست اعني اني لا أقر المؤلف على تغيير يراه نحو الافضل بحجة ان الناس لا يستحسنونه ، ولكني لا أرضى له ، وهو المعروف بشجاعته ، ان يتوارى خلف غيره . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى لا تقنعني حجته بأنه اختار هذا السبيل لأنه يريد لكتابه ان ينتشر في العالم الواسع ، فان الذين يستعملون الارقام المشرقية في العالم العربي اكثر من الذين يستعملون الأرقام المغربية .

اني اوافق الدكتور نصير على أن المجموعة المغربية انسب للاعمال الرياضية والعلمية عامة ، والعملية ايضا ، من المجموعة المشرقية ، وكنت اتمنى لو جاءت هذه الخطوة في مرحلة مبكرة ، كبدء المرحلة الثانوية مثلا .

ولكن اذا كان مجرد استبدال ارقام بأرقام ، ومجرد استعمال الأرقام المغربية الى جنب المشرقية ، كلا في مجال يخصه ، ما يزال يلقى معارضة،

فما بالك بنقل الجداول تصويرا عن الأصل الانكليزي ، عناوين وترتيبا ورموزا !

اني اخشى على صديقي الدكتور نصير أن يتهم بصدد هذه الجداول بالدعوة الى التغريب لا الى التعريب .

ولقد احسن الدكتور نصير اذ جعل محاولته الأولى في الطباعة تصويرا عن الآلة الكاتبة كيما يبقى المجال مفتوحا للتعديل حسبما تملي التجربة ويقتضي الاستعمال . وفي هذا ما يفوت علينا فرصة محاسبته على شكليات كثيرة فرضتها قيود الآلة الكاتبة . وأنا على يقين من أنه سيتلافاها في الطباعة .

فاذا تجاوزنا الشكليات ونظرنا في المضمون مثل امامنا سؤال جوهري: ما المقرر الذي يستوفيه هذا الكتاب ؟ واذ نفتقد المقرر نفترض أن المؤلف قد وضع كتابه ليكون ، كله أو اكثره ، كما جاء في المقدمة ، وافيا بمقرر مساقين أوليين في الرياضيات لطلبة الاقتصاد والادارة والتجارة .

فاذا حاسبناه على أساس من هذا الفرض نحكم بأن الكتاب يناسب طلاب القسم العلمي لأن اكثره انما هو مراجعة لما سبق أن درسوه في المرحلة الثانوية .

واما طلاب القسم الادبي فلهم الله . هاهنا ، كشأني في مناسبات اخرى ، اجدني اتوجه الى صديقي عبد المجيد بكلمتين لطيفتين : « رفقا بالقوارير ! » والقوارير هنا هم الطلاب من غير المتخصصين بالرياضيات او المؤهلين للتخصص بها .

تبقى كلمة واحدة اقولها الى الدكتور في هذه العجالة :

اني أوافق على ان الرمز « لن » خير من « لط » الذي لا يستسيغه

الذوق العربي . واعترف بأني انا وحدي المسؤول عن هذا الرمز القبيح . ولكن لو سأل طالب انكليزي معلمه : من اين جاء الرمز (Ln) ؟ لأجاب المعلم انه مختصر عن الاصطلاح (Logarithm natural) . واذا سأل طالب عربي معلمه : من أين جاء الرمز (لط) اجاب المعلم أنه مختصر عن الاصطلاح (لوغرتم طبيعي) ؟ فماذا يجيب المعلم اذا سئل : من اين جاء الرمز (لن) ؟

يبدو لي في هذه اللحظة أن « لهـ » خير من « لن » باعتباره اللوغرتم للاساس هـ . واحب ان تبقى الهاء هنا بمثل شكلها في أول الكلمة لتذكر القارىء بأنها رمز متميز .

الدكتور أحمد سعيدان

(عضو مجمع اللغة العربية الأردني)

أخبَار مجمْعيّة

الــدورة الخامسة

للجنة الاستشارية لمكتب تنسيق التعريب

شارك الدكتور عبد الكريم خليفة ، رئيس المجمع ، في الـــدورة الخامسة التي عقدتها اللجنة الاستشارية لمكتب تنسيق التعريب في الرباط من ١٠ الى ١٥ /١٠/١٩٨٠ . وكانت المنظمة العربية للتربية والثقافـة والعلوم قد انتخبت الدكتور خليفة عضوا في هذه اللجنة .

وانتخب الدكتور عبد الكريم خليفة رئيسا للجنة الاستشاريـــة ،

وتضمن جدول أعمال الدورة امورا متعددة ، من أهمها ما يلي :

انتخاب رئيس اللجنة ونائب رئيسها ،

والنظر في تقرير مدير المكتب الدائم لتنسيق التعريب عن انجازات المكتب ،

والنظر في برامج المكتب وخططه من خلال الموازنة المقترحة للــدورة المالية ١٩٨٠ / ١٩٨١ ،

والاعداد لمؤتمر التعريب الرابع ، ومن ضمن ذلك عقد ندوة للخبراء المتخصصين ، وندوة أخرى لمنهجية وضع المصطلح الموحد .

وكذلك نظرت اللجنة في المشاريع المعجمية التي ستعرض على مؤتمر التعريب الرابع .

توصيات الدورة الخامسة

للجنة الاستشارية لمكتب تنسيق التعريب

في ما يلي ننشر التوصيات التي صدرت عن الدورة الخامسة للجنة الاستشارية لمكتب تنسيق التعريب ، التي عقدت في الرباط من ١٠ الى ١٩٨٠/١٠/١٥ :

١ ــ زيادة عدد المطبوع من مجلة اللسان العربي التي يصدرها المكتب الى خمسمئة وسبعة آلاف نسخة نظرا للاقبال عليها وللتوسع في توزيعها ، ومواصلة الجهود الرامية الى اخراج المجلة اخراجا سليما خاليا من الاخطاء اللغوية والمطبعية .

٢ ــ اعطاء الأولوية للمكتبات العامة والجامعات والمؤسسات العلمية واللغوية في توزيع مجلة (اللسان العربي) ومطبوعات المكتب ثم الخبراء المختصين .

٣ ــ توطيد العلاقات بين الاساتذة المختصين في مجالات العلوم المختلفة والمنظمات العلمية والمؤسسات اللغوية في الوطن العربي وخارجه وعقد ندوات متخصصة والعمل على أن تساعد الجامعات والمؤسسات العلمية في استضافة هذه اللقاءات والاجتماعات .

٤ ــ حث المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم على مواصلة القيام بدراسة احصائية للكفايات العربية ولا سيما المهاجر منها والاستفادة منها في المجال العلمي والتعريب .

٥ ــ عدم الاقتصار على الانكليزية والفرنسية وحدهما في معاجم المكتب ، وادخال لغات معاصرة أخرى .

٦ ــ توثيق اتصال المكتب بلجان التعريب التي شكلت في الدول والجامعات العربية .

٧ ــ اضافة اللسانيات (علوم اللسان) ، وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا، والاقتصاد ، والاعلام ، والآثار ، والفلك والفنون كالموسيقى والرسم الى المشروعات المقدمة من المكتب لعرضها على مؤتمر التعريب الخامس ، مع الاسترشاد بتوصيات مؤتمر التعريب الرابع والمؤتمرات السابقة بهذا الخصوص .

٨ ــ عقد ندوتين للخبراء العرب تمهيدا لمؤتمر التعريب الخامس ، احداهما حول استكمال المشروعات المعجمية الخاصة بمواد التعليم المهني والتقني وثانيتهما حول المشروعات المعجمية الخاصة بمواد التعليم العالي .

٩ ــ قيام المكتب بالاتصال بالمجامع اللغوية بالقاهرة وبغداد ودمشق وعمان والرباط ، والجامعات والمعاهد اللسانية في الاقطار العربية من اجل موافاته بقراراتها الخاصة بمنهجية وضع المصطلح العلمي ؛ واستنساخ ما يرده منها وتوزيعه على جميع الجهات المعنية ، تمهيدا لعقد ندوة توحيد منهجيات وضع المصطلحات باللغة العربية .

١٠ ــ قيام تعاون وثيق بين مكتب تنسيق التعريب ومعهد اللسانيات في الجزائر ومعهد الدراسات والابحاث للتعريب في الرباط مع رجاء أن يتقدم المسؤولون في هذه الهيئات أو المؤسسات بمذكرة لمؤتمر التعريب الرابع لبيان أوجه التعاون والتكامل ووسائل دعمها .

١١ ــ انشاء بنك عربي للمصطلحات في مكتب تنسيق التعريب وضرورة قيام المكتب بالاتصالات مع بنوك المصطلحات المتخصصة العالمية والتعاون

معها في نشر المصطلح العربي والاستفادة من خبرتها في هذا الميدان ودعم المكتب بالتقنيات الحديثة في انجاز أعماله .

وبعد الاطلاع على مشروعات مكتب تنسيق التعريب وجهوده في مجال تنسيق المصطلحات العربية تتوجه اللجنة الاستشارية بالشكر على الثقة التي أوليت لها وتشيد بالجهود المثمرة التي يقوم بها المكتب وترجو من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم زيادة الدعم له حتى يستطيع أن يحقق الاهداف التي انشيء من أجلها .

● * * ●

استقبال زملاء

استقبل مجمع اللغةالعربية الاردني ،في منتصف شهر ايلول الماضي، مجموعة من الزملاء من بلدان عربية شقيقة ، من اعضاء لجنة المعجم الطبي العربي،الذين كانوا يزورون عمان في ندوة خاصة بالمعجم الطبي . وكان من بينهم الدكتور حسني سبح ، رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق ، والدكتور محمود الجليلي ، عضو المجمع العلمي العراقي ، والدكتور مروان المحاسني ، من دمشق ، وغيرهم .

وقد اقام المجمع حفلة شاي تكريما لهم في مقر المجمع الجديد، وكانت الحفلة مجالا لتبادل الأفكار والآراء حول عدد من القضايا التي تهم المجامع العربية ، ولا سيما قضية التعريب ، والمصطلحات العلمية والتكنولوجية الحديثة ، وضرورة أغناء اللغة العربية بها .

اعادة انتخاب الدكتور حسني سبح

رئيساً لمجمع اللغة العربية في دمشق

جدد مجمع اللغة العربية الشقيق في دمشق انتخاب الزميل الأستاذ الدكتور حسني سبح رئيسا له لمدة اربع سنوات اخرى .

وقد تم ذلك في الجلسة الثانية عشرة للدورة المجمعية ١٩٧٩/١٩٨٠، وقد انعقدت في١٥ شعبان ١٤٠٠ هـ ٢٨ حزيران ١٩٨٠ م .

ومجمع اللغة العربية الأردني يبارك للزميل الدكتور حسني سبح ، متمنيا له السعادة والعمر المديد ، والنشاط المستمر في خدمة اللغة العربية العزيزة .

● ★ ★ ●

الاستاذ عبد الكريم زهور

تلقى مجمع اللغة العربية الأردني من شقيقه مجمع اللغة العربية في دمشق ، نبأ انتخاب الأستاذ عبد الكريم زهور عدي عضوا عاملا في مجمع دمشق ، وقد تم استقباله في ٨ رجب ١٤٠٠ هـ . ٢٢ أيار ١٩٨٠ م .

نبارك للزميل الأستاذ عبد الكريم زهور عدي ، متمنين له كل التوفيق في مواصلة الجهد في خدمة الضاد العزيزة .

تابين البطريرك الراحل يعقوب الثالث

وتنصيب البطريرك الجديد اغناطيوس زكا الاول

انتدب المكتب التنفيذي لمجمع اللغة العربية الأردني الأستاذ عيسى الناعوري الامين العام للمجمع ، لحضور حفلة تابين البطريرك الراحل يعقوب الثالث ، بطريرك السريان الأرثوذكس ، وعضو مجمع اللغة العربية في دمشق ، التي أقيمت في دمشق مساء يوم الجمعة ١٩٨٠/٩/٥ ، وكذلك لحضور حفلة تنصيب البطريرك الجديد مار أغناطيوس زكا الأول عيواص عضو المجمع العلمي العراقي ، والعضو المؤازر في المجمع الأردني ، التي جرت في دمشق صباح يوم الأحد ١٩٨٠/٩/٧ .

وقد نقل الأمين العام تهنئة المجمع الى البطريرك الجديد ، مثلما نقل قبلها تعزية المجمع بالبطريرك الراحل .

كتب العلوم للسنة الجامعية الأولى

كان اقبال الطلبة في بداية هذا العام الدراسي ٨١/٨٠ على شراء الكتب العلمية المترجمة الى اللغة العربية رائعا في الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك ، بفضل تعاون الجامعتين وأعضاء الهيأة التدريسية فيهما مع المجمع ، لاحلال اللغة العربية محل اللغة الانكليزية في تدريس العلوم.

وكانت الكتب التي خرجت من المطبعة واصبحت معدة للاستعمال هي : الرياضيات (جزآن) ، والبيولوجيا (جزآن) ، والجيولوجيا (جزء واحد) . وتأخر في المطبعة كتابا الفيزياء والكيمياء لظروف قاهرة .

ولقد كان المجمع يامل ان يشمل مشروعه لتعريب تدريس العلوم الجامعات العربية برمتها ، والأمل كبير في ان يتم هذا في الأعوام التالية .